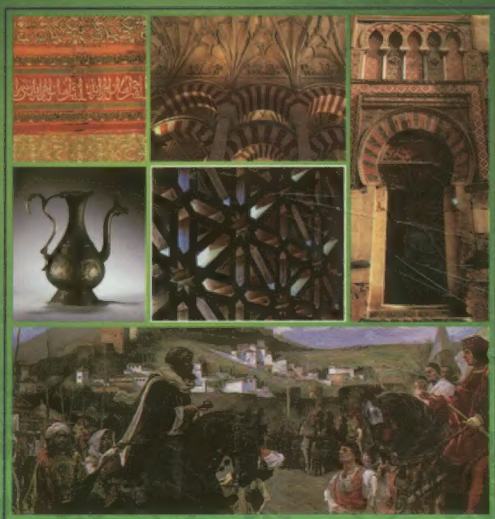


العصر الأندلسي

تاريخ العرب في بلاد الأندلس

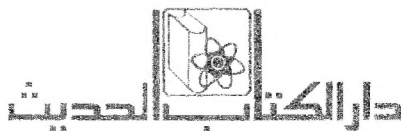
دراسة في الحياة الاجتماعية لإشبانيا الإسلامية

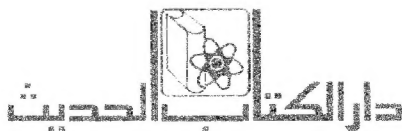


البروفيسور / محمد حسن العيدروس

أستاذ التاريخ والعلاقات الدولية - رئيس مركز الميڤروس للدراسات والاستشارات

sharif mahmoud





دار العبدروس للكتاب الحديث
موسوعة أسبانيا الإسلامية

العصر الأندلسي تاريخ العرب في بلاد الأندلس

دراسة في الحياة الاجتماعية لإسبانيا الإسلامية

البروفيسور / محمد حسن العبدروس
أستاذ التاريخ والعلاقات الدولية -
رئيس مركز العبدروس للدراسات والاستشارات

العبدروس ، محمد حسن .	
موسوعة أسبانيا الإسلامية/ محمد حسن العبدروس	
ط 1 . - القاهرة: دار الكتاب الحديث ، 2011	
212 ص ؛ 24 سم .	
تتمك 978 977 350 449 2	
1- الأندلس - تاريخ - حياة اجتماعية - موسوعات .	
أ- العنوان.	
953.071203	

رقم الإيداع 2011/ 21012

حقوق الطبع محفوظة
1433 هـ / 2012 م

دار الكتاب الحديث
www.dkhbooks.com

94 شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة ص ب 7579 البريدي 11762 هاتف رقم : 22752990 (00 202) فاكس رقم : 22752992 (00 202) بريد إلكتروني : dkh_cairo@yahoo.com	القاهرة
شارع الهادي ، برج المصديق ص ب : 22754 - 13088 الصفاء هاتف رقم 2460634 (00 965) فاكس رقم : 2460628 (00 965) بريد إلكتروني : ktbhades@ncc.moc.kw	الكويت
B. P. No 061 - Draria Wilaya d'Alger- Lot C no 34 - Draria Tel&Fax(21)353055 Tel(21)354105 E-mail dk.hadith@yahoo.fr	الجزائر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١)﴾ [التوبة]. ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (٢٧)﴾ [الحشر]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (١١)﴾ [الرعد]. ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ (١٤٠)﴾ [آل عمران]. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ (٢٨)﴾ [محمد]. ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)﴾ [آل عمران]. ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ (١٢٠)﴾ [البقرة]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٤)﴾ [النساء].

إهداء

إلى كل من دافع عن أرض الإسلام والمسلمين في وجه الأعداء الظالمين والمحتلين لأراضيها... إلى الذين قاوموا وكافحوا وقدموا أرواحهم في سبيل الله وفي سبيل الإسلام والمسلمين ضد الاستعمار المسيحي البريطاني والفرنسي والإسباني والأمريكي. إلى الأتراك العثمانيين الذين أوقفوا الزحف المسيحي الصليبي لديار المسلمين أكثر من ستة قرون. وإلى الذين جاهدوا واستشهدوا وسقطوا جرحى دفاعاً عن كرامة الإسلام والمسلمين. وإلى كل من يدافع عن الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس بكل الوسائل المتاحة سواء بالسلاح أو بالقلم أو بالدعوة الحسنة حاضراً ومستقبلاً.

وإهداء إلى والدي المرحوم السيد الشريف/

حسن أحمد علوي العيدروس

والذي علمني بأن كرامة الأمة الإسلامية والإسلام هي أعلى ما في الإنسان، ويدونها لا وجود للإنسان وللحياة الكريمة.

أطلب من الله سبحانه وتعالى أن يطيب ثراه

ويغمده الجنة إن شاء الله..

الفاتحة

إلى أرواح شهداء الإسلام والمسلمين الذين سقطوا دفاعاً عن الإسلام والمسلمين من عهد الدولة الإسلامية الأولى في عهد الرسول والخلافة الراشدة والأموية والعباسية والفاطمية والعثمانية حتى اليوم والغد وإلى يوم الدين،

رسالة الإسلام والسلام

مقدمة

من أجل الحوار السليم والسلام بين المسلمين والمسيحيين في العالم والتعايش السلمي بين الأديان، وليعرف الأوروبيون والغربيون المسيحيون كيف كان لمسلمي صقلية وإسبانيا والدولة العثمانية روح التسامح وحرية التعبير وممارسة المذاهب الدينية لغير المسلمين في ظل الحكم الإسلامي، وكيف يعامل الأوروبيون الذين يدعون حقوق الإنسان وحرية الأديان للأقلية المسلمة في أوروبا؟ فكيف سبقهم المسلمون إلى ذلك قبل عدة قرون، في الوقت الذي تعاني الأقلية الإسلامية من اضطهاد في ممارسة المعتقد الخاص بهم، وحرية اختيار الملابس وممارسة الشعائر الدينية. إلى كل المسلمين ليعرفوا، كيف كان أجدادهم بناء حضارة وقدموا للبشرية أروع النظم والحياة الإنسانية في أوروبا في العصور الوسطى، وكيف ساهموا في إثراء وتطور العالم الإنساني. أين هم الآن من ذلك؟! لماذا أصبحوا متلقين بعدما كانوا ملقنين؟ لأصبحوا يأخذون من كل شيء إيجابي وسلبى دون تمييز بعدما كانوا يعطوا أعظم القيم العليا الإنسانية والعلمية إلى العالم. وليعرف العالم المذابح ضد الإنسان والإنسانية والتطهير العرقي، وجرائم حرب الإبادة البشرية والإرهاب المنظم للدولة الذي ارتكبه المسيحيون في إسبانيا وصقلية وجنوب إيطاليا والحروب الصليبية في سواحل سوريا ولبنان وفلسطين والرها وأنطاكية وبلغاريا والبوسنة وكوسوفو وصربا وشاتلا وجسر الباشا وتل الزعتر والشيشان وأبخازيا وجزيرة القرم والعراق وأفغانستان ضد المسلمين، وكيف عامل المسلمون المسيحيين في

إسبانيا وصقلية والدولة العثمانية، وكيف يعاملون في سوريا ومصر ولبنان وإندونيسيا ونيجيريا وغيرها من الدول الإسلامية. هناك فرق كبير بين التسامح لدى المسلمين والإسلام وغيرهم.

الحمد لله والصلاة والسلام على هادي البشرية من الضلال والشرك إلى الهدى والهداية سيدنا وحبيبنا وشفيعنا محمد رسول الله والصلاة والسلام على آل بيته الطاهرين.

سادت حضارات ثم بادت، نشوء وارتقاء ثم السقوط، تلك هي الظاهرة التاريخية التي تتكرر في عالم الإنسان الذي يحاول فهمها أو يفهمها، وإن فهمها ينساها أو يتناساها، في حين أن أمة الإسلام هي أمة التوحيد الوحيدة في العالم منذ خلق البشرية حتى اليوم وإلى أن يرثها الله، ومنهجها القرآن الكريم والسنة النبوية إلى يوم الدين، من تعلق بها نجا ومن تركها سقط وضاع وانتهى. ومن هنا يرتبط تفوق الإسلام وسيادة وعالمية الأمة الإسلامية بمدى تمسكها وتعلقها بهذا المنهج وهذه الرسالة البشرية التي أنزلها الله على الأمة الإسلامية عن طريق رسوله محمد ﷺ. يرتبط تكالب الأمم المشركة بالله وأعداء الإسلام والمسلمين من الصليبيين المسيحيين بابتعاد المسلمين عن منهج الإسلام وتخليهم عن رسالة الجهاد والحفاظ على رسالة الإسلام وعقيدته وقيمه الإنسانية العالمية الخالدة وما مدى تطبيقه والحفاظ عليه. ومن هنا كان تفوق الحضارة الإسلامية في إسبانيا، وعندما ابتعد المسلمون عنها، ابتعد الله عنهم فسقطوا وانتهى ملكهم، وعندما طلب المسلمون العون والمساعدة من المشركين المسيحيين في إسبانيا ضد إخوانهم تركهم الله. وهذا ما أدى إلى ارتفاع قوة المسيحيين الصليبية بقيادة بابا الفاتيكان الذي أعلن الحرب الصليبية المسيحية على مسلمي إسبانيا قبل المشرق الإسلامي في سواحل الشام، وبذلك توافد آلاف المسيحيين من مختلف أنحاء أوروبا لقتل المسلمين في إسبانيا مما

أدى إلى سقوط آخر معقلها في غرناطة ولم ينتهِ إلى هذه الحدود وإنما امتد إلى احتلال المغرب العربي حتى ليبيا.

هنا أرسل الله عباده المجاهدين من الأتراك العثمانيين الذين قاموا بطرد الصليبيين المسيحيين والحفاظ على المغرب العربي والمساعدة في إجلاء المسلمين من إسبانيا. ولا ننسى ما قام به المسيحيون من التطهير العرقي والمذابح الجماعية ضد المسلمين في إسبانيا وحرقتهم وهم أحياء في احتفالات الإبادة الجماعية التي لم يشهد لها التاريخ البشري مثيل حتى قيام الأوروبيين المسيحيين الصرب بجرائم الإبادة البشرية والتطهير العرقي ضد المسلمين في البوسنة، أمام أنظار أوروبا والغرب المسيحي الذي يدعي الحضارة وحرية الإنسان، بل قام الجيش الهولندي من قوات حفظ السلام بمساعدة الصرب في جرائمهم.

وفي الختام آخر دعوانا أن الحمد لله، وأن الأرض يرثها لعباده الصالحين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ، وعلى آل بيته الطاهرين،،

البروفيسور الدكتور محمد حسن العيدروس

أستاذ التاريخ والعلاقات الدولية

المجتمع في إسبانيا الإسلامية

من المناسب التعريف أولاً بمصطلح «الأندلس» الوارد في العنوان السابق وبيان حدود استخدامه. يطلق المؤرخون المسيحيون لفظ «هسبانيا» (Hispania) أو «سبانيا» (Spania) ويريدون به مجموع أراضي شبه جزيرة أيبيريا - سواء الخاضع منها للسيطرة الإسلامية أو الأرض التي حررتها المسيحية قرناً بعد آخر. أما المؤرخون العرب - بامتناء حالات نادرة - فيطلقون تعبير «بلاد الأندلس» على الأراضي الإسبانية الخاضعة للإسلام. ومن المعروف أن الرقعة الجغرافية التي يطلق عليها هذا التعبير (الأندلس) كانت تتأكل بنفس المقدار الذي تتقدم به «حرب الاسترداد» المسيحية إلى أن أصبح يعني في القرن الرابع عشر والخامس عشر مملكة غرناطة الصغيرة فحسب. وعلى خلاف هذا فمن النادر أن يقوم المؤرخون والجغرافيون المسلمون بإطلاق لفظ «إشبانيا» (Ish-baniya) على إسبانيا المسلمة، وإذا فعلوا هذا فيما يريدون به الأراضي التي تمثلها المناطق الآتية: البرتغال، قشتالة، نبرة، رغون. وإلى يومنا هذا لا زلنا ننطلق من التكهّنات للبحث عن أصل مصطلح «الأندلس». فالبعض يربطه باللفظ غير المؤكد «فانداليشا» (Vandalicia)، وهو الاسم الذي أطلقه «لوندال» (Vandalos) على إقليم «لايتيكا» (La Betica) عند اجتيازهم السريع له قبل استقرارهم النهائي في المغرب العربي. على أية حال، فمن المؤكد أن الاصطلاح يعود استخدامه لبداية الفتح العربي ويشهد بهذا دينار مزدوج اللغة يرجع تاريخه لعام 716 م، حيث نقش على أحد وجهيه باللاتينية: «ضرب في إسبانيا»، وعلى الوجه الآخر نقش باللغة العربية «ضرب في الأندلس». ومن جهة أخرى، فإن لفظ «الأندلس» لم يختف بانتهاء السيطرة الإسلامية بل

ظل باقيًا حتى الآن في إسبانيا الحديثة وأصبح يطلق - بهذا الشكل: أندلوثية (Andalucia) - على قسمها الجنوبي الذي يضم المحافظات التالية: غرناطة، مالقة، قرطبة، إشبيلية، المرية، جيان، ولبة، قادس. ما يهمنا التأكيد عليه في هذا المقام هو أننا سنستخدم لفظي «الأندلس»، «الأندلسيين» كما فهمهما واستخدمهما المؤرخون العرب الذين يطلقون مسمى «الأندلس» على الأراضي الواقعة تحت سيطرة المسلمين فقط وليس على الأرض المستردة منهم؛ ويطلقون لفظ «الأندلسيين» ويريدون به المسلمين الذين يعيشون في أي بقعة من أرض إسبانيا سواء كانت في الغرب أو «إكستريمادورا» (Extremadura) أو «رغون» السفلى (Aragon) أو «ليانتي» (Levante). فاتحى الأندلس كانوا ينتمون إلى فريقين رئيسيين: العرب من بلدين وشاميين ومن قيسية ويمنية، ثم البربر وهم بدورهم ينتمون إلى بطنين كبيرين: بتر وبرانس، ومنهما تنفرع قبائل كثيرة. وكان البربر بغير شك أكثر عددًا من العرب، ولكنهم سرعان ما تعربوا لغة وثقافة. ويلحق بالعرب فريق كبير هم المدعوون بالموالي، وكثير من هؤلاء كانوا من عناصر غير عربية، غير أنهم يلحقون بالعرب جريًا على قاعدة سائدة وهي أن «مولى القوم منهم»، فرابطة الولاء تكاد تقارب رابطة النسب، وسنرى كيف برز على مسرح سياسة الأندلس عدد كبير ممن ينتمون إلى أسر الموالي فولوا أعلى مناصب الدولة، وكانت غالبية هؤلاء من موالي بني أمية فكان ولاؤهم وعصبيتهم للأمويين. ويبقى أهل البلاد وقد رأينا أن المجتمع القوطي كان منقسمًا إلى قسمين: الحكام القوطيين والرعايا من أهل البلاد، وأنه كان مجتمعًا تسوده الفوارق الحادة بين الطبقات المتميزة. فلما دخل المسلمون بمختلف العناصر التي كان يتألف منها الفاتحون امتزجوا بأهل البلاد جميعًا وتزاوجوا معهم. ولنذكر أن هؤلاء الفاتحين لم يتقدموا إلى البلاد أسرى، وإنما رجالًا فقط، فكان عليهم أن يتخذوا أزواجًا لهم من نساء البلاد.

وهكذا لا نلبث أن نرى في الأجيال التالية مجتمعًا هو خليط من كل تلك العناصر، وأحسن العرب معاملة أهل البلاد فلم يثقلوهم بالضرائب كما أطلقوا لهم الحرية الدينية فلم يكرهوا أحدًا على اعتناق الإسلام، وأدت هذه السياسة المتسامحة إلى مزيد من الامتزاج بينهم وبين أهل البلاد، وإلى أن يقبل الكثيرون منهم على اعتناق الإسلام وسمي هؤلاء المسلمون الجدد بالأسالة أو المسالة وسمي أبناؤهم بالمولدين، وبقيت طائفة كبيرة من أهل البلاد محافظة على دينهم المسيحي، ولكنهم تأثروا بمساكنهم من العرب في عاداتهم وأوضاعهم الاجتماعية واتخذوا العربية لغة لهم ولهذا فقد سموا بالمستعربين (Mozarabes) لكن عدد هؤلاء كان يتناقص بشكل مطرد كلما زاد الإقبال على اعتناق الإسلام. تكون المجتمع الأندلسي من مجموعة من العناصر المتباينة انصهرت جميعها في بوتقة واحدة وكونت المجتمع الأندلسي وهذه العناصر هي:

(1) العرب: وهم مجموعتان: المضرية، واليمنية، وقد استمر الصراع بينهما في الأندلس مثلما كان في المشرق، وتتفرع المجموعة المضرية إلى أربعة وعشرين فرعًا انتشرت في بلاد الأندلس المختلفة. أما المجموعة اليمنية فقد وصل فروعها إلى واحد وعشرين فرعًا تركز وجودها في الجنوب الشرقي من الأندلس، وكان هؤلاء العرب أقلية بين عناصر السكان الأخرى لأسباب عديدة، ويرى بعض الباحثين أن عدد العرب الذين أتوا إلى الأندلس من شمال إفريقيا والشام وصل إلى ما يقرب من (30 ألفًا) ارتفع هذا الرقم ليصبح نحو (300 ألف) بعد سنوات.

(2) البربر: وهؤلاء كونوا السواد الأعظم من الجيش الفاتح وفاقت أعدادهم أعداد العرب، ويسمى هؤلاء إلى زناتة ومكناسة وصنهاجة ومصمودة

وهراة ومديونة وكنامة، ومغيلة ونفزة وهؤلاء تركز وجودهم في المناطق الجبلية خاصة في الشمال الغربي ووسط الأندلس وأراضي السهلة وادي الحجارة وإشبيلية وما حولها لتشابه ظروفها مع ظروف الحياة والبيئة في مواطنهم الأصلية، واشتغلوا بالزراعة وتربية الماشية ويسرت لهم مواطنهم في مناطق الحدود وغيرها من المناطق الجبلية القيام بالثورات بعد ذلك.

(3) المسألة والمولدون: أما المسألة أو الأسالة أو أسالة أهل الذمة، فهم الذين دخلوا في عقيدة الإسلام من النصارى. أما المولدون فهم في أرجح الأقوال أبناء المسألة أو هم نتاج الزواج المشترك بين العرب والبربر من ناحية وبين الإيبان من ناحية أخرى، ومن الطبيعي أن يكون عدد هؤلاء قليلاً في أول الأمر، ثم يتنامى نتيجة كثرة اعتناق أهل البلاد للإسلام وانتشار ظاهرة الزواج المشترك بين العرب أو البربر وبين من أسلموا حديثاً، وقد تركز وجود هذا العنصر في الحواضر والمدن الكبرى من شبه الجزيرة. وكانوا مع العرب هم العنصر الغالب فيها، وكان هذا سبباً في حدوث نزاع بين هاتين الطائفتين في المستقبل.

(4) الموالي: مجموعة من عناصر مختلفة تجمع بينها رابطة الولاء بين المولى وسيده أو التابع ومتبوعه، ويرجع هؤلاء إلى أصول مختلفة بعضهم رافق الشاميين الذين دخلوا الأندلس وعرفوا لذلك باسم موالي الشاميين، وبعضهم كان من البربر الذين أسلموا ووافقوا سادتهم في دخول الأندلس فسموا باسم الموالي البلديين، وبعضهم يرجع لأصول محلية إيبانية، وموالي الاصطناع أو النعمة الذين أنعم عليهم الأمويون بالولاء اعتزازاً وتقديراً، بالإضافة إلى الرقيق المشتري ممن أنعم عليه أسياده بالعتق، وتركز وجود هؤلاء في قرطبة خاصة وفي كورة البيرة (غرناطة) وفي جهات متفرقة من أنحاء

الأندلس، وقد شدوا من أزر العرب أولاً ثم انقلبوا عليهم وظهر من بينهم قادة من أمثال بني عبدة وبني شهيد وبني مغيث وبني جهور.

(5) الصقالبة: كان يقصد بهذه الكلمة أولاً الشعوب السلافية، ثم أصبح العرب يطلقونها على الأرقاء الذين يجلبون من الأمم المسيحية ويستخدمون في القصر أو الجيش، عن طريق الشراء بواسطة تجار اليهود أو عن طريق الحملات العسكرية، وأول من استجلب الصقالبة «عبد الرحمن بن معاوية» ثم استنكر الأمراء منهم بعد ذلك حتى كونوا جماعة كان لها دور عظيم في أحداث الأندلس، وصلت أعدادهم إلى ثمانية عشر ألفاً في قرطبة وحدها، وبلغوا أقصى نفوذاً لهم في عهد «عبد الرحمن الناصر». هذه هي العناصر الإسلامية، وإلى جانبها وجد في المجتمع الأندلسي عنصران من غير المسلمين أو من أهل الذمة هما:

(1) النصارى: وشكل هؤلاء عدداً كبيراً استوطن أعداد كبيرة منهم مدناً وقرى كثيرة في الأندلس واستقر في «طليطلة» و «برشلونة» و «غرناطة» و «ماردة» وتمتعوا جميعاً بالرعاية ومنحتهم الدولة الحرية الكاملة دينية واجتماعية حتى أنشئ لهم منصب لإدارة شئونهم عرف صاحبه بالقومس. ووصل بعضهم إلى المناصب العليا في الدولة، وتأثر هؤلاء بدورهم بثقافة العرب ولغتهم وأسلوب حياتهم وأصبحوا لهذا يسمون بالمستعربين.

(2) اليهود: استوطن عدد كبير منهم في قرطبة ولهم فيها باب يعرف باسمهم، وسكن عدد كبير آخر في «إشبيلية» ولهم مشاركة ملحوظة في فتح الأندلس وفي أحداثها السياسية وفي إدارة المدن المفتوحة، كما استوطنت جماعة كبيرة منهم في «طليطلة» وفي «برشلونة» وفي «طركونة»، وقد مارس جميعهم شعائرهم الدينية في بيعهم بكل حرية، وكانت علاقاتهم بالمسلمين

طية فاندمجوا في المجتمع الإسلامي وتعلموا العربية وتبنوا تقاليد المسلمين وعمل بعضهم في بلاط الأمويين وتولوا مناصب مهمة في الدولة الإسلامية، واحتل بعضهم الطبقات العليا في المجتمع الإسباني الإسلامي⁽¹⁾.

العرب،

لم يكن تعداد العرب بالوفرة التي يستطيعون بها شغل أراضي إمبراطوريتهم الشاسعة التي فتحوها، ومن ثم فقد تصرفوا بحكمة عندما زودوا كل منطقة بالكوادر السياسية اللازمة. ولا تتجلى براعتهم فقط في جعل كل المناطق التي دخلوها تقبل على اعتناق دينهم بل، أيضاً، في فرض التعريب الاجتماعي على الكتل السكانية الخاضعة لسيطرتهم. ويغلب الظن بأن نسبة العرب الخالص في إسبانيا القرن الثامن كانت ضئيلة ومن أبرز ممثليها الانتصار والتابعون. وإذا كانت هذه النسبة قد تزايدت فيما بعد فالفضل يرجع لعودة حكم بني أمية لتلك الأراضي البعيدة من الإمبراطورية العربية وللمكانة الرفيعة التي احتلتها هذه المحافظة الإسلامية ذات الطبيعة الخلافة. وكما لاحظنا من قبل، فإن عرب إسبانيا الخالص القليلي العدد (مقارنة بالبربر أو المسلمين الجدد) عندما نقلوا معهم في القرن الثامن إلى شبه جزيرة أيبيريا نزاعاتهم الطبقية وخصوماتهم العشائرية (بين القيسيين واليمنيين) فإنهم لم يسمحوا بذلك لإخوانهم الجدد في الدين الاقتراب من مجال السيادة. لقد أصبح في مقدورنا الآن - بفضل عناية المؤرخين العرب بإبراز هذه المسألة، وبفضل مدونة «جمهرة أنساب العرب» التي كتبها ابن حزم الأندلسي في القرن العاشر - التعرف بمزيد من الدقة على المجموعات العربية الرئيسية التي دخلت إسبانيا الإسلامية بل وتحديد الأماكن التي استقرت بها على الخريطة. وفي هذا المقام

(1) عبد الله جمال الدين، المرجع السابق، ص 83.

يجب تكرار ما أشرنا إليه سابقاً قائلين بأن هؤلاء العرب «الداخلين»، بالرغم من شدة اعتزازهم بأصولهم إلا أنهم لم يستطيعوا المحافظة طويلاً على نقاء الدم والسلالة اللتين قدما بهما إلى إسبانيا نتيجة لشيوخ مصاهرتهم للمولدين ولكثرة حالات التبنى واتخاذ الموالي. وأقدم خلية عربية عرفتها إسبانيا الإسلامية تتمثل في القيسيين والكليين الذين قدموا مع موسى بن نصير إلى شبه جزيرة أيبيريا. وبعدها بقليل (في 713 م - 94 هـ) تبعتهم عدة مئات بصحبة الحاكم: الحر بن عبد الرحمن الثقفي. ونعتقد أن هجرات العرب إلى الأندلس قد استمرت بعد ذلك حتى منتصف القرن الثامن، لكننا لا نستطيع تحديد أحجامها ولا أوقاتها لعدم ورود أخبار عنها، والخبر الوحيد الموثوق به عن هجرات هذه الفترة السابقة لولاية عبد الرحمن الأول يخص «الجند» السوريين الذين قدموا مع بلج القشيري، وقد أشرنا من قبل إلى دورهم العسكري وإلى استقرارهم في «كور» جنوب وشرق إسبانيا الإسلامية. وتجدر الإشارة إلى أن كتب التاريخ تطلق اسم «البلديين» على الداخلين الأوائل وأحفادهم (من قدموا مع موسى بن نصير ومع الحر)، بينما تطلق على من جاءوا بصحبة بلج «الشاميين» أو «السوريين». ولقد استقر العرب - بوجه عام - في المدن الواقعة في السهول الخصبة. وهذا ينسحب بالتحديد على الأرستقراطية القرشية وعلى أرستقراطية أحفاد الأنصار. وفيما يخص المناطق التي استقر بها العرب في الأندلس، نجد أن ممثلي العشيرة العدنانية/ القيسية للفهرين قد تمركزوا فيما يلي: الكنانيون حول طليطلة؛ الهذليون في إقليم «أوربولة» الحجازيون والقيسيون في منطقتي إشبيلية وبلنسية. أما بالنسبة للعشيرة المناوئة (الختعميون، اليمينيون) فقد كان الأزديون والحميريون (مواطنو حضرموت، جنوب شبه جزيرة العرب) موزعين بين قرطبة، بطليوس (BAD) (AJOZ)، إشبيلية، البيرة، ومرسية. وعلى هذا، فقد استأثرت الطلائع الغربية

و «جند» بلج السوريون بنصيب الأسد من الأراضي التي فتحها المسلمون في القرن الثامن. ولا نعرف سوى القليل عن كيفية استفادتهم من طبيعة إسبانيا الإسلامية الغنية. وبما أننا سنعود لهذا الموضوع بالتفصيل سنقتصر هنا على الإشارة إلى أنهم تبنوا - على الأرجح - نظام المزارعة أو المشاركة في المواشي الذي كان معمولاً به في أفريقيا الرومانية والمستمد في الغالب من نظام بربري قديم. اختار العرب الإقامة في المدن للاشتغال بالوظائف أو بشئون الحكم، أو الإقامة في بيوتات ريفية مريحة ومسلية كسادة إقطاعيين، وعهدوا بفلاحة ضياعهم إلى مولدين من العوام أو فلاحين مسيحيين مقابل إيجار معين أو المشاركة في المحاصيل التي تغلها الأرض. ومن جهة أخرى، فقد ظهرت سريعاً - وخاصة في جنوب غرب إسبانيا - الأعباديات الكبيرة التي تمتلكها بعض العائلات العربية، ومن أهمها العائلات المقيمة بمقاطعة إشبيلية اتخذت الخصومات بين الأحزاب العربية في الأندلس خلال فترة الولاة شكلاً مزعجاً حتى أنه لزم قرن من الزمان لإخماد شعلة هذه النزاعات التي توارثها العرب ابتناً عن أب. ولقد تنبه دوزي إلى خطورة هذا الأمر، ورأى أن يتبع ذلك النزاع في جزيرة العرب منذ فترة ما قبل الإسلام، وأن يسير في أثره خارج جزيرة العرب مع الفتوح الإسلامية إلى المغرب وإسبانيا. والحقيقة أن هذا الصراع شغل كل تاريخ الأمويين في المشرق. فخلال القرن الذي عاشه مثلهم في الشام كان هناك نزاع مستمر بين العصيتين العربيتين الكبيرتين من القيسية والكلبية. هذا النزاع - كما أشرنا - لم يكن جديداً فهو يعود إلى عهد الراشدين وعهد النبوة وإلى ما قبل الهجرة. وعصية القيسيين أبناء قيس عيلان بن مضر (وإلى هذا الأخير ينتسبون فيقال مضرية - أي من فرع مضر) تنفرح نفسها إلى قبائل وجماعات (ذبيان وغطفان وباهلة) وعلى عهد النبي ﷺ كان القيسيون يتقلون في شمال ووسط جزيرة العرب وعلى شواطئ

البحر الأحمر حتى تخوم العراق. وجاءت الفتوحات العربية واشتركوا فيها اشتراكاً فعالاً، وتمكنوا من الهجرة من بلادهم البخيلة في جزيرة العرب فأقام أغلبهم بالشمال في الشام وغربي العراق. وكان منهم أغلب سكان مدينتي العراق الكبيرتين: الكوفة والبصرة. وعندما نقل مركز الخلافة إلى الشام حيث كانوا قد استقروا ازدادت أهمية الدور السياسي الذي كان عليهم أن يقوموا به. أما عن الكلبيين فإنهم قحطانية (من فرع قضاعة) ويعتبرون أنفسهم يمنية، رغم طول المدة التي انقضت منذ خروجهم من اليمن ولم تكن العدواة والتقليدية بين هذين الفريقين تسمح بقيام أي اتفاق بينهما. وهناك من يحاول تفسير روح العداء بين هذه الجماعات ليس عن طريق الاختلافات الجنسية، ولكن عن طريق النفور العدائي شبه الغريزي الذي يكنه سكان المناطق القحلة بالنسبة لسكان الأراضي الخصبة (دوزي يقول - سكان المدينة يمنية زراع بينما سكان مكة معدية تجار وهم أعداء بالطبيعة) وهناك عامل متأخر ولكنه مهم بالنسبة لهذا العداء، وذلك أن الإسلام احتفظ بمركز ممتاز في أول أمره للقيسية - وكان ذلك طبيعياً - بينما ترك الكلبيين في مركز ثانوي وعلى عهد خلفاء الأمويين بالشام ازداد لهيب هذا الصراع بين العصبيتين بفضل سياسة التحيز التي انتهجها الخلفاء بعد فترة الحياد والسياسة الثابتة التي انتهجها معاوية. ففي بعض الأحيان اعتمد الخلفاء على القيسية وفي بعضها الآخر تحيزوا للكلبية، ولم تكن المصلحة العامة هي التي على هذه السياسة بل كانت تمثلها الأغراض الشخصية والأهواء الفردية. كما كانت الروابط العائلية وعلاقات المصاهرة مع أي من الفريقين هي التي تدفع الخلفاء إلى انتهاج سياسة معينة بالنسبة إلى كل من الفريقين. فمع أن الكلية اليمانية والقيسية الحجازية كانوا يؤيدون معاوية جميعاً وأنه حاول إقامة التوازن بين الفريقين إلا أن ذلك لم يمنع الاصطدام بينهما، كما أن معاوية نفسه كان يميل بعض الشيء إلى الكلبيين اليمانية الذين

صاھرهم، فأم ابنه يزيد كانت منهم. وترتب على ذلك أن يزيداً انتهج سياسة محاباة الكلبيين، ولهذا السبب حاولت القيسية الحجازية القضاء على سلطان خليفتهم معاوية الثاني ثم مروان الأول، وانضموا إلى جانب منافسهم عبد الله ابن الزبير، وفعلاً كانت منهم أغلبية جيشه الذي التقى 65 هـ/ 184 م في مرج راهط قريباً من دمشق بقوات مروان المؤلفة من الكلية اليمانية. وانهزم القيسية في هذه الواقعة هزيمة نكراء كانت سبب اشتعال لهيب البغضاء القديمة في قلوبهم بالنسبة للكلبية اليمانية وترتب على ذلك أن تكررت الاصطدامات بين الفريقين في ظروف وأماكن مختلفة، وكان النصر والهزيمة متبادلين بينهما حسب الأحوال. بعد ذلك عمل عبد الملك على تهدئة الحال وذلك بتقريب القيسية منه، وبمحاباتهم على أمل الوصول إلى اتفاق بين الجماعتين. وغالت القيسية في دورها السياسي حتى قامت اليمنية برد فعل عنيف وذلك عندما اشتركوا في مقتل الوليد الثاني واختاروا لخلافته يزيد الثالث بعد ذلك اعتمد مروان الثاني (بن محمد) آخر الخلفاء الأمويين على القيسية وساروا على هذه السياسة حتى قضى عليه.

أما عن كيفية انتقال هذه الخصومات العصبية إلى الأندلس فإنها دخلت أول الأمر مع جند موسى بن نصير 93 هـ/ 712 م الذي كان يحوي كثيراً من المقاتلة العرب من قيسية ويمانية على السواء (كثير من أهل المدينة والتابعين، كما رأينا، الذين كانوا قد انضموا إلى جيش المغرب بعد تخريب المدينة أيام ابن الزبير). هكذا قام أصحاب موسى والجماعات العربية العديدة التي لحقت بالأراضي المفتوحة حديثاً باشتعال نار الخصام التقليدي بينهما دون النظر إلى نتائج هذا العداء السياسي. كما لن تتأخر الأحزاب العربية نفسها في الاصطدام في نفس البلاد بالعناصر الأخرى من الفاتحين البربر. هكذا اتصفت فترة الولاة بالاضطراب السياسي والصراع الدامي بين الجماعات المختلفة

وستستمر هذه الأحوال السيئة خلال أوائل الإمارة الأموية بقرطبة (ووسيتلزم الأمر كثيراً من الجهد والكفاءة الشخصية لإقرار الأحوال⁽¹⁾).

العرب العاربية - البربر - الإمازيغ

ندين أيضاً في معرفتنا لأصول البربر وأماكن استقرارهم في إسبانيا للمعلومات المسهبة والمحددة التي تركها لنا ابن حزم. عرفنا من قبل الدور الهام الذي اضطلع به البربر في فتح إسبانيا، ونذكر الآن أن معظمهم قد ترك شمال شبه الجزيرة - دون نية في الرجوع ثانية إليها - عائداً إلى المغرب إبان فشل حركة تمردهم المتزامنة مع فترة القحط والجوع التي بدأت عام 750 م/ 132 هـ. الذين بقوا منهم في الأندلس وأصبحت لهم ذريات هم الذين صاهروا المولدين أو تزوجوا - في حالات نادرة - من العائلات العربية. ويغلب الظن بأن هجرات البربر - سواء كانت اختيارية أو تلبية للالتزامات معينة - من شمال أفريقيا إلى إسبانيا قد استمرت على فترات متباعدة منذ ذلك الحين حتى عصر الخلافة القرطبية على الأقل.

إضافة إلى ما تقدم. فنحن نعرف أن بعض أمراء بني أمية كانوا يضمون إلى الميليشيات التابعة لهم في شمال أفريقيا مرتزقة من البربر. ومع هذا، فعلينا الانتظار حتى النصف الثاني من القرن العاشر لكي نسجل مجيء جماعات غفيرة من البربر للانخراط - كجنود نظاميين - في صفوف الجيش الأموي بناء على طلب ملوك قرطبة والمنصور بن أبي عامر من بعدهم. وستشهد الأندلس - نتيجة لقدوم مجموعة كبيرة من الزيديين في ذلك العصر المتأخر - تجدد الصراع بين العرب العاربية البربر الزناتيين والبربر الصنهاجيين. ويذكر المؤرخ العربي ابن خلدون أن التجمعات البربرية الرئيسية التي تكاثرت

(1) سعد عبد الحميد، المرجع السابق، ص 126.

في إسبانيا منذ عهد متقدم كانت أربعة: أهالي «متغرة» (Matgara)؛ أهالي «مدبونة» (Madyuna)؛ أهالي «مكناسة»؛ أهالي «هواره». ومن بين الأقاليم التي كانت تسكنها هذه الجماعات في المغرب خلال القرن الثامن نخص بالذكر: مناطق «الريف» الجبلية، ومناطق «جيبلة» (Chebala) القريبة من ساحل البحر المتوسط، من تلك المناطق جند طارق بن زياد العساكر اللازمة لحملته على إسبانيا. أما ابن حزم فقد أضاف إلى القبائل الأربع التي ذكرها ابن خلدون قبائل أخرى، مثل «مغيلة» (Magila)، «ملزوزة» (Malazuza)، «نفزة» (Nafza)، «أورو» (Awraja)، «مصمودة» (Masmuda) الأطلس الكبير، و«كتامة». ولقد استقرت بربر «بنو رزين» في إقليم «البرازين» (وهو تحريف لاسم القبيلة المذكورة)، وبربر «ولهسة» (Walhasa) في مقاطعة «رندة»، و«بنو غزلون» في «شاطبة»، و«بنو طريف» في «أشبونة» ومدينة سالم. لكن مجموعات الهجرة الأكثر عددًا تنسب لقبائل «رنانة» المغرب وإفريقية، ومنها «بنو الحروي» (Banu - L - Jarrubi) و«بنو ليث» (Banu Layth)، «بنو بيرزال» (Banu Birzal)، «بنو ضممار» (Banu Dammar)، «بنو خزر» (Banu Ja - Zar). ومن المحتمل أن هذه القبائل المنتسبة لزناتة لم تأت للاستقرار في إسبانيا إلا في النصف الثاني من القرن العاشر بعد انتهاج الخليفة عبد الرحمن الثالث، والحكام من بعده، سياسة مماثلة للزناتيين في المغرب العربي واستوطن البربر - دون استثناء تقريبًا - المناطق الجبلية المنتشرة في سائر شبه جزيرة أيبيريا. والأسباب التي دعته للاستقرار في تلك المناطق كثيرة ومتنوعة: أولها، لأن العرب احتفظوا لأنفسهم بالأقاليم الغنية في السهول وبالأراضي التي تعتمد على الري في الغوطات الأندلسية ولم يتركوا لهم، بالتالي، فرصة للاختيار. ومن جهة ثانية، فالغالبية العظمى من البربر كانت تقطن الأقاليم الجبلية قبل قدومهم إلى إسبانيا الإسلامية، ومن ثم فقد

كان بإمكانهم الاستقرار دون صعوبة في قفار الهضبة أو على سفوح الجبال وممارسة نشاطهم القديم في تربية المواشي وزراعة الأشجار. والسبب الأخير يكمن في أنهم حينما قبلوا العيش في أقاليم صعبة المثال كانوا يدركون مقدماً أن الغرب سيحترمون استقلاليتهم لما خبروه من براعتهم في حرب العصابات. وبالفعل، فقد تجنب البربر بسكناتهم المناطق المرتفعة المراقبة للصيقة من جانب أولئك الذين تلقوا منهم يد العون لاحتلال المحافظة الإسلامية الغنية. ومنذ ذلك الحين ستواجه الإمارة القرطبية سبلاً من التمردات البربرية المحدودة التي سيكتفل أمراء قرطبة بإخمادها دون مشاكل في أغلب الأحيان. على أية حال، يمكن القول بأن «حرب الاسترداد» عندما اندلعت في الشمال وتقدمت نحو الجنوب (من سلسلة جبال «كتتيريا» حتى وادي الدويرة) أجبرت مجموعات كبيرة من الفلاحين البربر على الانتشار في بقية أنحاء شبه الجزيرة، وخاصة في غرب الأندلس وفي مناطق «إكستريمادورا» الجبلية التي تمتد حتى وادي الرملة (Guadarrama). وفيما يسمى حالياً بأندلوثية، استوطن كثير منهم المناطق الجبلية الآتية: جبال «قرمونة» و«شدونة»، جبال «رنده» و«مالقة»، ومنحدرات جبال الثلج (Sierra Nevada). وبهذا الشكل توزعت أراضي إسبانيا الإسلامية بعد سنوات قليلة من فتحها على العرب الخالص والبربر والمسلمين الجدد. أما المدن فقد كان يسكنها - بالإضافة إلى السادة العرب والدهماء من المولدين - مسيحيون ويهود إسبان، مع نفر قليل من البربر في بعض الأحيان. ومع أن هذا الخليط البشري قد أضفى على إسبانيا المسلمة طابعاً خاصاً ومميزاً إلا أنه ظل لفترة طويلة عقبة كؤوداً في طريق سلامتها ووحدتها. وستعرف في الفصول التالية على مدى تحكم خطر تنوع الأجناس في دقة التاريخ السياسي لإمارة قرطبة الأموية، وعلى تهديده لمصير إسبانيا المسلمة عندما تزامن مع المعاول الأولى لحرب الاسترداد التي استطاع

المسلمون إسكانتها في القرن العاشر لكنها نشطت من عقالها ثانية في مطلع القرن الحادي عشر ومزقت الأندلس إلى أشلاء لم يلملمها إلا تدخل المرابطين. البربر هم سكان المغرب العربي التي تمتد من حدود مصر الغربية حتى ساحل المحيط الأطلسي. وقد قسم الجغرافيون العرب هذه البلاد إلى ثلاثة أقسام بعد الفتح الإسلامي لها بحسب القرب أو البعد عن مقر الخلافة في الشرق وهي: المغرب الأدنى وقاعدته القيروان، والمغرب الأوسط وقاعدته تلمسان. والمغرب الأقصى وقاعدته فاس. وكان العرب يستعملون لفظ إفريقية ليشمل المغرب الأدنى والأوسط. وقد اختلف المؤرخون والكتاب في تسمية البربر بهذا الاسم. فقد ذكر ابن خلدون أن أحد ملوك التباغة في اليمن ويدعى أفريقش بن قيش بن صيفي غزا بلاد المغرب فبنى بها المدن والأحصار فسميت باسمه، وأنه سمع السكان يتكلمون بلغة غير مفهومة فقال: ما بربرتكم فسموا بالبربر. وذكر الفيروز بادي: أن البربرية هي كثرة الكلام والجلبة والصياح والفعل بربر. وذكر البعض أنهم ينسبون إلى مهاجر عربي من حمير يسمى (بر بن قيس) وأنه عندما هاجر إلى بلاد المغرب لم يفهم لغة أهلها فسمها بربرية وسماهم البربر وسار بعض الكتاب المعاصرين على ذلك فقال: إن تسمية البربر بهذا الاسم لا علاقة له بلون البشرة أو الجنس وإنما باللغة. إن هذا اللفظ كان اليونان يطلقونه على كل من لا يتكلم الإغريقية فكانوا يسمونهم (بارباروي) ثم جاء الرومان فأطلقوا هذا الاسم على سكان المغرب العربي Barbari (برباري) بمعنى غير متحضر لأنهم كانوا يعتبرونهم غرباء على حضارتهم، وعرب المسلمون إلى بربر أو برابر، كما أطلق الرومان على سكان إقليم مورطانية اسم مور Maures وما لبث هذا الاسم أن عمم سائر البربر، أو أن هذا الاسم مشتق من سكان بربرية على ساحل البحر الأحمر الذين كانوا أصل سكان المغرب العربي. وقد استعمل الفرنجة هذه

الكلمة وقصدوا بها معنى آخر أشار إليه الأب لويس معلوف بقوله «وفي المجاز هو المتشوش والهمجي». والحقيقة أن البربر لا يسمون أنفسهم بهذه التسمية ويرونها تعبيراً مستهجنًا وإنما يسمون أنفسهم بأسماء قبائلهم وشعوبهم كالمصامدة والزوارة وصنهاجة وكتامة. وبعض المؤرخين والكتاب العرب يرجعون نسب البربر إلى أصول عربية. فيذكر الفيروزبادي: أن البربر عرب أصلاً وهم من ولد أو بطنان من حمير وهما صنهاجة وكتامة ساروا إلى المغرب أيام فتح إفريقش بن قيس بن صيفي لها ويؤكد ابن خلدون ذلك فيروي عن البكري: أنه كان لمضر ولدان هما قيس ودهمان. وأن البربر ينتسبون إلى قيس بن عيلان من مضر ولذلك يفخر أحد شعراء البربر بقوله:

أيها السائل عنا أصلنا قيس عيلان بنو العز الأول

إن قيساً قيس عيلان هم معدن الحق على الخير دلت

ولذا يرى بعض علماء النسب من العرب: أن لواته من حمير، وهوارة من كندة، وزناتة من التبابعة أو العمالقة، وأن زواوة ومكلانة من حمير أيضاً. كما يرى بعض المستشرقين هذا الرأي فيقول: إن عددًا من سكان شبه الجزيرة العربية قد هاجروا إلى المغرب العربي عن طريق الساحل الغربي من الجزيرة، وأنه سلك هذا الطريق نحو إفريقية مهاجرون ساميون حوالي 3500 ق. م واستقروا هناك. حيث يذكر البعض أن البرانس هم أصل البربر العرب العاربة وأنهم سكنوا هذه البلاد منذ القدم. وأن البتر هم جدد نسيباً على بلاد المغرب. ونزلوا ببرقة أولاً، ثم انتشروا غرباً، وأنهم جنس عربي الحضارمة من حضرموت أسمر البشرة اختلط بالسكان الأصليين من البرانس، ومن اختلاط هذين العنصرين نشأ العنصر البربري الذي استعرب بعد ذلك باختلاطه بالعرب بعد فتح بلاد المغرب. يرجع أصول البربر أو الأمازيغ إلى

عرب العاربة من اليمن وهم هاجروا إلى المغرب العربي وعبروا مصر وليبيا - هذه الهجرة مثل هجرة الهكسوس وغيرهم من عرب اليمن. فيبدو أن العرب العاربة قد عرفوا الطريق إلى المغرب العربي منذ زمن طويل حيث ذكر ابن خلدون: أن ملوك اليمن من التبابعة قد غزوا المغرب العربي عدة مرات فاستكان لغلبهم السكان، ودانوا بدينهم وإن كان في هذا شيء من التجوز والتعميم. ومن المتعارف عليه أن البربر ينقسمون إلى قسمين كبيرين أو جذمين عظيمين هما البتر والبرانس، وربما كانوا من أصل واحد كما ذهب ابن خلدون.

أو أنهما جدين يهذين الاسمين، أو نسبة لنوع الحياة وأسلوب المعيشة والطابع الحضاري لكل منهما. فالبرانس: هم الذين يعيشون في السواحل والريف ولهم الحواضر، والبتر: هم الذين يعيشون في طور البداوة ويتخذون بيوتهم من الشعر، ويتتبعون المراعي بين الجبال والوديان والصحاري. إن العرب لما دخلوا بلاد المغرب، بعد الفتح تأثروا بانقسامهم إلى قحطانيين وعدنانيين فقسموا قبائل البربر العرب العاربة إلى قسمين كذلك قسم نسبوه إلى ماذغيس بن بر الملقب بالأبتر فسموا البتر، وقسم نسبوه إلى برنس ابن بر فسموا بالبرانس. وقد فسر البعض هذين الاسمين بأنهما نسبة إلى الزبي الذي يلبسونه فالبرانس هم الذين يلبسون البرنس - وهو الزبي الذي لا يزال المغاربة يلبسونه إلى الآن - والبتر هم الذين لا يلبسونه. والحقيقة أن هذا التفسير اللغوي لا يقوم على أساس متين فليس من الضروري على كل برانسي أن يكون مرتدياً للبرنس كما أنه ليس بلام أن يكون البتري عاريًا منه. أما تقسيم البربر العرب العاربة بحسب البداوة والحضارة فهو تقسيم لا يمكن الأخذ به أيضًا على إطلاقه فقبيلة زناتة البترية الأصل كانت على حد قول ابن خلدون أكثر قبائل البربر العرب العاربة حضارة وعمرًا ولذلك جعلها فرعًا مستقلًا

عن سائر البربر العرب العاربة، كما أن البرانس المتحضرين كانوا قلة بالنسبة للبربر البدو الذين يشكلون السواد الأعظم من السكان. وعلى أي الأحوال فقد كان البربر في معظمهم في طور البداوة عند الفتح العربي لبلادهم يعيشون في شعوب وقبائل أكثر من أن تحصى كما يقول ابن خلدون، وأغلبهم على الوثنية يؤمنون بالسحر والكهانة، وقليل منهم دان باليهودية أو المسيحية أو المجوسية.

وذلك فإن العرب عندما دخلوا بلاد المغرب وجدوا صوراً مشابهة للحياة في شبه جزيرتهم من الناحية الاجتماعية والقبلية، فاندمجوا مع البربر واختلطوا بهم - بالرغم من شدة المقاومة التي لقوها منهم بالتزواج وتبادل منهم موقف الحاكم المنعزل عن الحكومتين بل امتزجوا معهم بالتزواج وتبادل العادات والتقاليد، وكان للإسلام ولغة القرآن أثر كبير في ذلك. مما ساعد على انتشار العروبة بينهم. ولذا فإن ما يذكره بعض الكتاب الليبيين من أن القبائل العربية التي نزلت بشمال إفريقية قد تبررت بطول الزمن في زبها ولغتها وعاداتها لا يمكن قبوله. والمقبول أن البربر هم الذين تعربوا أو تعرب الكثيرون منهم بكثرة الهجرات العربية إلى بلادهم منذ القدم، وطول اختلاطهم بالعرب وخاصة بعد الفتح الإسلامي لبلادهم حيث أصبح الإسلام والعروبة هما الطابع العام السائد فيها ولا زال إلى الآن بالرغم من محاولات الاستعمار الفرنسي التي قام بها زمن الاحتلال لإثارة العصبية بين العرب والبربر العرب العاربة والتفريق بينهم وإحياء اللغة البربرية. وكما كان للعرب صفات وأخلاق اشتهروا بها فقد كان للبربر العرب العاربة صفات وأخلاق اشتهروا بها كذلك - وتقترب من صفات العرب - وقد ذكر ابن خلدون هذه الصفات في وصف لا يدع زيادة لمستزيد فقد وصفهم «بعز الجوار وحماية التزليل، ورعى الأزمة والوسائل، والوفاء بالقول والعهد، والصبر على المكاره، والثبات في الشدائد، وحسن الكلمة والإغضاء عن العيوب،

والتجافي عن الانتقام، والرحمة بالمسكين، وبر الكبير، وتوقير أهل العلم، وحمل الكل، وتهيئة الكسب للمعذور، وقرى الضيف، والإعانة على النوايب، وعلو الهمة، وإباء الضيم، ومقارعة الخطوب، وغلاب الملك وبيع النفوس من الله في نصر دينه، فلهم في ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف، لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعيه من الأمم، وحسبك ما اكتسبوه من حميدها واتصفوا به من شريفها أن قادتهم إلى مراقي العز، وأوفت بهم على ثأيا الملك، حتى غلبت على الأيدي أيديهم، ومضت في الخلق بالقبض والبسط أحكامهم. وقد اشتهر البربر إلى جانب هذه الصفات التي عددها ابن خلدون بأنهم أهل خيال واعتقاد بالسحر والكهانة والتنجيم. ولا ننسى مقاومتهم الشديدة للعرب الفاتحين تحت قيادة امرأة تدعى الكاهنة، ولا يزالون إلى الآن في الأعم الأغلب يعتقدون في قراءة الكف وفتح الكتاب وادعاء معرفة الغيب. كما ظهر منهم نسبة نظموا أنساب قبائلهم في شجرات شبيهة بشجرات الأنساب العربية وإن كان لا يوثق في هذه الشجرات كثيراً. هذا وقد كان البربر من أسبق العناصر البشرية التي دخلت إلى إسبانيا الإسلامية فقد كان الجيش الفاتح لها بقيادة واحد منهم وهو طارق بن زياد، كما أن معظم هذا الجيش كان منهم حيث كانوا سبعة آلاف في البداية ثم ما لبثوا أن زادوا بعد ذلك إلى اثني عشر ألفاً. وقد كان قرب بلادهم من إسبانيا الإسلامية مما سهّل من توالي هجراتهم إليها، واستقرارهم فيها بعد الفتح، وكانوا يتزّلون بصفة خاصة في المناطق الجنوبية والغربية من إسبانيا الإسلامية نظراً لشبهها ببيئتهم في المغرب. وكانت منطقة روندة وإقليم تاكرنا بالذات منزلاً لجماعات البربر من العرب العاربة التي استوطنت بعد استقرار عملية الفتوح الأولى. وقد عدد ابن حزم في الجمهرة بيوتات البربر من العرب العاربة في إسبانيا الإسلامية تفصيلاً. وذكر منهم بنو دليم الفقهاء من

وزداجة، وعوسجة بشت برية من ملزوزة، ومنهم بنو إلياس من مغيلة، وبنو زوال من مغيلة أيضاً، وبنو وانسوس رهط الوزير سليمان بن وانسوس من مكناسة، وبنو الخروبي من زناتة وكذلك بنو عزون الأمراء بشت برية من زناتة أيضاً، ومنهم الأمراء بالثغر وبنو هذيل من مديونة، وبنو عبدوس من سمرته، وبنو رزين بالسهلة وبنو ذو التون بوبدة، وكان لهم ضلع في الفتن التي أفضت إلى سقوط الخلافة الأموية، واستأثر جماعة منهم بالأقاليم الجنوبية من إسبانيا الإسلامية على عهد ملوك الطوائف⁽¹⁾.

الموالي،

جاء عدد كبير من الموالي إلى إسبانيا الإسلامية مع جيش موسى بن نصير 97 هـ وفي طالعة بلج بن بشر القشيري 124 هـ وكانت هذه الطالعة أو هذا الجيش يتألف من ثمانية آلاف من العرب والفين من الموالي. وكان أغلب هؤلاء الموالي من أهل المغرب من البربر الذين دخلوا في طاعة بني أمية منهم بنو الخليج وبنو وانسوس، أما الباقون فكانوا من أهل الشام والعراق وبلاد الفرس. وقد ازداد عدد الموالي في إسبانيا الإسلامية بهؤلاء الذين دخلوا في هذه الطالعة حيث انضموا إلى من كان بإسبانيا الإسلامية قبل ذلك من موالي بني أمية وأصبحوا يؤلفون حزباً هاماً وطائفة قوية تعرف بالأمويين نظراً لمولاتهم لبني أمية. وقد استطاع عبد الرحمن الداخل بفضل مناصرة هؤلاء الموالي تأسيس دولة لبني أمية في إسبانيا الإسلامية بعد أن سقطت في المشرق على يد العباسيين وأنصارهم. ومنهم بنو بسيل وهو بيت من أكبر بيوتات الموالي الأمويين من أهل الشام. وكان أول من دخل الأندلس منهم عبيد السلام بن بسيل الرومي وكان أبوه بسيل مولى لبني أمية ويتضح من نسبه أنه

(1) حسن يوسف، المجتمع الأندلسي، ص 29.

من أصل رومي. وقد دخل عبد السلام إسبانيا الإسلامية أيام عبد الرحمن الداخل مع ابنه عبد الواحد ويحيى فاستعمله عبد الرحمن على إشبيلية وشذونة ومورور والجزيرة الخضراء وغيرها، وولاة الوزارة، كما تولى ابنه يحيى بعض الولايات كجيان في عهد عبد الرحمن الأوسط، كما تولى أخوه الكتابة والخيل وغيرها، كما كان يوسف بن بسيل والياً على طليطلة 234 هـ وأصبح من كبار رجال الدولة في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن، وكان له دور في تأييده للاستيلاء على مقاليد الحكم بعد والده، وقد ولي شذونة في عهده. وقد اشتهر من هذا البيت كثيرون تولوا مناصب كبرى في الدولة. كما دخل في عداد الموالي إسبانيا الإسلامية عدد كبير من الإسبان الذين دخلوا في ولاء بني أمية بعد الفتح أمثال: بنو قسي، وبنو بارون، وبنو غومس بن قارلة، وبنو مرتين وأصبحوا موالي اصطناع لهم يلتصقون حمايتهم. مولى الاصطناع: هو مولى الموالاة أو الخليف وهو من يمنحه الخليفة شرف الانتساب إليه، ويستخدمه في شؤونه ويجري عليه الأرزاق فيصير مولى له. ويذكر ابن حزم قطعة من نسب بني قسي المولدين بالشجر فيقول: «كان قسي قومس الشجر في أيام القوط، كلمة Comes كلمة لاتينية، وهي في الأصل تعني مُرافق الملك ونديمه، ثم أصبحت تطلق في إسبانيا زمن القوط على ولاة الكور، ومنها اشتق اللفظ الإسباني Corde والفرنسي Conte وتذكرها بعض المصادر العربية قمت بدلاً من قومس. وتقابلها كوند Conde بالإسبانية الحديثة وكونت Cont بالإنجليزية، فلما افتتح المسلمون إسبانيا الإسلامية لحق بالشام، وأسلم على يدي الوليد بن عبد الله، فكان ينتمي إلى ولائه، ولذلك كان بنو قسي في أول أمرهم إذا وقعت العصبية بين المضرية واليمانية يكونون في جملة المضرية، فولد قسي فرتون وأبو ثور سلامة ويونس ويحيى ثم أخذ يعدد بعد ذلك ذرية كل واحد منهم. وقد لعب الموالي دوراً هاماً في تاريخ إسبانيا

الإسلامية حيث اعتمد عليهم بنو أمية كثيراً وقلدوهم أهم المناصب في دولتهم لتفانيهم في الإخلاص لها، فكان منهم الوزراء والكتاب والقواد والقضاة. وقد نجح الموالي في كورة البيرة في تأسيس دولة لهم بزعامة عبد الوهاب بن جريج زمن الفتنة الأولى أو عصر الاضمحلال الأول، أو دويلات الطوائف الأولى التي غرقت فيها وحدة إسبانيا الإسلامية وقام الثوار في سائر الأنحاء بشق عصا الطاعة على بني أمية. وقد كان هؤلاء الموالي يحسبون أنفسهم عرباً، ويدعون أرومات عربية ينسبون أنفسهم إليها، ويقتبسونها من أصول سادتهم وحتى أولئك الذين كانوا من أصول إسبانية منهم أصولاً عربية يمرور الزمن. وسواء صحت هذه الأنساب أم لا تصح فإنها كانت عاملاً أساسياً وفعالاً في حياتهم، فهم جميعاً ينصرفون كما لو كانوا عرباً يتميزون عن غيرهم ولهم حق الحكم والسيادة. وقد ذكر ابن حيان أن جماعة من موالي الخلفاء الأمويين تسموا بأسماء العرب فأنكر عبد الرحمن الأوسط عليهم ذلك بفضل أنفته، ونهى عنه، وكان له مولى من عتاقة أبيه يسمى محمد وولد له ولد سماه مسرور سمي به على جد الأمير فحسنت نشأته وتفقه وتعبّد واشتهر فضله، حتى ولاء عبد الرحمن القضاء بقرطبة. فتوفى بعد عام في 208 هـ. ولا يعرف على وجه التحديد ماذا يقصد راوي الخبر الذي ذكره ابن حيان بهذا فلسنا نعرف للعرب أسماء اختصوا بها دون موالي. ولو استعرضنا أسماء بيوت موالي بني أمية وغيرهم بإسبانيا الإسلامية وأسماء ذرائعهم فإننا لا نجد فروقاً جوهرية بينها وبين أسماء العرب الخلفاء التي أورد لنا ابن حزم مئات النماذج منها في الجُمهرة. كما أننا لا نجد في مصادر إسبانيا الإسلامية ما يدل على أن أمراء وخلفاء بني أمية قد ضاقوا ذرعاً بذلك فيما عدا هذا الخبر الذي ساقه ابن حيان وما أكثر ما نجد حتى في الأسر الإسبانية الأصل التي أسلمت من يتسمون بأسماء إسلامية كمحمد وأبي بكر وغيرها دون أن يكون ذلك

غريباً أو مستغرباً. إلا إذا كان المقصود أن هؤلاء الموالي الذين تسموا بأسماء عربية قد ادعوا نسباً عربياً كما حدث من بعض الموالي وخاصة الفرس في المشرق في العصر العباسي الأول ووجد ذلك مقاومة عنيفة من العرب. مثل أبي مسلم الخراساني الذي ادعى أنه من ولد سليط بن عبد الله بن عباس.

الإسبان؛

يلذهب الكثيرون إلى أن الأصول القديمة لسكان إسبانيا تعود إلى مزيج من عنصرَي السلت (الكلت)، والإيبيريين أن العناصر السلتيّة Celts جاءت من أوروبا وأن العناصر الإيبيرية Iberos جاءت من المغرب. فقد توالى على هذه البلاد الكثير من الغزاة. حيث غزاها الفينيقيون في القرن العاشر ق. م، وأطلقوا على الشاطئ الذي نزلوا عليه اسم Ischepan - Im (إسبانيا) أو شاطئ الأرانب. وأسسوا عنده مستعمرات ومدن، من أشهرها مدينة قادس التي لا تزال إلى اليوم هناك كما غزاها اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد، وأطلقوا على سواحلها اسم إيبيريا. ثم ما لبث أن أطلق هذا الاسم على شبه الجزيرة كلها. كما خضعت هذه البلاد في هذا القرن أيضاً للقرطاجنيين الذين أسسوا فيها مدينة (كرتا.جونوفا) أي قرطاجنة الجديدة التي اتخذوها عاصمة لهم. وهكذا شهدت هذه البلاد منذ 535 ق. م وحتى 205 ق. م تأثيرين: أحدهما أوروبي عن طريق العنصر السلتي واليوناني والآخر آسيوي عربي عن طريق العنصر القرطاجي. ثم تحول هذا التأثير إلى تأثير لاتيني أوروبي عند مجيء الرومان 205 ق. م، حيث استولوا على البلاد من القرطاجنيين وأسسوا مدينة Italica (طالقة) والتي تسمى باطقة. وهو اسم مشتق من كلمة إيطاليا. ولما ضعفت الدولة الرومانية الغربية عانت إسبانيا - كغيرها من ولايات الدولة الرومانية - من آثار الغزوات الجرمانية المدمرة التي تدفقت عليها منذ 409 م

حيث اجتاحتها قبائل الآلان، والسويف (السوابيون) والوندال الذين كانوا أكثر العناصر الجرمانية تخريباً، فاستقر السويف وقسم من الوندال في جليقية وأشتوريش، ونزل الآلان في لشدانية (البرتغال حالياً)، وأقام معظم الوندال في باطقة وجزء من شرق إسبانيا الإسلامية. ثم جاء القوط الغربيون بزعامة آطاوولف فانزعوا برشلونة من الوندال 414 م واتخذوها مقراً لهم، واضطروا الوندال إلى العبور للمغرب 429 م، وظلوا يحكمون هذه البلاد إلى أن كان آخر ملوكهم غيطشة Witiza (700 م) الذي اغتصب ردوريك (لذريق) حاكم باطقة الملك منه، مما أدى بينائه إلى الاستعانة بالعرب عن طريق جوليان (يليان) حاكم سبتة وحثهم على فتح إسبانيا الإسلامية. وقد أسلم عدد كبير من الإسبان بعد الفتح، وكان لسياسة التسامح التي سار عليها الفاتحون أثر كبير في ذلك، بالإضافة إلى ما وجده هؤلاء من مبادئ وقيم نبيلة في الإسلام دفعتهم إلى اعتناقه من إيمان، كما دخل بعضهم فيه لمصالح شخصية. وقد أطلق العرب على هؤلاء اسم المسألة أو الأسالة. أما الذين بقوا منهم على دينهم قد عرفوا باسم العجم. وقد اعتبروا أهل ذمة عليهم دفع الجزية للمسلمين في مقابل حمايتهم والدفاع عنهم داخل دولة المسلمين بإسبانيا الإسلامية فقد أمنهم موسى بن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية وكان لهم رئيس يلقب بالقومس. وكان أول من تولى هذا المنصب في عهد عبد الرحمن الداخل رجل يسمى أرطباس. وكان كما ذكر ابن القوطية «من عقلاء الرجال وله جملة صالحة من الأخبار»، كما كان هناك قمامسة محلليون ينتخبهم النصراني لكل مدينة، كما كان لهم قاضي يعرف بقاضي العجم أو النصراني يفصل في منازعتهم، وكان أول قاضي لهم حفص بن عبد البر وكان يتبع القوانين القوطية في الحكم بينهم. وقد أطلق على النصراني الإسبان الذين عاشروا المسلمين، واختلطوا بهم، وتعلموا العربية دون أن يدخلوا في

الإسلام اسم (المستعربين). وكانوا يشكلون غالبية سكان البلاد في السنوات الأولى من الفتح غير أن أعدادهم أخذت في التناقص بدخول الكثيرين منهم في الإسلام حتى أصبحوا أقلية بالنسبة للمسلمة. وقد تمتع أهل الذمة بحريتهم الدينية، وعاشوا إلى جوار المسلمين في حرية وأمان وسلام في أحياء خاصة. والكتاب الذي كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير لصاحب أريولة بعد فتحها 94 هـ خير شاهد على ذلك ونصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن عبدوش أنه نزل على الصلح، وأن له عهد الله وذمته ونية ﷺ إلا يقدم له ولا أحد من أصحابه ولا يؤخر، ولا ينزع عن ملكه، وأنهم لا يقتلون، ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم، ولا يكرهون عن دينهم ولا تحرق كنائسهم ولا ينزع عن ملكه ما تعبد ونصح وأدى الذي اشترطنا عليه... إلخ». وقد طبق المسلمون سياسة التسامح معهم فتركوا لهم أرضهم يزرعونها ويدفعون خراجها وتركوا لهم كنائسهم، ولم يستولوا عليها ما عدا الكنائس التي قسموها بينهم وبين النصارى ليقيموا فيها مساجد جامعة. مثل مسجد رفينة الذي أقيم في جزء من كنيسة سانتا رفينة. وذكر أن عبد العزيز بن موسى بن نصير أقام فيها وذلك غير صحيح والحقيقة أنه أقام داره بجوارها وابتنى على بابها المسجد الذي قتل فيه.

ومثل جامع قرطبة الذي أقيم في شطر من كنيسة شنت بنجنت، وكان للنصارى أديرتهم مثل دير أرملاط في الطريق بين قرطبة وإشبيلية، ودير سان خوان دي لابنبا الذي أقامه الراهبان فوتو وفيلكس في عهد عقبة بن الحجاج السلولي شمال إسبانيا، وكانت إشبيلية في العصر الأموي مركزاً أسقفياً هاماً. وكان أول من تولى رئاسة أسقفية إشبيلية المطران المند بن غيشطة، وكانت

أصوات أجراس الكنائس تقرر جنبًا إلى جنب مع أصوات المؤذنين في المساجد. مما يدل على مدى تسامح المسلمين، وتركهم النصرى يمارسون شعائهم بحرية تامة. وقد وصف الشاعر أبو عامر بن شهيد إحدى الكنائس بقرطبة وقد بات فيها ليلة مع بعض أصحابه فقال: «وقد فرشت بأصغاث آس وعرشت بسرور واستيناس ونقر النواقيس يبهج سمعه، وبرق الحميا يسرج لمعه، والقس قد برز في عبدة المسيح متوشحًا بالزنانير أبدع توشيح كما نظم ابن حزم أبياتًا جاء فيها:

أتيتني وهلال الجو مطلع قبيل قرع النصرى للنواقيس

ظل النصرى الإسماني يتمتعون بحريتهم الدينية حتى جاء المرابطون إلى الأندلس وأخذوا يحدون منها: فمنعوا قرع النواقيس، وألزمهم بارتداء ثياب معينة لتمييزوا عن المسلمين، وألا يركب أحد منهم فرسًا، ولا يشتري مسلم منهم رداء ارتدوه. ويبدو أن ذلك قد كان بسبب اشتداد حركة الغزو المسيحي (الاسترداد أو الاستعادة) كما يسميها الإسماني، واتهام المسلمين لهؤلاء المستعربين بالتجنس عليهم ومعاونة الدول المسيحية في شمال إسبانيا ضد المسلمين. فهو رد فعل للدفاع عن النفس وتأمين البلاد. ولذلك فقد نفى الموحدون كثيرًا منهم إلى المغرب ليكونوا بعيدين عن مناصرة الممالك المسيحية ضد المسلمين، وكان الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور هو أشد خلفاء الموحدين وطأة عليهم.

ورغم ذلك فإن أحوال أهل الذمة بصفة عامة تحت حكم المسلمين لا تقارن بما أصاب المسلمين بعد ذلك على يد الإسمانيين المسيحيين بعد أن أخذت دولة الإسلام في الأندلس في الاضمحلال والسقوط ويكفي ذكر محاكم التفتيش وويلاتها كدليل على ذلك. وبشهادة الكثير من المستشرقين فإن

المسلمين كانوا أكثر تسامحاً مع غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى؛ يقول المستشرق الروسي بارتولد «ومهما يكن من شيء فإن النصارى الذين عاشوا في ظل حكم المسلمين لم يصيهم قط ما أصاب المسلمين في إسبانيا من الظلم والعدوان. هذا وقد برز من هؤلاء المستعربين الإسبان الذين شغفوا باللغة العربية وتسموا بأسماء عربية شخصيات كان لها دور هام بإسبانيا الإسلامية، مثل الأسقف ربيع بن زيد المعروف في المدونات الإسبانية باسم (ريسموندو)، ومطران طليطلة عبيد الله بن قاسم، وأسقف قرطبة أصبغ بن عبد الله بن نبيل، كما نبغ منهم عدد من المترجمين قاموا بترجمة كثير من الكتب القشتالية (الإسبانية) إلى العربية والعكس بفضل إجادتهم للغة العربية واللاتينية، وكانوا بذلك حلقة اتصال بين الثقافة العربية والأوروبية ومن هؤلاء: القاضي جيزون قاضي النصارى بقرطبة في خلافة حكم المستنصر، وكان يقوم في بعض الأحيان بدور المترجم بين الخليفة وكبار الإسبان. وكما لعب المستعربون دوراً ثقافياً فقد لعبوا دوراً سياسياً هاماً بمحالفتهم للمولدين ضد العرب في عصر الأمير عبد الله. كما تجلّى في ثورة عمر بن حفصون⁽¹⁾.

المولدين،

ويقصد بهذا العنصر الجليل الذي ولد من آباء مسلمين سواء كانوا عرباً أو بربراً، وأمّهات أعجميات سواء كن إسبانيات أو غير ذلك، ونشأ على الإسلام. فقد أقبل الفاتحون من العرب والبربر عرب العاربة على مصاهرة أهل البلاد، فتزوج الكثيرون منهم من الإسبانيات، وعاشروا أهل البلاد واختلطوا بهم، وعن طريق ذلك انتشر الإسلام ولغته في إسبانيا الإسلامية، وامتزجت دماء الفاتحين من عرب وبربر عرب العاربة بدماء أهل البلاد

(1) حسن يوسف، نفس المرجع، ص 40.

الأصليين ونشأ من ذلك جيل المولدين . اتصل بالعناصر العربية والبربرية عرب العاربة في إسبانيا الإسلامية عنصران آخران هامان وهما المولدين ، والصقالبة . ومن المولدين من اندمج في مجتمع إسبانيا الإسلامية اندماجاً جعل بعضهم يتدعون أنساباً عربية ومن هؤلاء أسرة بني مغيث الرومي الأصل ، وكان منهم من خدم الثقافة العربية ومنهم بقي بن مخلد وابن حزم وابن سراج القرطبي . وكما كان للمولدين فضل في خدمة الثقافة العربية فقد كان للصقالبة فضل أيضاً واشتهر منهم كثيرون مثل جوزر مولى الحكم المستنصر ، وفاتن مولى المنصور بن أبي عامر الذي ناظر صاعداً اللغوي وانتصر عليه . ويذكر جولدزيهر أن العرب كانوا يتعالون عليهم مما دعا بعضهم إلى تأليف كتاب في ذكر مفاخرهم وهو كتاب (الاستظهار المغالبة على من أنكر فضل الصقالبة) . ولعل هذا الكتاب يعد أول محاولة للتأليف في دائرة الشعبية وإن لم يكن في صميمها حيث دافع فيه مؤلفه عن بني جنسه دون التهجم على غيرهم . أما الميل الحقيقي للشعبوية فقد أخذ طابعه الكامل في محيط المولدين ولكن يتميز هذا الميل بحرصه على الانسجام مع الإسلام ، على العكس من شعوبية المشرق حيث نرى الشعوبيين فيه من الملاحدة والزنادقة في أغلب الأمر . ويعد محمد بن سليمان المعافري من أقطاب الشعوبيين في إسبانيا الإسلامية . ومنهم أبو محمد عبد الله بن الحسن المتوفي 335 هـ وكان معروفاً بشدة تعصبه للعجم والغض من شأن العرب . ويلاحظ أن كلمة العجم عند شعوبي المشرق تعني الفرس في المقام الأول أما عند شعوبي إسبانيا الإسلامية فتعني الإسبان والروم . ويبدو أنه لم يكن هناك نتاج أدبي للشعوبيين في إسبانيا الإسلامية إلا بعد زوال الخلافة الأموية حيث انقسمت إلى دويلات صغيرة استطاع فيها الملون والصقالبة أن يستاثروا بعدة ولايات ، ومن ثم أصبحنا نسمع صوت الشعبية قوياً . ومن أقوى هذه الأصوات صوت أبي عامر بن غرسية الذي

عاش في بلاط مجاهد الصقلي ملك دانية، وألف رسالة في تفضيل العجم على العرب وصوت ابن سيده العالم اللغوي صاحب المخصص الذي يقول عنه الذهبي «وكان شعوبياً يفضل العجم على العرب». وكان منقطعاً إلى الأمير مجاهد العامري. وقد كان هذا الجليل يشكل على عهد أمراء بني أمية الكثرة الغالبة من السكان، ومنهم تكونت جماهير الأندلس وأهل البيوتات منهم، وكان فيهم من يدعي نسباً في المشرق يرى فيه تعظيماً لشأنه مثل ابن حزم، فقد ذكر ابن حيان مؤرخ الأندلس «أنه كان من غرائبه انتماءه في فارس، واتباع أهل بيته له في ذلك بعد حقبة من الدهر». كما احتفظ كثير منهم بأسمائهم الإسبانية القديمة مثل: بنو أنجلين، وبنو القبطرنة، وبنو ردلف، وبنو مردنيش، وبنو غرسية، وبنو فرتون أصحاب تطيلة والشجر الأعلى.

وفي كتب التراجم الأندلسية كثير من هذه الأسماء والكنى. ومن مشاهير المؤرخين المولدين أبو بكر بن القوطية صاحب كتاب (تاريخ افتتاح الأندلس). وقد كان جل أمراء إسبانيا الإسلامية وخلفائها من أصل مولد تجري في عروقهم دماء غير عربية وبخاصة الدم الإسباني من جهة الأمهات أو الجدات، فقد كان عبد الرحمن الداخل من أم ولد بربرية تسمى راح أو رداح، وكان ابنه هشام من أم ولد تسمى حلال أو حوراء، وكان الحكم بن هشام من أم ولد تسمى زخرف، وكان عبد الرحمن الناصر من أم ولد تسمى مزنة، وكان هشام المؤيد بن الحكم المستنصر من أم ولد بشكنسية تدعى صبح، وغير هؤلاء كثيرين. ومع هؤلاء المولدين كانوا يعتنقون الإسلام، ويعيشون حياة المسلمين الوافدين على إسبانيا الإسلامية، إلا أن الكثيرين منهم كانوا يتعصبون لأصولهم الإسبانية الأولى ويتحالفون مع بني جلدتهم من العجم أو النصارى ضد العرب والبربر معاً. ولقد تألفت منهم جماعات كبيرة عاشت

في المدن الهامة مثل طليطلة التي كانت تضم أكبر طائفة منهم، وكانت مركزاً من أهم مراكز عصبيتهم، وقد ظهر ذلك في الحركات الثورية المتعددة التي قاموا بها ضد الأمويين وميلهم للانفصال عن سلطان قرطبة. وكذلك كانت إشبيلية معقلاً هاماً من معقلهم. حيث كانوا يمثلون أكبر طائفة من سكانها، وكانوا يعملون بالإدارة والتجارة وظهر منهم الكثير من الأغنياء. وقد انتهز هؤلاء المولدون فرصة ضعف دولة بني أمية في عهد الأمير عبد الله فثاروا في عدة نواحي من إسبانيا الإسلامية ضد السلطة المركزية وكان من أخطر ثوراتهم ثورة عمر بن حفصون الذي تغلب على بيشتر، وثورة عبد الرحمن بن مروان الذي عرف بابن الجليقي - نسبة إلى جليقية - وكانت دعوته عصبية للمولدين على العرب كما ثار يحيى بن بكر ردلف في شنت مربة بأشكونية. وقد كان من شأن كثرة أبناء هذا الجيل المولد انتشار اللغة العجمية أو اللطينية - كما يسميها المؤرخون العرب - بين مسلمي إسبانيا من عرب وبربر، وهي ما يطلق عليها اسم اللغة الرومانية (الإسبانية الحديثة أو العامية) واختلاطها باللغة العربية. وعن طريقهم تداخلت العربية والرومانية تداخلاً كان من مظاهره نشأة فن الموشحات والأزجال⁽¹⁾.

اليهود:

شكّل اليهود عنصراً من عناصر السكان في المجتمع الإسباني قبل الفتح الإسلامي، وقد عانوا كثيراً من اضطهاد الرومان لهم بدخول المسيحية إسبانيا، وخاصة بعد القرارات التي اتخذها المجلس الكنسي في مدينة البيرة 303 - 304 م، ثم ازداد اضطهادهم بعد المجلس الكنسي الذي عقد في طليطلة 589 م وقدم فيه الملك «ريكاردو» الذي كان يكره اليهود عدة اقتراحات للمجلس

(1) حسن يوسف، نفس المرجع، ص 45.

تتلخص في: منع استخدام اليهود للمسيحيين في أي عمل، وعتق أي عبد مسيحي مملوك لليهودي، ومنع زواج المسيحيات من اليهود، ومنع الختان الذي كان يفرضه اليهود على عبيدهم ومعاقبة من يصنع ذلك بمصادرة أملاكه، وطرد اليهود من مناصبهم في الحكومة، وعدم تعيينهم مستقبلاً، وإلزامهم بتعليق شارة مميزة لهم في مكان ظاهر حتى يعرفهم الجميع.

وافق المجلس على هذه المقترحات وبدأ تنفيذها، ثم جاء الملك (سيسبت ت 621 م) فضيق الخناق عليهم أكثر وأكثر وخاصة في إقامة شعائهم الدينية وأعطاهم مهلة سنة لاعتناق المسيحية أو الرحيل عن إسبانيا، فهاجر الكثير منهم وبقي البعض متظاهر باعتناقه المسيحية حرصاً على نفسه وأملاكه. ولكنهم كانوا يمارسون شعائهم المسيحية سرّاً. وكان هؤلاء يسمون باليهود المستترين Juoizantes ثم جاء عهد الملك سيونتالا فتنفس اليهود الصعداء حيث لم يكن متعصباً للمسيحية كسلفه، انتهز اليهود الفرصة وعاد الكثير منهم إلى اليهودية علناً. ولكن بعد موته جاء الملك (سيسناند) الذي طلب من المجلس الكنسي تجديد القرارات السابقة الخاصة باليهود. وفي 633م جدد المجلس قراراته السابقة وأضاف إليها قرارات أخرى منها: 1 - إلزام اليهود بتسليم أبنائهم الذين بلغوا من السابعة للكنيسة لتعميدهم وتربيتهم تربية مسيحية. 2 - تسليم اليهودي، إذا ارتد عن المسيحية إلى أحد المسيحيين ليصير عبداً له.

وفي عهد الملك (كانتيللا) قرر المجلس الكنسي بطليطلة طرد اليهود من البلاد فسارعوا إلى التعهد بأنهم سيخلصون للمسيحية ولن يعودوا لدينهم مرة أخرى، وظلوا محافظين على ذلك طوال عهد هذا الملك. فلما مات، واعتلى الملك (سوانيد) عاد كثير منهم إلى اليهودية مرة أخرى وكانوا يقيمون شعائهم

علناً. ثم أرغم اليهود في عهد الملك (إرفيج) على التنصر وأصدر أمراً - عن طريق المجلس الكنسي بطليطلة - بتحريم كتب اليهود المعادية للمسيحية وتحريم الختان، ثم أصدر الملك (إخيكيا) صهر أرفيج أمراً بتسليم كل اليهود للمسيحيين ليكونوا عبيداً عندهم، ومصادرة جميع أملاكهم وتوزيعها على المسيحيين ومعاقبة من يعتنق يهودياً من المسيحيين وفصل أولادهم عنهم بالقوة وتنصيرهم. وقد كان هذا التعسف وذلك الاضطهاد الذي لقيه اليهود طوال عهد الرومان والقوط راجعاً بالإضافة إلى العداء التقليدي بين اليهودية والمسيحية إلى المؤامرات والدسائس والاستغلال الذي قام به اليهود ومارسوه في المجتمع الإسباني وغيره من مجتمعات أوروبا. ولذلك ذكر أنهم اتصلوا بيهود المغرب وطلبوا منهم إغراء العرب على فتح الأندلس، وبالرغم من أنه لا توجد دلائل على ذلك إلا أنه من غير المستبعد أن يكون ذلك قد حدث فقد عامل العرب اليهود معاملة طيبة عند دخولهم إسبانيا الإسلامية، وعهدوا إليهم بحراسة بعض المدن التي فتحوها تحت إمرة المسلمين. ولا يستبعد أيضاً أن يكون اليهود قد آزروا المسلمين عند الفتح لتخليصهم من ظلم القوط واضطهادهم وخاصة بعد ما سمعوا عن تسامحهم. ولما استقر المسلمون في إسبانيا الإسلامية تخلص اليهود من ظلم واضطهاد الحكام الذين سبقوهم فقد منحهم المسلمون حريات لم يكونوا يحلمون بها منها حرية العمل والتنقل والتملك بالإضافة إلى الحرية الدينية. وكان لذلك أثره في هجرة الكثير من يهود أوروبا إلى إسبانيا الإسلامية بعد فتح المسلمين لها. وكان اليهود يتجمعون في عدة مدن إسبانيا الإسلامية وعلى رأسها غرناطة التي كانت تزخر بأكبر جالية يهودية ولذلك سميت (أغرناطة اليهود)، ومنها مدينة البسطة التي تقع جنوب قرطبة ويقول عنها الإدريسي: إن سكانها كانوا من اليهود فقط، وأهلها أغنياء مياسير أكثر غنى من اليهود الذين بسائر بلاد

المسلمين فقط ولا يداخلهم فيها مسلم البتة ومنها أيضًا قرطبة وطليطلة وإشبيلية وسرقسطة والبيرة ومالقة. وقد كانوا يحتكرون بعض المهن والحرف التي تدر عليهم أموالاً طائلة كتجارة الرقيق والخصيان والحرير والتوابل. وكانوا لثرائهم يرسلون بعض أموالهم إلى إخوانهم من يهود المغرب والمشرق وأوروبا. ولذلك لعب اليهود دوراً هاماً في إسبانيا الإسلامية في الحياة الاقتصادية وكذلك في الحركة العلمية حيث كان منهم المترجمون ومنهم الأطباء والفلاسفة والشعراء مثل حسداي بن شفروط (شبروط) طبيب الخليفة الناصر الذي كان رسوله في استقبال الكثير من سفراء الدول والممالك الأجنبية، وقام بدور هام في السفارة التي أوفدها قسطنطين السابع إلى إسبانيا الإسلامية 338هـ، كما أسند إليه الناصر مهمة دبلوماسية لدى ملكة نافار. هذا وقد لعب اليهود دوراً مهماً في الحياة السياسية في زمن ملوك الطوائف وخاصة في مملكة غرناطة حيث وصل واحد منهم وهو ابن النغيلة إلى مرتبة الوزارة في دولة بني زيري الصنهاجيين، وغدا له من النفوذ والسلطان ما جعل الكثير من اليهود يسيطرون على الكثير من مناصب الدولة نظراً لتقريبه لهم مثل إسحاق بن إسحاق بن إبراهيم الذي أصبح صاحب الشرطة في أيامه، كما وصل أبو الفضل بن حسداي بن شبروط إلى مرتبة الوزارة في مملكة سرقسطة. وقد كان لليهود - مثل النصارى - نظام إداري خاص بهم في إسبانيا الإسلامية حيث كان لهم رئيس يشولى شئونهم يسمى (الناجد) أو الخاخام الأكبر. وكان من أشهرهم في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر حسداي بن شبروط. ولم يكن لليهود حضارة أو ثقافة تذكر بإسبانيا الإسلامية قبل الإسلام، ومن نبع منهم كان ذلك في ظل الإسلام وتسامحه وتحت رايته. بدليل أنهم في إسبانيا القوطية لم يكن لهم مثلما كان في إسبانيا الإسلامية، فتراثهم بإسبانيا الإسلامية يعد ثمرة من ثمرات الاختلاط بالثقافة

العربية التي نهلوا منها، ولذلك عندما أخذ حكم المسلمين في الزوال من إسبانيا الإسلامية نضجت العقليات اليهودية، ولم يظهر لهم تراث ماثل إلا خلال عصر النهضة في أوروبا. لقد تمتع اليهود في هذا العصر الأموي بكثير من ألوان التسامح لم يظفروا به خلال حكم القوط، ولا غرو فقد غدوا عنصراً هاماً في الإدارة والتجارة والصيرفة كما أسندت إلى كثير منهم مناصب هامة في الدولة، وأصبحت بعض الحرف تكاد تكون مقصورة عليهم.

الصقالبة:

يرجع الصقالبة في أصلهم إلى الجنس التركي - التار والمعروف أنهم نزحوا من نط آسيا من استرخان، واستمروا يتوسعون في أوروبا حتى القرن العاشر الميلادي حيث ظهرت قوتهم، وظل مستواهم الحضاري ضعيفاً بالنسبة للشعوب التي اصطدموا بها. وقد انقسموا إلى شعوب عديدة سكنت بلداناً مختلفة مثل بولندا وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا وروسيا ويمكن تقسيمهم إلى ثلاثة أقسام: 1 - السلاف الجنوبيون: (اليوجسلاف) في الجنوب والوسط ويشملون البلغار والصرب والكروات والسلوفينيين (سكان سلوفينيا). 2 - السلاف الغربيون: في بولندا وبعض أجزاء من ألمانيا وبوهيميا ومورافيا وسلوفاكيا. 3 - السلاف الشرقيون: أو الروس وينقسمون إلى الروس الكبار في الوسط والشمال، والروس الصغار في الجنوب، الروس البيض في الغرب.

وقد غلب على هذه الشعوب اسم السلاف وتنطق سكلاف Slaves فعربها العرب إلى صقلبي التي ترادف عبد Save وقد أصبح هذا اللفظ يطلق على الرقيق من هذه الشعوب حتى أن الإفرنج قد استخدموه بنفس هذا المعنى في لغاتهم Sklave بالإنجليزية، Esclave بالفرنسية Slavery بالألمانية. وكان

لفظ صقلبي يطلق في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بالآندلس على الرقيق المجلوب من أوروبا، وكذلك من المناطق الشمالية في إسبانيا. فقد ذكر ابن حوقل الذي زار الآندلس في هذا القرن أن الصقالبة كانوا يجلبون من سواحل البحر الأسود، ومن إيطاليا، ومن قطلونية وجليقية في شمال إسبانيا. وقد أطلق الجغرافيون العرب هذا الاسم في العصور الوسطى على سكان البلاد المتاخمة لبحر الخزر بين القسطنطينية وبلاد البلغار أو بعبارة أخرى سكان البلاد الممتدة من بحر قزوين شرقاً إلى البحر الإدراني غرباً. فيشير المسعودي إلى أن الصقالبة أجناس متعددة من الروس والبلغار والصرب والسلاف من أصول آسيوية كانت تسكن القوقاز حول البحر الأسود. ولقد دأبت القبائل الجرمانية المتبربرة والقراصنة على سبي الكثير من أفراد تلك الشعوب، وبيعها إلى المسلمين في إسبانيا الإسلامية، ولهذا سموا بالسلاف بمعنى الرقيق أو العبيد، ثم حور اللفظ في العربية إلى صقالبة وتوسع في استعماله فأصبح يطلق على كل الرقيق الأبيض المجلوب من أية أمة مسيحية. وكان أغلبهم يؤتى بهم أطفالاً من حوض نهر الدانوب وبلاد الفرنجة ويربون تربية عسكرية، ويدربون على الخدمة في القصور، والانخراط في سلك الجندي ليكونوا جنوداً في الحرس أو الجيش. وكان المستخدمون منهم في القصور يتم خصاؤهم للقيام بخدمة الحريم، وكان معظم تجار الرقيق من اليهود، ولهم معامل خاصة للخصاء في أوروبا - وخاصة في فرنسا - ومن أشهر معاملهم فيها معمل فردان بمنطقة اللورين، وكذلك في إسبانيا الإسلامية - وخاصة في مدينة خلف بجانة وهي شينا القديمة عاصمة إقليم البيرة - وكان معظم أهلها من اليهود. وعليهم تقع تبعه هذه العملية الشنيعة التي يحرمها الإسلام. ولذلك فقد كان الخصيان يباعون بأثمان مرتفعة عن غيرهم من الرقيق. يقول ابن حوقل «وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة

الخصيان من جلب الأندلس لأنهم عند قريتهم منها يخصون ويفعل ذلك بهم صار اليهود». وقد تميز الخصيان من الصقالبة بعدة صفات منها ما ذكره الجاحظ حيث قال: «والخصى أجود خدمة، وأفطن لأبواب العطاء والمناولة، هو بها أنفق، ولها الليق، ونجده أيضاً أذكى عقلاً عند المخاطبة. والصقلي سلس القياد لبراءته من نعورة العصبية ويبدو أن الجاحظ قد حكم في ذلك على من شاهده في بغداد منهم حيث كانوا قلة غير العصبية بخلافهم في إسبانيا الإسلامية حيث كثروا وظهرت عصبيتهم وشعوبيتهم واضحة ضد العرب وخاصة في الجزائر الشرقية التي استقل بها الأمير مجاهد العامري بعد سقوط الخلافة الأموية وكان معظم سكانها لهم. كما أنهم مشهورون بالصبر مع طول الركوب، حتى فاقوا الترك ذلك، كما أنهم يجيدون الرمي بالنشاب إجادة تامة. كما وصفهم الجاحظ بأنهم لا يتقنون من الصناعات إلا صغارها، يجيدون الضرب على الأوتار. ولكن هذا الرأي لا يمكن تعميمه على كل الصقالبة ولا يمكن الأخذ به كقاعدة عامة بدون استثناء. وشبههم أيضاً بالحمام الأبيض وشبه الزنج بالحمام الأسود. وقد اشتهروا بحسن الخدمة كما يستدل على ذلك من قول خوارزمي «ويستخدم التركي عند غيبة الصقلي». كما اشتهروا بالشدة والمراس في الحروب، يقول ابن عبدون «ومن أراد العبيد لحفظ النفوس والأموال فالهند والثوبة، ومن أرادهم للكد والخدمة فالزنج والأرمن، ومن أرادهم للحرب والشجاعة فالترك والصقالبة».

كان الأمير الحكم بن هشام أول من استكثر منهم واتخذ منهم حرساً خاصاً له فجلب منهم خمسة آلاف وأطلق عليهم اسم الخرس لعجمتهم. ثم أخذت أعدادهم في الازدياد وخاصة في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر حيث ذكر أن عددهم وصل في قرطبة وحدها في عهده نحو ثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين. وهذا الرقم مختلف في تقديره فبعضهم يصل به إلى

خمسة عشر ألفاً أو يزيد، وعلى كل فليس هناك تقدير دقيق لأعدادهم إلا أن ذلك يدل على ظهور عنصر جديد في المجتمع الأندلسي كان له دور وأثر مماثل أو مشابه للعنصر التركي في المشرق. وقد بلغ عدد كبير منهم، ووصل الكثيرون إلى مناصب هامة في الإدارة والجيش وخاصة في عهد الناصر مثل نجدة الصقلي قائد الجيش، والدري صاحب الشرطة، وأفلح صاحب الخيل، وخلف مدير الطراز 313 هـ، وقد حاكم طليطلة 336 هـ⁽¹⁾. كما استكثر الحكم المستنصر منهم فاشتدت شوكتهم، وكثروا في البلاط ووصل الكثير منهم إلى النفوذ والسلطان وعلى رأسهم فائق وجوزر اللذين كان لهما دور كبير في عهد المستنصر وابنه هشام. وقد بلغت طائفة منهم في العلم والأدب إلى جانب الحرب والسياسة ومن هؤلاء خازن مكتبة المستنصر ويسمى تليد. وقد خصهم واحد منهم وهو ابن حبيب الصقلي بكتاب ذكر فيه مآثرهم وسماه (الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة). وقد ذهب الكثيرون إلى أن الهدف من اعتماد الأمويين على هذا العنصر كان هو الحد من نفوذ العنصر العربي والبربري، وإضعاف سيطرتها على الجيش حتى لا يكون لهما نفوذ وسلطان وقوة يستخدمونها في الثورات ضد الأمويين. ويبدو أن الأمويين كانوا قد ملوا من كثرة الفتن والثورات والصراعات التي قام بها العرب والبربر ضدهم، وكذلك الصراعات بين العنصرين العربي والبربري من عرب العارية فأرادوا الاعتماد على عنصر آخر جديد يتميز بالقوة والفتوة ليكون سنداً لهم كما اعتمد العباسيون منذ عصر المعتصم بخاصة على العنصر التركي بعد أن ملوا من كثرة التناحر والصراع بين العنصرين العربي والفارسي. إلا أن ذلك قد أدى إلى ازدياد المنافسة والعصبيات بين عناصر المجتمع فبدلاً من أن يكون الصراع بين عنصرين أساسيين هما العرب والبربر من عرب العارية أصبح بين

(1) حسن يوسف، نفس المرجع، ص 55.

عناصر ثلاثة مما كان له أثره في مجتمع إسبانيا الإسلامية من نواح شتى. ومثال ذلك أنه عندما ولى الناصر مملوكه نجدة الصقلي قيادة الجيش المتوجه لقتال ملك ليون (راميرو الثاني) 327 هـ في موقعة الخندق عند مدينة سيمانقة هزم الجيش هزيمة شديدة وقتل نجدة، وفر الناصر بنحو خمسين فارساً فقط بعد أن نجح بأعجوبة، حيث قيل أن سبب الهزيمة هو تغيير نفوس العرب الذين كانوا في الجيش لتولي قيادته صقلي، وتقديمه الصقالية عليهم مما جعلهم يتركونه وحده فأدى ذلك إلى هزيمته. ويقول صاحب أخبار مجموعة عن هذه الموقعة «إن عبد الرحمن لم يكن له بعدها غزوة بنفسه». وقد لعب الصقالية دوراً هاماً في الحياة السياسية بإسبانيا الإسلامية في هذا العصر حيث تدخلوا في تولية الأمراء وعزلهم، وشاركوا مثل البربر في غمار الفتن والمؤامرات التي اندلعت في قرطبة وغيرها. وكان من أشهر زعمائهم فيها خيران الصقلي.

كما كان لهم دور أيضاً في الحياة العلمية حيث برز من بينهم بعض العلماء والأدباء والشعراء مثل فاتن الصقلي الذي برع في الأدب وناظر صاعداً العالم اللغوي عند المنصور بن أبي عامر فأفحمه وأعجب به المنصور، ويذكر أنه وجد في تركته بعد وفاته دفاتر أدبية حسنة الضبط. كما ألف الأمير مجاهد الصقلي صاحب دانية كتاباً في العربية يدل على قوته فيها ويذكر ابن الأبار أن حبيباً الصقلي ألف زمن هشام المؤيد كتابه «الاستظهار والمغالبة على من أنكروا فضل الصقالية» يتعصب فيه لقومه. وذكر ابن بسام أنه اطلع على هذا الكتاب الذي احتوى على جملة من أخبارهم ونوادرهم وأشعارهم ولكنه اعتذر عن عدم ذكر شيء منها في كتابه الذخيرة حيث قال: «وشعرهم خارج عن شرطنا وليس من جمعنا». كما كان لهؤلاء الصقالية أثر أيضاً في الحياة الاجتماعية حيث جلبوا معهم من بلادهم الكثير من عاداتهم وتقاليدهم وفنونهم، وقد أشار الطرطوشي إلى اختصاصهم بأنواع من الألحان والرقصات

الشعبية نسبت إليهم مثل اللحن الصقلي والرقص الصقلي الذي يذكرنا بشيء منه الرقص الإسباني الحديث (الفلامنجو). ولذلك يرى المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا: إن الصقالبة كانوا يمثلون العنصر الأوروبي في مجتمع إسبانيا الإسلامية، وعن طريقهم انتقلت بعض الصور الشعرية التي شاعت في إسبانيا الإسلامية إلى البيئات الأوروبية وأثرت فيها. ويبدو أن الصقالبة كانوا يعتبرون أنفسهم عنصراً متميزاً ولذلك فإنهم لم يختلطوا كثيراً بالعناصر الأخرى، وحاولوا المحافظة على كياناتهم الخاص مما بعث فيهم النزعة العنصرية أكثر من غيرهم، ولذلك فإنهم كانوا أساس الحركة الشعبية في إسبانيا الإسلامية تلك الحركة التي انبعثت من الإمارات الصقلية في عصر ملوك الطوائف، حيث استطاع الصقالبة أن يستأثروا بنصيب من تركة الخلافة الأموية فكونوا لهم ممالك في شرق إسبانيا الإسلامية وخاصة في بلنسية، وطرطوشة، ودانية، والمرية، ومرسية. وكانت هذه الممالك الصقلية تجمعها رابطة تحالف وولاء عنصري وتسمى بالدولة العامرية الصقلية تمييزاً لها عن الدولة العامرية التي أسسها المنصور بن أبي عامر. لأن أصحابها كانوا من عماليك العامرية. ومما يدلنا على نزعة الصقالبة الشعبية ضد العرب كتاب ابن حبيب السابق ذكره والذي اعتبره البعض البداية الأولى للشعبوية في الأندلس، وكذلك تلك الوثيقة المحفوظة حتى اليوم وهي رسالة أبي عامر بن غرسية إلى الشاعر أبي عبد الله الحداد أو أبي جعفر الخراز والتي يفضل فيها العجم على العرب. غرسية تعريب جارسيا Garcia ومعناه في الإسبانية «صاحب الحيلة أو الثعلب أو الماكر» كما ورد في معجم المجمع العلمي الإسباني، وهو اسم شائع في إسبانيا تسمى به كثير من الملوك والأمراء ومنهم غرسية ملك البشكنس كما تسمى به بعض المحدثين ومنهم المستشرق الإسباني إميليو جارسيا جوميز. اختلف فيمن أرسل إليه ابن غرسية هذه الرسالة فذهب الكثيرون إلى أنه أبو

جعفر بن الخراز، وذكر البعض أنه أبو عبد الله ابن الحداد أو أبو بكر بن الحداد. والأرجح أنه (أبو جعفر أحمد بن محمد بن أحمد بن سهل الأنصاري المعروف بابن الخراز). كما نص على ذلك ابن سعيد في ترجمته لابن غرسية، لأنه ترجم لابن الحداد في موضع آخر إذن فهما شخصان مختلفان، ويبدو أن الخلاف جاء من تصحيف بعض النساخ لقرب كلمتي الحداد والخراز من بعضهما وقد نشر الأستاذ عبد السلام هارون هذه الرسالة في نواذر المخطوطات والردود عليها من المعاصرين لابن غرسية من العرب، وغير المعاصرين.

وابن غرسية من أصل مسيحي بشكنسي أسلم وأتقن العربية وآدابها حتى لقب بالشاعر والكاتب عاش في مملكة دانية الصقلية وخدم في بلاط مجاهد العامري الصقلي وابنه علي ولذلك تعصب ضد العرب فكتب رسالته هذه. ويبدو أن السبب في هذه النزعة الشعبية بين الصقالبة بخاصة أن معظم أهالي الإمارات الصقلية التي انتشرت فيها هذه النزعة كانوا من الموالي الصقالبة والإفرنجية والبشكنس الذين رحب بهم الصقالبة في ولاياتهم كما ذكر ابن حيان «بينما زهدوا في الأمراء من العرب وأبنائهم ممن طرأ عليهم فلم يواسوهم».

النورمان (الفايكنج)،

سميتهم بالفايكنج فإنها مشتقة من كلمة Vik النرويجية وتعني ساكن الخلدجان. ولهذا أطلق هذا الاسم على سكان شبه جزيرة اسكندناوه لكثرة خلدجانها، وورد في المعاجم الإسبانية أن كلمة Vikings تعني المحاربين ولا تعارض فهم سكان شبه الجزيرة المحاربين. وهناك عنصر آخر فرض نفسه على الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الأوسط بغاراته البحرية على شواطئها في

فترات عديدة من العصر الأموي. ويسمى هذا العصر في المصادر العربية باسم (النورمانين)، والأردمانيين، والمجوس) وهو تحريف للكلمة الإنجليزية -Norse men أو الإسمانية Normandes وتطلق على أهل الشمال من الدول الاسكندنافية أو سكان اسكندناوه. ولا تزال توجد في فرنسا حتى اليوم ولاية أو مقاطعة تحتفظ باسمهم وهي نورماندي أو نورمانديا حيث استقروا بها في أوائل القرن العاشر الميلادي بموجب معاهدة بين ملكهم رولو وملك فرنسا شارل الثالث الملقب بالأبله نتيجة لكثرة غزواتهم المدمرة على سواحل فرنسا كما أقامت جماعة منهم في جنوب إيطاليا، واستخدمتهم الكنيسة في محاربة المسلمين في الأندلس وصقلية، فقد هاجموا إسبانيا الإسلامية 456 هـ واستباحوا مدينة بربشتر شمال شرق سرقسطة، وهاجموا صقلية بعد ذلك 464 هـ. وكان موطنهم الأصلي في المناطق المحيطة بالبحر البلطي (بحر البلطيق)، وقد انقسموا إلى ثلاث مجموعات: السويديون والنرويجيون والدنماركيون (سكان دنماركة أو دانمارشة) وهؤلاء هم الذين هاجموا سواحل إسبانيا الإسلامية وسواحل المغرب أيضًا. وكانت بداية غاراتهم البحرية على إسبانيا الإسلامية في 229هـ/ 844م في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني (الأوسط). وكانوا يتميزون بتحركاتهم السريعة الخاطفة، والأسهم النارية التي يطلقونها، والأشعة السوداء التي تميز سفنهم وشبهها بعض المؤرخين بالطير الجون. وقد استطاعوا في أولى غاراتهم هذه التي استمرت أكثر من ثلاثة شهور أن يحتلوا مدينة إشبيلية عدة أيام، بعد أن هاجموا أشبونة (لشبونة بالبرتغال حاليا)، واستطاع أهلها ردهم بعد معارك عنيفة حتى استطاع أسطول إسبانيا الإسلامية الناشئ الوصول إليهم ومحاربتهم عند طليطلة وإشبيلية وردهم على أعقابهم. وقد قاموا بعد ذلك بعدة غارات على إسبانيا الإسلامية في 245هـ، 247هـ، 355هـ، 360هـ، 361هـ. غير أن عددًا كبيرًا منهم لم

يتمكن من اللحاق بإخوانهم أثناء الانسحاب، فوقعوا أسرى في يد المسلمين، فخيروهم بين الإسلام أو القتل فقبلوا الإسلام، وسكنوا ضواحي إشبيلية، واختلطوا بأهلها، واشتغلوا بالزراعة وتربية الحيوانات، وصناعة الأجان - التي يشتهر بها الدانمركيون إلى اليوم. فيحدثنا المقرئ نقلاً عن المؤرخ الحجاري - نسبة إلى وادي الحجارة - «أن مدينة شريش - وهي بنت إشبيلية وواديها وابن واديها - اختصت بإحسان الصنعة في المجنات وطيب جنبها يعين على ذلك، ويقول أهل إسبانيا الإسلامية من دخل شريش ولم يأكل بها المجنات فهو محروم». هذا وقد كان لغارات النورمان آثار هامة من النواحي السياسية والحربية، فضلاً عن النواحي الاقتصادية والاجتماعية لمن أقام منهم بإسبانيا الإسلامية. فقد لفتت هذه الغارات نظر الأمويين في إسبانيا الإسلامية إلى أهمية إقامة علاقات سلمية وبين هؤلاء النورمان، فأرسل الأمير عبد الرحمن الأوسط سفارة إلى ملك الدانمارك (هوريك) 230 هـ برئاسة الشاعر يحيى الغزال. كما أن هذه الغارات قد لفتت الأنظار ونبّهت الأذهان إلى ضرورة تحصين سواحل إسبانيا الإسلامية، وبناء أسطول قوي يستطيع حمايتها من المعتدين، ولذلك فقد بدأ الأمير عبد الرحمن الأوسط عقب الهجوم الأول مباشرة في تحصين مدينة إشبيلية بأسوار عالية، وأقام نقاطاً للحراسة على طول الساحل الغربي للأندلس عرفت بالرباطات كان يقيم فيها المرباطون من المجاهدين، واهتم بإنشاء دور لصناعة السفن تم فيها بناء الكثير من المراكب والسفن وتزويدها بالآلات والأسلحة والمنجنقات والحراقات. وكان هذا ميلاداً لبحرية إسبانيا الإسلامية التي استطاعت فيما بعد أن تسيطر على غرب البحر المتوسط. يرجح أن يكون البيزنطيون هم الذين توصلوا إلى استخدام الحراقات أو النار الإغريقية أو كرات النفط المشتعلة التي ترمي 516 م، ثم أدخلوا عليها تحسينات على يد رجل يدعى (كالينوس) وكان من أصل سوري ثم أقام في

القسطنطينية واستخدم هذا التركيب المحسن لأول مرة أثناء حصار المسلمين لها 60 هـ في عهد يزيد بن معاوية، ونتج عنه انسحاب الأسطول العربي عن المدينة.

وكان هذا السلاح مكوناً من مركب كيميائي من النفط والكبريت والقار نقذف به المراكب فتشتعل ولا ينطفئ بالماء بل يزداد اشتعالاً. كما تأثر مسلمو إسبانيا بفن صناعة السفن عند النورمان فقد ذكر ابن عذارى أن الخليفة المستنصر أمر بصنع مراكب على هيئة مراكبهم ووضعها على نهر الوادي الكبير استعداداً لقتالهم بها على نفس طريقتهم وكان يطلق عليها اسم القراقير. ولا يبعد أن يكون الذين أقاموا منهم في إشبيلية واستقروا قد ساهموا بخبراتهم في صناعة هذه السفن أو المراكب الجديدة. وقد جاء في كتاب الجغرافية - المنسوب إلى أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري حوالي منتصف القرن السادس الهجري - «أنه كانت تخرج من البحر مراكب عظام كان أهل إسبانيا الإسلامية يسمونها القراقير وهي مراكب كبار بقلوع مربعة، تجري إلى أمامها وإلى خلفها، وكان يخرج فيها أقوام يعرفون بالمجوس كانت لهم شدة وبأس وقوة وجلد على ركوب البحر، وكانوا متى ما خرجوا خلت سواحل البحر مخافة منهم، وكانوا أقل ما يخرجون في أربعين مركباً، وربما بلغوا المائة مركب ويغلبون كل من لقوه في البحر ويسحبونهم ويأسرونهم. كما أن أحداث هذه الغارات قد تركت آثاراً في النواحي الأدبية والتاريخية فقد تحدث عنها الكثير من الأدباء والمؤرخين، وظل صداها مسموعاً في الأدب وتاريخ إسبانيا الإسلامية رمزاً طويلاً⁽¹⁾.

(1) حسن يوسف، نفس المرجع، ص 65.

انتشار الإسلام وجماعات غير المسلمين:

الصفة المميزة لسكان الأندلس في القرن الثامن هو الانسجام بين جماعات السكان المختلفة التي كانت أشبه ما تكون بفسيفساء مبرقشة، كما يقول الباحثون، من النواحي العنصرية والاجتماعية والدينية. فعندما دخل العرب إسبانيا لم يعملوا على إجبار أهلها على الدخول في الإسلام، إذ كان هؤلاء أهل كتاب وكان لهم بناء على ذلك الحق في أن يكون لهم موقف خاص إزاء الدولة، بصفتهم أهل ذمة أو أهل عهد، أي محميين: لهم إذا أرادوا الاحتفاظ بدينهم وحرية القيام بشعائره، كما نصت معاهدة تدمير مع عبد العزيز بن موسى. وعلى ذلك كان أمام الرعايا الجدد الخيار بين أن يدخلوا في الإسلام أو التمسك بدينهم القديم، وفي هذه الحالة الأخيرة كان عليهم أداء بعض الواجبات المالية، والخضوع لبعض القيود. ولم يتردد كثير من الإسبان المهضومي الحقوق في النظام القوطي في الدخول في الإسلام عن طيب خاطر، أي دون جبر أو إرغام، إذ أنه لم يكن من صالح العرب أن يدخل أهل البلاد جماعات في الإسلام، وبذلك تضيق على الدولة بعض مواردها المالية الآتية من جماعات أهل الذمة، كما سبقت الإشارة قبل وبعد عمر بن عبد العزيز. هذا لو أن هناك أسباباً سياسية تجعل من الواجب ألا يكون المسلمون الجدد أقلية بالنسبة للذمين. ولقد وجد المسلمون الجدد من الإسبان بأعداد وفيرة في جنوب وشرق الجزيرة الإسبانية وكانوا غالبية أهل الأندلس المسلمين (كثير من أحفاد هؤلاء لن يغادروا إسبانيا بعد أن استعيدت وتنصرت). هؤلاء الإسبان الذين أسلموا أطلق عليهم اسم «المسالمة» (المسلمون الجدد) أو اسم «المولدون». والمتحتمل أن التسمية الأولى هي القديمة وأن كلمة المولدين أطلقت على أحفاد المسالمة (أي الذين ولدوا من آباء غير عرب ونشأوا على الإسلام).

والظاهر أن دخول الإسبان في الإسلام كان سريعاً لدرجة أنه لن يمكن تمييزهم بعد أجيال من المسلمين المهاجرين لأول وهلة. وسيكون من نتائج تشدد بعض الأمراء من الأمويين ازدياد أعدادهم فيما بعد كل حسب طبقته الاجتماعية من حر أو عبد أو مولى (والأخيريون يحملون أسماء ساداتهم). ولكن بمرور الوقت أصبح منهم الأعيان وكبار التجار والمزارعين الذين نسبوا أصلهم الإسباني، بل والذين حملوا أنساباً عربية. ولكن إلى جانب هؤلاء احتفظ عدد منهم بأسماء عائلاتهم الرومانية مثل: «بنو إنجلينه B. Angelino» وبنو سبريكة B. Sabarico وغيرهم ممن أصبحوا فيما بعد وزراء وكتاب مثل: بنو اللنجة B. Al Longc وبنو القبطرنة Kabturno ويمكن الإشارة هنا إلى المؤرخ العربي الأندلسي (الذي عاش في القرن العاشر) والذي افتخر بأنه ينحدر من عائلة الملك غيطشه (Witiza) والذي سمي نتيجة ذلك بابن القوطية. وفيما بعد سيكون من الصعب التمييز والفرقة بين العناصر الوطنية وغيرها نتيجة للتزاوج بين المولدين والعرب وبينهم وبين البربر. ومهما يكن من أمر فرغم أن المسلمين الجدد نبذوا دين آبائهم وتقبلوا نوع الحياة الاجتماعية التي عاشها العرب المهاجرون، فإن المولدين لم يفقدوا شخصيتهم الإسبانية المميزة لهم. فبفضلهم كان لجزيرة الأندلس المتطرفة، بالنسبة لبقية الأراضي الإسلامية، ميزات خاصة فيما يتعلق بشكل الحياة السياسية التي عاشتها، ونوع النحل الحضارية والثقافية التي أخرجتها. وهنا حقيقة لا يجب إغفالها وهي أنه طوال ملك العرب بإسبانيا لم تكن اللغة العربية هي الوحيدة المستعملة في البلاد، إذ كانت هناك جماعات كبيرة من الشعب تتكلم لهجات رومانية (Romans) من أصل لاتيني مصبوغة بلهجات إيبرية وعربية (استعمال الرومان كان في كل مكان ولكنه غلب على الأقاليم والأرياف).

هذا عن الإسبان الذين دخلوا في الإسلام أما عن غيرهم ممن احتفظوا بمسيحياتهم فلقد أطلق عليهم في بعض الأحيان كلمة «العجم» (وهي كلمة مائعة ليست دقيقة المعنى ويقصد بها كل من ليس بعربي ولو أن أول من قصد بها هم الفرس بالشرق). ولكن التسمية الشائعة التي عرفوا بها في الأندلس هي «المستعربة» (Mozarabes). وكذلك سماهم الكتاب الغرب «المعاهدون» وهي كلمة قريية من «أهل الذمة أو الذميون» التي تطلق على غير المسلمين عامة (من نصارى ويهود). ولكن مع مرور الوقت أصبحت كلمة «المعاهدون» خاصة بالنصارى وكلمة «الذميون» خاصة باليهود. ويظهر أنه منذ منتصف القرن الثامن الميلادي كانت جماعات المستعربة منتشرة في المدن مثل طليطلة وقرطبة وإشبيلية وماردة خاصة، وكانت طليطلة هي العاصمة الدينية لمسيحي الأندلس، كما كان الحال على عهد القوط، إذ كانت مقر مطران النصارى الذي كان لأبد لتعيينه من موافقة الأمير الأموي، كما كان الحال بالنسبة لأساقفة قرطبة والأقاليم. وكان لنصارى الأندلس - بصفة عامة - الاحتفاظ بكنائسهم، ولكن لم يكن لهم حق بناء كنائس جديدة بل ربما حولت بعض كنائسهم إلى مساجد، وذلك حسب تقليد عمل به من عهد عمر يقتضي بجواز مقاسمة المسلمين النصارى بعض كنائسهم في المدن التي فتحت صلحاً. حدث ذلك في قرطبة إذ تم الاتفاق بين المسلمين والنصارى على اقتسام كنيسة سان فنست (St. Vincert) فأصبح النصف جامعاً واحتفظ المستعربة بالنصف الآخر. ولكن بنمو العاصمة وازدياد عدد المسلمين رأى عبد الرحمن الأول أنه مضطر لشراء النصف الباقي من الكنيسة وفي نظير ذلك سمح للمستعربة ببناء كنائس جديدة لهم في الأحياء الخارجية عن المدن وبينما كانت الطوائف المسيحية موجودة في إسبانيا المسلمة طوال تاريخها، لم توجد طوائف إسلامية

في الأراضي التي استعادها ألفونس الأول، وكذلك بعد أن استعادت النصرانية الجزيرة لن يسمح ملوكها بإقامة طوائف إسلامية منظمة في أراضيهم (إلا بعد مدة طويلة - وكان ذلك بصفة عابرة). أما عن اليهود فإنهم كانوا موجودين في كلا الجانبين وكانت جماعاتهم عديدة نسبياً ومتنوعة دائماً. فمئذ زمن طويل واليهود يعانون حقاً من سوء معاملة واضطهاد القوط، وخاصة منذ العصر الذي بدأ فيه التحالف بين الكنيسة والدولة وأسفرت اجتماعاتها المتتالية في العاصمة طليطلة عن تقليص حقوق اليهودي الشخصية ثم الإطاحة بها. ففي عام 654 م اتخذ «ريشيسبتو» (Recesvinto) ضدهم مجموعة من القرارات الصارمة (استمر تطبيقها كذلك في عهد «إيريخيو») تضطربهم في الواقع إما إلى الهجرة أو اعتناق المسيحية. ثم جاء «إخيك» وحرّم عليهم - عام 693 م - التعامل مع مسيحي المملكة. وبالرغم من قسوة القرار الأخير إلا أنه من المستبعد التسليم بأنه كان سبب تأمرهم في بداية القرن الثامن مع عرب شمال أفريقيا لطردهم القوط من إسبانيا. يكثر المؤرخون العرب من الإشارة إلى المساعدات التي قدمها يهود إسبانيا للعرب الفاتحين، ويبدو أنهم كانوا مكلفين - في حالات منية - بتأمين وحراسة المدن المفتوحة بعد ترك الجيوش العربية لها لمواصلة تقدمها. لقد تمتع اليهود، في ظل الدولة الإسلامية، بحقوق المواطنة كاملة، وكانت لهم جاليات ذات أهمية في عدد من المراكز الحضرية. وعلاوة على هذا، أصبح اليهود يشكلون غالبية سكان بعض المدن لأزمان طويلة، ومنها على سبيل المثال: غرناطة القديمة أو مدينة «اللّسانة» (Lucena) الصغيرة. كما كان لليهود أيضاً - مثل المستعربين - الحق في ممارسة شعائهم الدينية والتمتع بسائر حقوقهم المدنية مقابل دفع الجزية فقط. وعلى ما يبدو، فإن عدد المتحولين منهم إلى الإسلام لم يكن يشكل سوى نسبة ضئيلة للغاية.

وإذا استثنينا الحركات المحدودة والقليلة المناهضة لليهود والتي انبثقت أثناء حكم الزيديين لغرناطة في القرن الحادي عشر، يمكننا القول بأن التاريخ لم يسجل أي قرار فيه اضطهاد لليهود إسبانيا المسلمة إلا بعد مرور عدة قرون، وبالتحديد في عهد الموحدين. ولقد اضطلع اليهود - كما سنرى فيما بعد - بدور هام في اقتصاديات الممالك الأندلسية والمسيحية على حد سواء، كما عُهد إليهم بالعديد من المناصب في إدارة الأموال وبالمهام الدبلوماسية العظيمة. واليهود في إسبانيا كانوا محل اضطهاد على عهد القوط منذ أن تحالفت الكنيسة مع الدولة ضدهم، إذ اتخذت ضدهم إجراءات تعسفية ترغمهم على الهجرة أو التنصر، كما حرم عليهم بعد ذلك التجارة مع المسيحيين. وكان هذا الإجراء أشدها ضرراً بهم وبحريتهم، وعلى ذلك لم يكن من الغريب أن يستقبلوا الفاتحين العرب استقبلاً حسناً، وأن يقدموا لهم المعونة وأن يستفيد العرب بالتالي من خدماتهم، إذ عهدوا إليهم بالمحافظة على المدن التي وقعت بين أيديهم بينما كانت جيوشهم تتقدم في فتوحها. ولكن ربما كان من المستبعد أنهم دبروا مع إخوانهم يهود شمال أفريقيا مؤامرة قلب النظام القوطي بإسبانيا باستدعاء العرب إلى الأندلس. وكانت أغلبية اليهود من سكان المدن، وكانت لهم مراكز مهمة نسبياً، بل أن بعض المدن احتفظت لمدة طويلة بأغلبية يهودية من السكان مثل غرناطة واليسانة (Lus-cena). وكان لهم مثل النصارى حرية إقامة شعائرهم الدينية نظير الجزية، والظاهر أنه لم يدخل في الإسلام منهم إلا أقلية ضئيلة. ولم يكن اليهود موضع اضطهاد بإسبانيا إلا على عهد الموحدين - وذلك إذا استثنينا بعض حركات التعصب ضدهم (كما في القرن الحادي عشر بغرناطة). وكان لهم نشاط مهم في الحياة الاقتصادية بالأندلس ودول النصارى على السواء، كما كان يعهد إليهم بمهام خطيرة، خاصة في الإدارة المالية والبعثات الدبلوماسية.

هذا عن سكان البلاد الأصليين، أما عن الفاتحين العرب فإن عددهم لم يكن من الكثرة بحيث يسمح باستعمار الأراضي التي افتتحوها. ولذلك اكتفوا بالانشغال بالشئون السياسية والاحتفاظ بالوظائف، وكانت رسالتهم هي تعريب السكان من الناحية الاجتماعية أكثر مما كانت نشر الدين الإسلامي. وكان عدد العرب قليل خلال القرن الثامن م، وهذا العدد ازداد فيما بعد بفضل قيام الأسرة الأموية بقرطبة، وكذلك بسبب الشهرة الكبيرة التي تمتعت بها الجزيرة في سائر العالم العربي لطيب طبيعتها. ولقد رأينا كيف حمل العرب مناراتهم القبلية والعصبية من قيسية وميمية. وبفضل ما كتبه بعض الكتاب اهتموا بمسألة العصبية وخاصة الكاتب الأندلسي الكبير ابن حزم (القرن 10 م) الذي كتب رسالة عن «جمهرة الأنساب» يمكن تحديد جماعات العرب وتعيين أماكن استقرارها بالجزيرة على وجه التقريب. ورغم غير العرب على أحسابهم وأنسابهم فإنهم فقدوا نقاءهم ووحدتهم الجنسية بالأندلس بسرعة وذلك عن طريق المصاهرات مع المولدين ثم اتخاذ الموالي. ولقد دخل العرب إلى الجزيرة دفعتين: أقدمهم الحجازية القيسية والكلبية اليمانية الذين صحبهم موسى بن نصير عندما نزل الجزيرة (وتبعهم بعد ذلك عدة مئات استصحبهم معه الحر بن عبد الرحمن عند ولايته 94 هـ (713 م) وهؤلاء وسلالتهم عرفوا باسم «أهل البلد» أو «البلديون». واستمرت هجرة العرب بعد ذلك حتى وصول عبد الرحمن الأموي الذي عمل على اجتذاب العرب، ولكن على منوال لا نعرف قدره. وكل ما نعرفه هي المعلومات الخاصة بعرب بلج - عرب الدفعة الثانية - وهؤلاء عرفوا باسم «الشاميون»، وهؤلاء ورعهم أبو الخطار على كور إسبانيا الإسلامية المختلفة - كما رأينا - لصفتهم أصحاب إقطاعات.

استقر العرب بصفة عامة في المدن قريباً من الأراضي الطيبة، فكان من العدنانيين واليمنيين: الفهريون وبنو قاسم بالبونت (قلعة) شمال غرب بلنسية وبنو كنانة بمنطقة طليطلة وبنو هذيل الذين استقروا أول الأمر بأوريولة ثم انتقلوا إلى غرناطة. وكان الحجازية القيسية واليمية متشربين في مناطق إشبيلية وبلنسية. أما عن اليمية فكان لهم غالبية عرب إسبانيا الإسلامية ومنهم كثير من الأنصار، وهم كانوا متشربين في كل منطقة طليطلة. وفي شرق إسبانيا الإسلامية (Levante) وفي الغرب (Algarve) كذلك. وستتسب إليهم عائلات مالكة شهيرة في القرن العاشر والقرن الحادي عشر، مثل: العامريون بقرطبة، وبنو عباد بإشبيلية وبنو هود بطليطلة وبنو نيش بمرسية، كما ستكون منهم عائلات قوية بقرطبة وبطليوس (Badagoz)، وكان منهم كبار رجال البلاط الأموي مثل بنو عبده وبنو جهور. وهناك ما يدعو إلى الظن أن عرب الطليعة هؤلاء من المهاجرين الأولين ثم الشاميين من جند بلج كان لهم النصيب الأكبر من أراضي إسبانيا الإسلامية في القرن الثامن ولكن المعلومات غير كافية للدلالة على كيفية استقلال العرب لثروة إسبانيا الإسلامية الطبيعية والظاهر أن العرب عملوا بخطة المقاسمة التي كانت معروفة في المغرب العربي والتي تتفق مع النظام البربري القديم، كما يرى بروفنسال فينما كانوا يقطعون المدن كموظفين أو حكام، أو يقيمون قصورهم الريفية (المنيات) مثل أمراء الإقطاع، فإنهم كانوا يعهدون بفلاحة الأرض إلى الموالي، من عبيد الأرض أصلاً (Serfs) أو إلى الفلاحين الذين ظلوا مسيحيين، وكان على هؤلاء أن يدفعوا إليهم بعض المال مقدماً وأن يقدموا لهم نصيبهم من المحصولات عند الحصاد. وإلى جانب الإسبان من مسلمين ومسيحيين ويهود أي سكان البلاد قبل الفتح ثم العرب الغزاة بعصبياتهم تتكلم عن البربر العرب العاربة في إسبانيا الإسلامية.

رأينا الدور المهم الذي قام به البربر عرب العاربة في غزو الجزيرة (مع طارق) وكذلك ثورتهم التي عاصرت مجاعة 232 هـ / 750 م وهجرة الكثير منهم من شمال الجزيرة نحو المغرب. ولكن رغم ذلك فإن تيار هجرة البربر من المغرب إلى الجزيرة في شكل جماعات صغيرة ظل مستمرا: حدث ذلك بإرادتهم أو بما تفرضه عليهم روابط الولاية (الولاء). وبعد أن يقيم الأمويون عرشهم من جديد في قرطبة سيجمع بعض أمراؤهم البربر في المغرب العربي ليعملوا في الجيش. وفي منتصف القرن العاشر الميلادي سيأتي البربر في جماعات كبيرة من المغرب حسب طلب خلفاء قرطبة أو المنصور بن أبي عامر (الحاجب) ليكونوا غالبية الجند. وفي هذه الفترة سيأتي البربر عرب العاربة، كما أتى العرب من قبل بنزاعاتهم القبلية التقليدية المعروفة بالمغرب العربي بين بربر عرب العاربة زناتة وبربر صنهاجة (من البدو والحضر). وكما حدد ابن حزم جماعات العرب وأماكن استقرارها في إسبانيا الإسلامية يعود الفضل إليه في تحديد جماعات البربر وأماكن إقامتهم بالجزيرة. وكذلك يذكر ابن خلدون قبائل البربر عرب العاربة الأولى الذين قادهم طارق إلى الجزيرة، فيقول: أن طارقا جمعهم من بربر عرب العاربة مطغرة ومديونة ومكناسة وهوارة، وهؤلاء كانوا يقطنون أقصى الساحل المغربي من منطقة البحر المتوسط. هذه الجماعات الأربع مذكورة في قائمة ابن حزم ولكنه يضيف إليها بربر مغلية، وملزورة، ونفزة، وأودية ومصمودة. كما ينص على أن بربر كتامة كانوا عديدين بإسبانيا الإسلامية. وأن بربر ولهاصة وجدوا بمنطقة رندة وبنو غزلون بشاطبة وبنو طريف بمدينة سليم (Medinaceli) (وربما حدث بعض ذلك في القرن العاشر). والمعروف بصفة عامة أن هؤلاء البربر من عرب العاربة أقاموا بصفة عامة في المناطق الجبلية وذلك نظرا لاستقرار العرب في الأراضي السهلة. ثم لأنها مشابهة لطبيعة بلادهم الجبلية، كما أنهم ربما فكروا في أن صعوبة

جبالهم تمنهم من العرب وتحقق لهم حريتهم. وفعلاً تفرق البربر عرب العاربة في كل مرتفعات الجزيرة وخرجوا عن رقابة الحكومة العربية، وعندما بدأ ملوك أشتوريش يتوسعون جنوباً حتى وادي الدوير أي باستيلائهم على الأراضي الشمالية التي كان يسكنها البربر من عرب العاربة كان هؤلاء عديدين في الغرب (Algarve) وكذلك في الجنوب (ما يعرف حالياً بالأندلس) في كل الأراضي المرتفعة من جبال قرمونة وشذورة ورندة (Ronda) ومالقة هذا، بينما كان غالبية سكان شرق البلاد من الغرب. وهكذا أصبح العرب والبربر من عرب العاربة يسودون إسبانيا وإلى جانبهم المسلمون الجدد من الإيبان. أما عن المدن فكانت تضم إلى جانب الطبقة الأرستقراطية من العرب وبعض البربر عامة الناس من المولدين، كما احتوت على نصارى ويهود. هذا الاختلاف في التركيب البشري كان له أثره الخاص على إسبانيا الإسلامية، زيادة على أنه جعل من الصعب تحقيق وحدتها وإقرار النظام والأمن فيها. فتكون هذه بفسيفساء المختلفة من السكان خطراً داخلياً مستمراً على كيان دولة إسبانيا الإسلامية إلى جانب خطر حرب الاسترداد وسيقضي عليها في القرن العاشر ولكنها ستظهر في القرن الحادي عشر، وستكون سبباً في تفتت البلاد. ودخول المرابطين إلى أرض الجزيرة⁽¹⁾.

الأقلية المسيحية في إسبانيا الإسلامية:

يطلق المسلمون أحياناً لفظ «العجم» على الإيبان المسيحيين الذين لم يتخلوا عن عقيدتهم وظلوا - طبقاً للتعبير العربي - «بين ظهراي المسلمين». وهذا اللفظ (العجم) كان يطلق في بدايته على غير العرب، وفي الشرق كان يطلق بصفة خاصة على الفرس الذين دخلوا الإسلام.

(1) سعد عبد الحميد، المرجع السابق، ص 155.

أما التسمية التي غلبت ودامت في إسبانيا فهي «المستعربين». ومن جهة أخرى، فإن المؤرخين العرب اعتادوا تسمية غير المسلمين في إسبانيا «بالمعاهدين»، أي المرتبطين بعهد يخول لهم الاستمتاع بعدد من الحقوق والالتزام ببعض الواجبات إنه يساوي - باختصار - تعبير «أهل الذمة» الذي يطلق على دافعي الجزية من المسيحيين واليهود، لكن يبدو (وهذا خاص بإسبانيا الإسلامية فقط) أنه بمرور الزمن أصبح لفظ «المعاهدة» يطلق على المسيحي بينما اختص اليهودي بلفظ «الذمي». كانت توجد في طليطلة وقرطبة وإشبيلية، منذ منتصف القرن الثامن المجتمعات المستعربة الأكثر عدداً وإرداراً. وظلت طليطلة (عاصمة القوط القديمة) محتفظة تحت السيطرة الإسلامية، بمكانتها كحاضرة دينية، وكانت المقر الدائم - حتى القرن الحادي عشر - لمطران مسيحي الأندلس الذي كان لا يتم تعيينه - مثله في هذا مثل قساوسة قرطبة وغيرها من الأبرشيات - إلا بعد موافقة العاهل الأموي في العاصمة قرطبة. ولقد كان لمسيحي إسبانيا - بوجه عام - الحق في الاحتفاظ بكنائسهم وممارسة شعائهم الدينية فيها، لكن التصريح لهم ببناء كنائس جديدة لم يكن يتم إلا في القليل النادر. ومن جهة أخرى، فقد تم تحويل عدد من الكنائس إلى المساجد، تمثيلاً مع التقليد المتبع منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب والذي يقضي بتقسيم كنائس المدن المستسلمة - ولو عن طريق الصلح - بين المسلمين والمسيحيين. ويسدو أن اتفاقاً من هذا النوع قد وقع في قرطبة (عاصمة الأندلس) واستمر لعدة عقود من الزمن، وبموجبه تحول نصف كنيسة «سان فينتي» (San Vicente) إلى مسجد بينما ظل النصف الباقي في يد المستعربين. وبعد أن كثر عدد المسلمين في العاصمة الأندلسية، أحسن عبد الرحمن الأول بالحاجة لتوسيع المسجد فضم إليه الجزء المخصص للكنيسة، وصرح للمستعربين في مقابل هذا ببناء كنائس جديدة في الرض.

لا يمكننا الجزم بأن الأراضي التي استردها ألفونسو الأول ومن بعده «فرويل الأول» في منتصف القرن الثامن لم يبق فيها مسلم واحد. ما نعرفه هو أن البربر نزحوا عن الأقاليم التي استردها هذان الملكان وتركوها شبه خالية، لكن الأعداد القليلة التي بقيت منهم ارتدت عن الإسلام وعادت لممارسة شعائر دينها القديم. لقد تواجد المسيحيون في إسبانيا خلال كل العصور؛ أما ملوك إسبانيا المستردة (المسيحية) فلم يسمحوا بتواجد جاليات مسلمة على أرضهم إلا بعد مرور ربح طويل من الزمن، ومن ثم فقد كان لزماً الانتظار حتى نهاية القرن الحادي عشر ومطلع الثاني عشر لتصلنا أول الأخبار عن تواجد بعض التجمعات الموريسكية في الأراضي المسيحية. وعلى خلاف ما تقدم، فإن الجاليات اليهودية النشيطة والغنية كانت متواجدة باستمرار على هذا الجانب أو ذاك من الشغور الحدودية. لن نترسل الآن في الحديث عن تلك الجاليات اليهودية ولا عن مسيحي الأندلس لأننا سنعود إليهما - وبالتفصيل - عند دراسة النسيج الاجتماعي لخلافة قرطبة والدور الذي لعبه كل فريق في اقتصادها إن فهم المجتمع الإسلامي في الأندلس بشكل صحيح يستلزم دراسة الجالية المسيحية المستعربة (Mozarabs) التي عاشت ضمن إطاره، وخصوصاً بسبب الأهمية التي أعطيت لهذه الجالية في الدراسات التاريخية عن الأقاليم، ودراسة هذا الموضوع هي من عدة نواح يتيح لنا فهماً أعمق للمسألة. وعلينا في الوقت نفسه الأخذ بالحسبان التطورات الأخيرة في الدراسات المتعلقة بالمستعربين والقائمة على أساس الأفكار الأساسية التي وضعها مؤرخو القرن التاسع عشر. إن هدف هذه الورقة دراسة الجالية المستعربة ككل، وكذلك تطورها التاريخي داخل مجتمع إسلامي محدد، ودون القيام بعملية معالجة تفصيلية لبنيتها الداخلية أو لنشاطاتها.

كيف كان يشار إلى المسيحيين في مجتمع إسلامي؟

يطلق مؤرخو هذه الأيام اسم المستعربين على المسيحيين الذين كانوا يعيشون في الأندلس المسلمة (أي إسبانيا التي تأسلمت منذ بداية القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي). وكان هؤلاء بغالبهم يعيشون في تجمعات مسيحية تعود بأصولها إلى ما قبل الإسلام، أي إلى أيام سيادة المسيحية والأساقفة الكاثوليك القوط الغربيين. وكلمة "Mozarab" المستعملة مشتقة من كلمة «مستعرب» بالعربية ومعناها «الذي يزعم أنه عربي وليس بذلك» (رغم أن بعض المختصين بالدراسات العربية يعتقدون أن أصلها يعود إلى كلمة «مستعربة» التي كانت تستعمل لوصف «القبائل التي لا ينحدر أصلها من العرب» وعلى أي حال، فإن الأصل الاجتماعي للكلمة ليس واضحاً لأن النصوص العربية التي بحوزتنا لا توظفها لدى الحديث عن المسيحيين، بل إنها ترد في النصوص والمراجع المسيحية بدءاً من القرن الحادي عشر للميلاد كوصف ذي دلالة تحقيرية للمسيحيين الذين هم من أصل عربي ويعيشون في الممالك المسيحية القروسطية، وبخاصة في طليطلة وإن التفحص العميق لأصل هذه الكلمة سيوصلنا - كما سنرى - إلى نتائج طريفة، بل مدهشة. تشير المصادر العربية إلى مسيحي الأندلس من الأسماء المعروفة جيداً: (نصراني، جمعها نصاري)، رومي (أي رومان، بيزنطيون، والمقصود مسيحيو الإمبراطورية الرومانية الغابرة) مسيحي (أي من أتباع المسيح) أهل الذمة (بمعنى من هم تحت الحماية، أي تحت الحماية القانونية من قبل الدين والسلطات الإسلامية كما كان وضع اليهود والجماعات الموحدة الأخرى)، أو معاهدة (المحافظ على العهد، بمعنى من عمل عهداً مع السلطات الإسلامية). ولا يرد اسم «أهل الكتاب» الوارد في القرآن إلا لدى الحديث عن المسيحيين

في سياق بحث المسائل الدينية، وذلك في إشارة إلى كتاب اليهودية - المسيحية المقدس الذي أنزل على كل الأنبياء بمن فيهم السيد المسيح. كما كان يشار إلى المسيحيين بحسب الأماكن التي تعود أصولهم إليها، مثل غالسين وباسكيين وقشتاليين وفرنجة وقطالونيين . . . إلخ. كما نجد أسماء أخرى ذات دلالات سلبية جداً - أصولها دينية وسياسية - كانت تطلق على مسيحيين أفراد من الممالك الإسبانية الشمالية مثل: العدو، عدو الله، الطاغية المتكبر، المستبد، الشاثر (وهذه كانت تستعمل أيضاً للإشارة إلى من يثور من المسلمين ضد الحكام في قرطبة)، الكافر، المشرك، أهل الشرك وغيرها. إن التحليل المفصل لهذه الأسماء العربية التقليدية يكشف عن وجود وضعين متميزين للمستعربين على الصعيد الاجتماعي والديني. فمن جهة، عامل المسلمون مسيحيي الأندلس مثلما كانوا يعاملون رداءهم في باقي المجتمعات الإسلامية، ومنحومهم (كأفراد وكأعضاء جاليات) المكانة نفسها التي ينص عليها التشريع وطبيعة المجتمع الإسلامي. ومن جهة ثانية، كانت علاقات المسيحيين بالمجتمع الإسلامي تتباين تبعاً لما إذا كانوا يستمرون - أو لا يستمرون - في إظهار ولائهم للسلطة السياسية الإسلامية. فعندما كانوا يعارضون هذه السلطة، كانوا يعتبرون متمردين.

الأصول الاجتماعية للمسيحيين في إسبانيا الإسلامية؛

المستعربون، والمستعربون الجدد، والمستعربون المحدثون

أسهمت الدراسات التي أجريت مؤخراً في إيجاد فهم أفضل للأصول الاجتماعية لمسيحيي الأندلس. فقد كان المؤرخون القدامى يعتبرون المستعربين مسيحيين من أصل قوطي غربي انحدروا من أصلاب مسيحيي شبه الجزيرة الأيبيرية في الفترة السابقة على الحكم الإسلامي، وتجمعوا في جاليات

مسيحية تعكس أبرشيات المرحلة الرومانية - القوطية الغربية. وبكلمات أخرى، كان ينظر للكنيسة الإسبانية، حيث كان مقر كرسي أسقفها في طليطلة، على أنها امتداد داخل المجتمع الإسلامي. وقد اندمجت - أو أعيد إدماج - هذه الجاليات جزئياً في المجتمع المسيحي عن طريق الهجرة (بين القرنين الثاني والسادس الهجريين/ الثامن والثاني عشر الميلاديين) وبخاصة بعد استيلاء ملك قشتالة وليون على طليطلة عام 478 هـ/ 1085 م، وحملات ألفونسو الأول ملك أراغون على الأندلس والمناطق الشرقية من شبه الجزيرة الأيبيرية بين عامي (519 و 520 هـ/ 1125 و 1126 م). غير أن الدراسات الحديثة أوضحت أن بعض مسيحيين إسبانيا الإسلامية لم يكونوا من أصول قوطية غربية. فقد كان هناك مسيحيون أصلهم من الشرق الأدنى ورد ذكرهم في المصادر العربية كحرفيين ومهنيين (في الطب والتجارة والعمارة والترجمة وغيرها) كما كان هناك مسيحيون قدموا من الأجزاء الشمالية لشبه الجزيرة الأيبيرية أو من المناطق الواقعة وراء جبال البيرينية، أو حتى من المغرب فقد جذب ثراء إسبانيا الإسلامية وسهولة النفاذ إلى مجتمعها أعداداً كبيرة من الأجانب مما مكن المسيحيين وغيرهم من تحصيل مكان لهم بطريقة أو بأخرى في مجتمعها الإسلامي. وقد حظي المسيحيون الأجانب بالمكانة القانونية نفسها التي للمسيحيين ذوي الأصول القوطية الغربية. ومع ذلك، فقد كان لهؤلاء خصائص يجب أخذها بعين الاعتبار. وهي توجب علينا اعتبار هؤلاء مستعربين محدثين (Neo - Mozarabs) إذا أردنا أن نفهم تاريخ التجمعات المسيحية في الأندلس بشكل أفضل. ولا يعني وجود هؤلاء المستعربين المحدثين المنزليين وذوي الأصول الأجنبية أنه كان هناك تجمعات مسيحية سابقة على الفتح الإسلامي في تلك الأماكن التي عاشوا فيها. كما كان هناك مستعربون من أصل إسلامي تحولوا إلى المسيحية بعد استيلاء ملك قشتالة

وليون على طليطلة، وربما أيضًا بعد حملات ألفونسو الأول ملك أراغون. وترى ماريا خيسوس روبيرا ماتا، التي عثرت على نصوص عربية ومسيحية مهمة تتعلق بالجماعات التي اندمجت في مجتمع طليطلة المسيحي، أنه يجب أن يطلق على هؤلاء اسم «المستعربين الجدد» أو «المستعربين المتحولين» أو «مسيحيين جدد تحولوا عن الإسلام». وهؤلاء المسيحيون ذوو الأصل الإسلامي الذين تنصروا بالجملة في نهاية القرن الحادي عشر للميلاد، مختلفون تمامًا عن المسلمين الذين عاشوا في شمالي إسبانيا المسيحية (Mudejares) أو بربر إسبانيا (Moriscos) الذين تحولوا إلى المسيحية بالتدريج بين القرنين الثاني عشر والسابع عشر للميلاد.

المسلمون من أصل مسيحي

هناك أخيرًا المسلمون من أصل مسيحي الذين كان يطلق عليهم اسم «المسالمة» أو «المولدون»، وهم من أصول إسبانية سابقة على الإسلام. كما كان يطلق عليهم اسم «العلوج» - جمع علج - سواء أكانوا مسيحيين أم مسلمين للدلالة على أن أصلهم غير عربي. وكان يشار أيضًا على أنهم أعجم أو أعاجم أو عجم، للدلالة على أنهم كانوا يتحدثون بلسان أعجمي، أي غير عربي. ومن بين المسلمين ذوي الأصول المسيحية العبيد المعتقون الذين كانوا يلقبون بالصقالبة أو السلافيين. وقد أصبح هؤلاء جماعة ذات نفوذ مهم في إسبانيا الإسلامية خلال القرنين الهجريين الخامس والسادس/ العاشر والحادي عشر الميلاديين وقد حافظ هؤلاء على صلاتهم ببلدانهم الأصلية وأقاربهم المقيمين هناك، رغم إسلامهم. ويوجد فرق جوهري ذو دلالة بين هؤلاء المسلمين ذوي الأصول المسيحية والمستعربين الذين احتفظوا بديانتهم المسيحية في إطار المجتمع الإسلامي الذي عاشوا فيه.

إن المعلومات التاريخية عن المستعربين قليلة ومتفرقة. فالمصادر العربية قلما تتحدث عن مسيحي إسبانيا الإسلامية. وعندما تشير إليهم فإنها تكتفي غالبًا بإيراد طرائف عنهم أو إيراد تمرداتهم السياسية. أما المصادر اللاتينية فهي تركز على «ثورة الشهداء» التي جرت في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي أو على المسائل المتصلة بالطقوس الدينية والمناظرات المذهبية للقرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي. وهي تفعل ذلك بروح متحيزة بشكل واضح. وهذه المعلومات - على قلتها - يجب ألا تهمل، بل يتوجب على الباحثين إغناؤها بالتفحص الدقيق للمكانة الاجتماعية العامة لمسيحي الأندلس في إطار المجتمع الإسلامي الذي شكل إطارًا لحياتهم ونشاطاتهم الاجتماعية بوصفهم أقلية دينية وسياسية. لم تكن مكانة المستعربين الاجتماعية تختلف عن رديفتها عند بقية المسيحيين في الإسلام لذا فنقطة البدء يجب أن تكون دراسة القانون الإسلامي، وتطبيقه في المشرق والمغرب العربي وإسبانيا الإسلامية. وفي هذا السياق يجب أن نتذكر دومًا أن النصوص التشريعية المتعلقة بهذا الأمر كانت غالبًا ذات طبيعة نظرية، أو أنها كتبت في مرحلة لاحقة، كما هو حال مؤلفات ابن قيم الجوزية الموضوعة في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي والذي تأثر بمشاكل الطائفة المسيحية في دمشق، وشدد على المشاعر المعادية للمسيحيين الناجمة عن الحملات الصليبية. كما يجب ألا تغيب عنا لدى التعامل مع نصوص من هذا النوع الطبيعة الخاصة للأوضاع الاجتماعية المحددة في الأندلس. وستقوم بتفحص مكانة المسيحيين تحت ثلاثة عناوين رئيسية: كيفية حصولهم عليها في مجتمع إسلامي، وكيف تمت المحافظة عليها، وأخيرًا كيف كان يتم فقدانها (بالوفاة أو الهجرة أو التحول إلى الإسلام). وقد تأثرت استمرارية وجود الطوائف بدرجة كبيرة بمدى المحافظة على هذه المكانة التي كانت في جوهرها ذات طبيعة اجتماعية دينية وقانونية سياسية.

حصل المسيحيون على مكانتهم القانونية والاجتماعية والسياسية والدينية من خلال عهود جرى التوصل إليها بين المسلمين والسلطات المعنية كالمملوك أو الأساقفة أو رؤساء الجاليات. وهذه العهود لم تكن اتفاقات تم التوصل إليها بين أطراف متكافئة، بل كانت إقراراً من المسيحيين بقوة الإسلام وسلطته، بما في ذلك القبول بالقانون الإسلامي وبالمكانة المعطاة للمسيحيين في المجتمع الإسلامي الواجبات المترتبة عليهم تجاه ممثلي هذا المجتمع. ولأنهم قبلوا هذه العهود أصبحوا يعرفون بالمعاهدين وأخذوا بتجديدها بشكل منتظم من خلال استمرارهم في الخضوع سياسياً وعسكرياً ومالياً، وذلك لأن عدم الالتزام بالعهد كان يعني أن يتهموا بالتمرد. عندما كان النظام الإسلامي في إسبانيا الإسلامية في طور التأسيس أوائل القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، كان الفاتحون هم الذين يطبقون العهد وذلك بمنحه إلى السلطات المسيحية القوطية الغربية - أي العائلة المالكة والأسر المحلية الحاكمة. وتظهر الرسوم الجدارية في أحد القصور الأموية بالشرق ملوك الأندلس ومنهم رودريكو (لذريق) ملك إسبانيا، وهم يعربون عن خضوعهم للسلطة الإسلامية الحاكمة. ولم يكن العهد بين الطرفين يكتب دوماً. ومع ذلك، هناك عهد مكتوب وصل إلى أيدينا موقعاً من قبل كل من حاكم القيروان نيابة عن السلطات الأموية في دمشق وتودمير حاكم أوريولا وتنص بنود العهد على أن السلطات الإسلامية تقر بحقوق المسيحيين الشخصية والاجتماعية والدينية والثقافية، وكذلك بحقوقهم في ملكية الأرض مقابل اعتراف المسيحيين - بوصفهم من أهل اللفة - بالسلطات الإسلامية عن طريق دفع الجزية والخضوع لقوة الإسلام العسكرية. وتحدث كتب التاريخ العربية عن عدد من الشخصيات القوطية الغربية التي قامت بزيارة دمشق للتأكد على العهد أمام الخليفة. وفي العادة كان يتم ذكر العهد الأصلي - ولكن ليس دوماً بشكل صريح - في مجرى

تطورات تاريخية لاحقة مثل تجديده أو إيقاع العقاب بمن ثار عليه . وقد أثر العهد الاصلي على كل أتباع السلطات القوطية الغربية في إسبانيا من الناحيتين السياسية والقانونية . فقد أخذت السلطات الإسلامية تعتبر كل الإسبانين - أي سكان شبه الجزيرة الأيبيرية والمناطق الأخرى الواقعة وراء جبال البيرنية لغاية ناربون الذين كانوا تحت سلطة القوطيين الغربيين - رعايا لها ، وهو نفس ما انطبق على يهود إسبانيا . ولم يكن يهم مسلمي إسبانيا الإسلامية أن هؤلاء السكان وثيون ، أو أنهم ثاروا ضد القوط الغربيين كما حدث في جبال كتالونيا البيرنية . وفي حالات قليلة فقط حيث لم يكن هناك سلطات مسيحية معترف بها ، تم اعتبار جزء من السكان مجوساً بما يعنيه ذلك من اعتبار عهد حمايتهم من الدرجة الثانية وتقدم هذه المكانة القانونية التي أعطيت للمسيحيين الكثير لشرح علاقتهم بالسلطات الإسلامية في إسبانيا الإسلامية ، وهي تفسر إلى حد ما أيضاً الطبيعة الخاصة للمسيحية في الممالك الإسبانية في القرون الوسطى . فبموجب العهد أصبح كل سكان إسبانيا التي خضعت للحكم الإسلامي يعاملون رسمياً على أنهم مسيحيون (ما نطلق عليه الآن اسم مستعربين (Mozarabs) ، بما يعنيه ذلك مبدئياً من تمتعهم بحقوق المسيحيين نفسها في أي جزء آخر من الدولة الإسلامية : أي ممارسة شعائرهم الدينية وإدارة شؤونهم الشخصية والخاصة حسب قوانينهم ، والاحتفاظ بسلطاتهم والحفاظ على هويتهم الثقافية . لكن من ناحية الوضع العملي وكما سنرى ، فإن الكثيرين منهم لم يتمكنوا من الحفاظ على مكانتهم تلك لفترة طويلة .

إن ما يبرر التشديد على المصاعب التي واجهتها الجاليات المسيحية القديمة في الأندلس هو بطبيعة الديانتين المسيحية والإسلامية ، ومصاعب كون المرء مسيحياً وممارسة المسيحية في بيئة إسلامية تظهر بعضاً من خصائص المجتمعين المسيحي والإسلامي . فحسب مبادئ مسيحية القرون الوسطى كان لابد من

وجود المعمودية والقساوسة للحفاظ على المجتمع المسيحي. فالمعمودية كانت ضرورة لضم أعضاء جدد للكنيسة. وهؤلاء كانوا من المسيحيين أو الوثنيين حصراً لأن القانون الإسلامي يمنع التبشير بالمسيحية في أوساط المسلمين، والحالة الوحيدة التي كان يتم فيها إجراء العماد في أوساط المسلمين هي تعميد أطفال - وبخاصة بنات - المسيحيات المتزوجات من مسلمين⁽¹⁾. وطقس المعمودية يتطلب وجود قسيس واستعمال زيت مقدس مبارك من أسقف وبالتالي كان استمرار وجود الجاليات المسيحية في الأندلس يعتمد على وجود عدد كاف من الأساقفة والقساوسة لتعميد أطفال المسيحيين والمستعربين. فبدون الأساقفة لن يكون هناك زيت مبارك، ولن يكون هناك من يقوم بسيامة القساوسة. كما أن وجود عدد كاف من الأساقفة كان ضرورياً لأداء الوظائف الاجتماعية الموكلة إليهم، والتي يمكن أن ينوب عنهم فيها قساوسة أو أشخاص من خارج سلك الكهنوتية من رعتهم للقيام بها. وأكثر من هذا، فإن تنصيب أساقفة جدد يحتاج إلى وجود عدد كاف من الأساقفة في البلاد لأن سيامة أسقف جديد تحتاج إلى ثلاثة آخرين يشاركون في السيامة، هذا إلى جانب المرشح نفسه كما كان من المهم أن يكون هناك عدد كاف من الأديرة لإعداد الأساقفة على أداء واجباتهم إذ لم يكن ممكناً اختيار أسقف إلا من بين الرهبان كما هو الحال لغاية الآن في أغلب كنائس المشرق.

وهناك وثيقة وحيدة بأيدينا تدل على وجود أساقفة في فترة الحكم الإسلامي تتعلق بجنوب شبه الجزيرة الأيبيرية (قرطبة وإشبيلية ومالقة وقادس إلخ) وتشير إلى أن هذه المنطقة أصبحت تحت إشراف الكنيسة البيزنطية لجزر

(1) ميكيل دي إيبالزا، المستعربون - أقلية مسيحية مهمة في الأندلس - الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ص 243.

البليار، وهي تتحدث عن وجود أديرة في جبال قرطبة لغاية أواسط القرن الهجري الثالث/ التاسع الميلادي، وفي جبال مالقة لغاية أوائل القرن الهجري الرابع/ العاشر الميلادي، وفي منطقة غرناطة في أوائل القرن الهجري السادس/ الثاني عشر الميلادي. وفي اعتقادي كان مركز قيادة ثورة عمر بن حفصون في بريشت (Bobastro) أحد أديرة جبال مالقة الذي كان يستعمل لإعداد الأساقفة. ومن الممكن جداً أنه كان هناك أساقفة مرسومون، أو على الأقل قساوسة مرسومون في المناطق المسيحية الشمالية. ونحن نعلم يقيناً أنه جرت مراسيم ترسيم أسقف لطليطلة في مدينة ليون في أواسط القرن الحادي عشر للميلاد. لقد كان التركيب الداخلي للجاليات المسيحية يعني أنه من الصعب عليها الحفاظ على نفسها في مجتمع إسلامي، وذلك بسبب صعوبة تأمين أساقفة وقساوسة في تلك الظروف. ولم يكن من السهل تعميم أطفال العائلات المسيحية والذين فقدتهم الكنيسة. فمن وجهة نظر الإسلام، هناك شروط معينة لا بد من توافرها كيما يتمكن المسيحيون من المحافظة على مكانتهم. فالمسيحيون واليهود والمجوس لهم - بحسب القوانين الإسلامية - الحق في ممارسة أديانهم دون أن يجبروا على اعتناق الإسلام (على الرغم من وجود ضغوط اجتماعية لدفعهم إلى اعتناقه وبخاصة في حالة المحكومين بالإعدام والذين يخفف حكمهم إن هم أسلموا وبموجب القوانين الإسلامية، يخضع المسيحيون لسلطات طوائفهم الخاضعة بدورها على الصعيدين المالي والسياسي للسلطات الإسلامية. وبالنسبة إلى المستعربين، فقد كانوا يخضعون لسلطة الكنيسة أو الأسقفية، في حين كان يمثل المسيحيون الأجانب أساقفهم أو ملوكهم. وهكذا نلاحظ مرة أخرى أهمية وجود الأساقفة للمحافظة على وجود الجاليات المسيحية المحلية ومكانتها (لأن المستعربين الجدد بوصفهم أجنب ذوي إقامة مؤقتة في ديار الإسلام، لم يكونوا مضطرين للانتماء إلى

الجاليات المسيحية المحلية في الأندلس لأنهم من الناحية النظرية رعايا يتبعون بلدهم المسيحي). وبمعزل عن الجانب القانوني، كانت للسلطات الإسلامية مصلحة سياسية في الإبقاء على المسيحيين في مجتمعاتها. ويعتقد بعضهم أن هذه المصلحة مالية بالأساس، ولكن يجب ملاحظة أن عدد العائلات المسيحية الثرية القادرة على دفع جزية كبيرة كان محدوداً للغاية. كما أن أكثرية هذه العائلات اعتنقت الإسلام للخلاص من الجزية والحفاظ على امتيازاتها، في حين كانت الطبقات الفقيرة في المدن والأرياف محدودة الأهمية فيما يتعلق بمقدار الجزية التي تدفعها. والأمر الأكثر أهمية بالنسبة للأمويين كان الحفاظ على التجمع المسيحي المستعرب كرمز لسياساتهم السياسية والدينية، وللتشبه بأسلافهم الأمويين في دمشق، وللاستفادة من المستعربين المسيحيين في حوارهم مع الدول المسيحية الأخرى. وهذا الجانب من السياسة الإسلامية ينطبق بشكل خاص على قرطبة حيث كان الأساقفة المسيحيون يقومون بدور السفراء والمترجمين حتى منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. ومن الأحداث ذات الدلالة في هذا الخصوص أن مسيحيي قرطبة اتهموا خوستيوجيس (Hosteogis) أسقف مالقة في القرن الهجري الثالث/ التاسع الميلادي، بأنه وشى إلى السلطات المالية بأسماء الفلاحين المسيحيين في أسقفيته لكي يتم تسجيل أسمائهم على كشوف دفع الجزية. وكان الراهب القرطبي سانسون هو الذي وجه الاتهام إليه وإلى أسقف إلفيرا الواقعة بمنطقة غرناطة.

تدل هذه الاتهامات على مقدار إصرار الأساقفة على إبقاء هؤلاء الفلاحين مسيحيين وأعضاء في الجالية المسيحية التي يرأسها ويمثلها هؤلاء الأساقفة أمام السلطات الإسلامية. فإن عدم تسجيلهم كمسيحيين على الصعد

السياسية والدينية والمالية كان سيؤدي إلى فقدان مكانتهم كمسيحيين في المجتمع الإسلامي، وهو تقريباً ما حصل بالضبط في المناطق كافة التي كانت تحت الحكم الإسلامي، بما في ذلك المناطق المسيحية الشمالية. وهناك نقطتان أخريان تؤكدان «نجاح» خوستيوجيس أسقف مالقة في هذا الخصوص. ويوجد بين أيدينا أدلة موثقة تعود إلى القرن الهجري الرابع/ العاشر الميلادي، وتشير إلى وجود نواتين فقط للمستعربين أولاهما في مالقة (وهم مؤيدو عمر بن حفصون وثورته)، وثانيتها في قرطبة جاء ذكرها في سياق الحديث عن نشاطات قصر الإمارة. والنقطة الأخرى هي أننا لا نجد أثراً لوجود مسيحي في القرنين الهجريين الخامس والسادس/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين إلا في مالقة حيث جاء ذكره في وثائق كنيسة كاثوليكية تتعلق بخلافات داخلية حول انتخاب أسقف وترسيمه. وعندما قام ألفونسو الأول بحملته العسكرية لتجنيد مسيحيين من إسبانيا الإسلامية لإحكام سيطرته على المناطق الجديدة التي استولى عليها في وادي إبيرو، نجح في ذلك في المناطق الريفية التي جند الكثير من سكانها. ومن المحتمل أن يكون هؤلاء من نسل الفلاحين المسيحيين الذين وردت أسماؤهم في سجلات الجزية والضريبة، أو من نسل مسيحيين لم يتمكنوا من الحفاظ على مكانتهم القانونية نتيجة لعدم وجود قساوسة، رغم محافظتهم على تقاليدهم المسيحية. وقد أكد المجندون من غرناطة أنهم عمدوا. وبسبب وجود قساوسة ودير واحد على الأقل في مالقة وغرناطة، أمكن الحفاظ على استمرارية وجود تجمعات مسيحية. وفي هاتين المنطقتين على وجه التحديد، قام الأسقفان بتسجيل المسيحيين في سجلات الجزية والضريبة في القرن الهجري الثالث/ الميلادي التاسع.

غير أنه لا يمكننا اعتبار سكان هذه المناطق والذين لم يجر تعميدهم، مسيحيين، رغم أنه كانت لديهم تقاليد سابقة على الإسلام. كما

أن أحداً من المسلمين أو المسيحيين لم يعتبرهم في حينه كذلك. لقد فقد هؤلاء مكانتهم القانونية كمسيحيين نتيجة عدم قدرة الكنيسة على إيجاد وسيلة بديلة لاعتمادهم كمسيحيين (غير التعميد)، ونتيجة لطبيعة وبنية السلطة الكنسية التي تشترط وجود رجال دين مرسومين، وبالأخص أساقفة. وإذا كان من الصعب على المستعربين من نسل القوط الغربيين المسيحيين أن يحافظوا على مكانتهم كمسيحيين، فلا بد أنه كان من الصعب أيضاً على المستعربين الجدد، أي الأجانب القادمين إلى إسبانيا الإسلامية من خارجها، أن يفعلوا الشيء ذاته. ورغم معرفتنا بأن بعضهم اندمج في تجمعات المستعربين، مثل العسكري القرطبي الذي اعتبر شهيداً في أواسط القرن الهجري الثالث/ التاسع الميلادي، إلا أن الآخرين منهم تكبدوا مشاق كبيرة للحفاظ على وضعهم كجالية مسيحية أجنبية (مثل مسيحي - وكذلك يهود - دانية الذين كانوا في القرن الهجري الخامس/ الحادي عشر الميلادي يعتبرون برشلونة قيادتهم الروحية، أو مسيحيي طرطوشة الذين كانت لهم صلات مع برشلونة، أو مسيحيي سرقسطة ووشقة ولاردة الذين حاولوا إقامة صلات أوثق مع المناطق المسيحية في جبال البيرنية، أو مسيحيي طليطلة في القرن الهجري الخامس/ الحادي عشر الميلادي، أو مسيحيي ليون، أو مسيحيي بلنسية في القرن الهجري السابع/ الثالث عشر الميلادي وغيرهم). غير أن هؤلاء المستعربين الجدد سرعان ما اعتنقوا الإسلام (كما هو حال الصقالبة)، أو عادوا إلى مواطنهم الأصلية كما فعل سيناندو وافيدير ومسيحيو سد في بلنسية (الذين عادوا مع أسقفهم الفرنسي الذي كان عند وفاته أسقفاً لسالامانكا (شلمنقة). ولم يكن حفاظ هؤلاء على نصرانيتهم ووضعهم القانوني كمسيحيين مختلفاً - في صعوبته أو سهولته - عما لاقاه أبناء دينهم من أسلاف القوط الغربيين.

إن الصعوبة التي لاقاها المسيحيون في الحفاظ على وضعهم القانوني كمسيحيين داخل المجتمع الإسلامي هي التي تشكل المسألة الأساسية لدى الباحثين عند دراسة اعتناق مستعربي الأندلس، أي المسيحيين، الإسلام⁽¹⁾.

اعتناق سكان إسبانيا الإسلام:

يقول ليفي بروفنسال: بعد فتح العرب لإسبانيا لم يفكروا إطلاقاً في فرض عقيدتهم الإسلامية على الشعوب الخاضعة لهم، لأنها تنتسب لما يسميه المسلمون «بأهل الكتاب»: أي أصحاب نصوص نزل بها الوحي من السماء. ولما كان الإسلام يمنح «أهل الكتاب» معاملة مفضلة، فقد كان من حق يهود إسبانيا ومسيحييها التمسك بدينهم وممارسة شعائره في حرية تامة. ويكفي للتدليل على هذا بنص الصلح - الذي قدمناه آنفاً - بين عبد العزيز بن موسى بن نصير وبين الأمير القوطي «تدمير» عام 713 م (94 هـ) والذي يضمن فيه عبد العزيز لتدمير ولرعاياه عدم التعرض لممارسة شعائره الدينية أو المساس بدور عبادتهم. وعلى هذا الأساس، فقد كان من حق جميع الرعايا الجدد للمسلمين المنتصرين الاختيار بين: اعتناق الإسلام أو البقاء على ديانتهم الأصلية. بالاختيار الأول يتمتعون - سادة وعبيداً - بكل ما للمسلم الأصلي النشأة من حقوق واجبات، وبالاختيار الثاني يتحولون إلى «ذميين» عليهم الوفاء ببعض الالتزامات ومنها سداد ضريبة سنوية (جزية). وعلى ضوء هذا اختار كثير من الإسمبان دون تردد - وخاصة هؤلاء الذين كانوا يشعرون بنغن في ظل النظام القوطي - الدخول في الإسلام، ومن جانبنا، نظن أن المسلمين المنتصرين ربما لم يستهوههم هذا التحول الجماعي للإسلام من جانب سكان شبه جزيرة أيبيريا نظراً للعوائد الضريبية الكبيرة التي كانت ستحصل منهم لو

(1) ميكيل دي إيبالزا، نفس المرجع، ص 248.

استمر معظمهم على ديانتهم الأصلية نسي ليفي أن المسلمين كانوا يؤدون الزكاة للدولة، وهي الضريبة التي كانت تقابل جزية الذميين. لكن علينا - في ذات الوقت - أن نأخذ في الحسبان أن دواعي الأمن والسياسة الفطنة لم يكن يناسبهما زيادة عدد «الذميين» على عدد المسلمين. على أية حال، فلم يكن دخول الرعايا الجدد في الإسلام يمثل مشكلة في الأندلس خلال القرن الثامن لأنه جاء نتيجة لاختيارهم الحر ولم يفرضه أحد عليهم. ومن الآن فصاعداً سيمثل هؤلاء الإسبان المتحولون إلى الإسلام غالبية الشعب الأندلسي المسلم وخاصة في الأقاليم الجنوبية والشرقية لشبه الجزيرة. ولن يغادر معظم أحفادهم بعد عدة قرون - مثلهم في هذا مثل أحفاد العرب والبربر المستقرين منذ زمن طويل - أرض إسبانيا عندما آلت بكاملها إلى المسيحية. وقد أطلق قديماً على المسلمين الجدد لفظ «مسالة» أو «مولدين» (مفردها «مولد»). وفي الإسباني القديم «مولاي» (Muladi): ويبدو أن كلمة «مسالة» كانت تطلق على الإسبان المتحولين إلى الإسلام. أما الكلمة الثانية (مولدون) فكانت تطلق على ذراريهم (أبنائهم وحفدتهم). كما يبدو أن تحول الإسبان الأرائل إلى الإسلام (أو المسلمون الجدد، الذين سنطلق عليهم من الآن لفظ «المولدين») قد تم سريعاً وفي زمن قصير، وأنه بعد عدة أجيال كان من الصعب التمييز بين أحفادهم وأحفاد المسلمين القادمين من خارج شبه جزيرة أيبيريا. ومما لا شك فيه أن أعداد هؤلاء المسلمين الإسبان قد تضاعف خلال القرن التاسع نظراً لتحول جماعات جديدة للإسلام نتيجة لحزم وصرامة بعض أمراء قرطبة الأموية ولتعصب الأقلية المستعربة النشطة.

تلقب الكثيرون من المولدين الأحرار والعبيد، والمتبنين بألقاب أسيادهم ونسوا بالتدرج أصولهم، كما أصبح العديدون من المنحدرين عن هؤلاء المسلمين الجدد برجوازيين أثرياء بل وأعيان أقوياء جمعوا ثروات طائلة من

الاشتغال بالتجارة أو الزراعة وتناسوا مرور الزمن أن أسلافهم كانوا يقطنون إسبانيا قبل أن يدخلها الإسلام. وبعضهم الآخر اشترى بالذهب الانتساب لعائلات كريمة لكي يتمكن من التباهي بأصوله العربية. كما فضل البعض الاحتفاظ بأسماء عائلاتهم الرومانية للتميز عن غيرهم، مثل بني «أنخيلينو»، بني «سارباريكو»، بني «لوجو»، بني «كابتورنو»... إلخ. وكان ابن القوطية نفسه (وهو أحد المؤرخين العرب) يفخر في القرن العاشر بأصوله التي تمتد لعائلة الملك غيطشة وبلقبه (القوطي) الذي يعكس هذا الانتساب. وبالإضافة إلى ما تقدم، فإن المصاهرة المستمرة بين المولدين والمسلمين «الداخلين» قد محت من ذاكرة هؤلاء المولدين أصولهم الإسبانية البعيدة. لقد حدث امتزاج قوي وسريع بين الشعوب الأندلسية يصعب من خلاله، وخاصة كلما طال الأمد، التمييز بين العناصر الوافدة وأبناء البلد الأصليين. وبالرغم من هذا، فلم يفقد المولدون أبداً - دون بقية من ترك دين أسلافه وتبنى النموذج الحياتي للمسلمين الداخلين وتقاليدهم - شخصيتهم الإسبانية. وبفضل هذا الامتزاج غير العادي تمتعت الأندلس بملامح ذاتية خاصة داخل العالم الإسلامي، سواء بالنسبة لحياتها السياسية أو وعيها الثقافي والحضاري. ومن المهم ألا ننسى كذلك أن اللغة العربية لم تكن هي اللغة الوحيدة المستخدمة منذ القرن الثامن وحتى الخامس عشر، ذلك لأن عدداً لا بأس به من السكان كان يستخدم أيضاً في الحديث اللهجات الرومانية المشتقة أساساً من اللاتينية والمطعمة بمفردات عربية وإيبيرية. ولا يوجد ما يمنع من التأكيد بتفوق اللهجات الرومانية - حتى عصر متأخر من تاريخ إسبانيا الإسلامية - على اللغة العربية (ومن باب أولى على اللغة البربرية) خاصة في المناطق الريفية والزراعية⁽¹⁾.

(1) ليفي بروفنسال، الحضارة العربية الإسبانية في الأندلس، ص 81.

لقد كان اعتناق أغلب سكان إسبانيا الإسلامية الإسلامية خلال فترة تربو على ثلاثة قرون إحدى أكثر المسائل إثارة للاهتمام لدى دراسي التاريخ الأندلسي. فإسبانيا كانت بلاداً مسيحية عند الفتح الإسلامي أوائل القرن الهجري الثاني/ الثامن الميلادي، غير أنه بحلول القرن الهجري الخامس/ الحادي عشر الميلادي أصبحت بلدًا إسلاميًا بأغليته الساحقة لا تذكر المراجع المتوفرة عنه المسيحيين إلا بشكل مبعثر تمامًا. فالمراجع العربية والمسيحية، على حد سواء، تحيط اعتناق الجماهير الإسبانية الإسلام بجدار من الصمت الذي لا يمكن تفسيره. والنصوص اللاتينية المتوفرة لدينا والتي تعود إلى القرنين الهجريين الثاني والثالث/ الثامن والتاسع الميلاديين، لا تأتي على ذكر هذا الفقدان الهائل للمسيحيين. ومع أن بعضهم يشكون من أن المسيحيين أصبحوا يفقدون لغتهم، إلا أن أيًا منهم لا يتحدث عن فقدهم دينهم. ولا يعثر المرء في النصوص المتوفرة على أية أمثلة للأزمة الدينية، باستثناء ما نَجده عن شهداء قرطبة وعائلاتهم في أواسط القرن الهجري الثالث/ التاسع الميلادي. وهذه الأمثلة تتعلق غالبًا إما بأطفال الزيجات المختلطة، أو المسيحيين الذين يحكمون بالإعدام لأنهم جددوا ضد الإسلام، والذين يمنحون فرصة الحفاظ على حياتهم إن هم أسلموا. وهناك أيضًا إشارات غير مباشرة إلى اعتناق بعض سلالات عائلات قوطية غربية نبيلة الإسلام مثل (بنو قاسي) في وادي إيبرو، أو الذين أطلق عليهم اسم المسالة والصقالبة الذين نجى المصادر العربية على ذكرهم أحيانًا. وتورد المراجع القانونية الإسلامية صيغًا مختلفة لاعتناق المسيحيين الإسلام، لكن هذه الصيغ تنطبق على الأفراد وقد تكون استعملت على امتداد تاريخ الأندلس لدى قبول المسلمين مستعربًا جديدًا أسلم، ومن غير المرجح أن تكون لهذه الصيغ علاقة بالمسيحيين الذين أسلموا في فترة مبكرة في القرن الهجري الثاني/ الثامن الميلادي. لقد أدى عدم وجود

إشارات مباشرة بشأن اعتناق المسيحيين الإسلام إلى ظهور ثلاث مقاربات منهجية متميزة تستهدف التوصل بشكل غير مباشر إلى فهم كيفية اختفاء المستعربين. وأول هذه المقاربات التي يمكن أن نطلق عليها اسم «الاقتراب المتواصل» والمفضلة تقليدياً من قبل علم التاريخ الإسباني بداية من العمل الهائل لسيمفونية وبحسب هذه المدرسة الفكرية فإن عملية اعتناق المسيحيين الإسلام كانت بطيئة للغاية إذ بقي في الأندلس عدد مهم من المستعربين لغاية القرن الهجري السادس/ الثاني عشر الميلادي. ومن الدعائم الرئيسية لهذه النظرية استمرار وجود تجمع مهم للمستعربين في طليطلة المسيحية في نهاية القرن الحادي عشر للميلاد، (رغم أنه أصبح معروفاً لدينا الآن أن التمردات التي وقعت فيها في القرن الهجري الرابع/ العاشر الميلادي، لا تعني أنه كان فيها وجود مسيحي. ورغم أن رويبراً أثبت أن كثرة من مستعربي القرن الهجري الخامس/ الحادي عشر الميلادي كانوا من أصول إسلامية وليس من أخلاف المسيحيين المحليين. وبموجب هذه النظرية فإن سبب عدم تكرار ذكر المسيحيين في الوثائق العربية واللاتينية الباقية إلى الآن يعود إلى ثانوية مكانتهم في المجتمع الإسلامي، أما الإشارات النادرة إليهم فهي تتعلق بالشخصيات البارزة من المستعربين (وليس من المستعربين الجدد). وبموجب هذه النظرية فإن هجرة الرهبان والأساقفة إلى المناطق المسيحية الشمالية (وبخاصة في القرنين الهجريين الثاني والثالث/ الثامن والتاسع الميلاديين) هي دليل على أهمية الكنيسة المسيحية في إسبانيا الإسلامية. وحتى بعد الأخذ بعين الاعتبار قيام بعض مؤرخي الفترة السابقة على القرن الثامن عشر الميلادي بتزوير بعض الوثائق، فإن الكتب الموضوعة عن سير حياة بعض أساقفة الأبرشيات القوطية الغريبة القديمة توفر دليلاً على استمرار وجود هذه الأبرشيات، على رغم أن بعض أسماء هؤلاء الأساقفة قد لا يكون قد حفظ. وبحسب هذه المدرسة،

فإن انتهاء وجود المستعربين المسيحيين جاء نتيجة اضطهاد المرابطين والموحدين في القرن الهجري السادس/ الثاني عشر الميلادي. وبالتالي، ترى هذه المدرسة أن عدم ورود ذكر المستعربين في المصادر العربية يعود إلى قصورها، حيث لم يكن لدى واضعيها أي اهتمام بالمستعربين كما هو موقفهم تجاه مظاهر كثيرة أخرى من الحياة الاجتماعية. أما المقاربة الثانية من موضوع اعتناق المستعربين الإسبان للإسلام فهي «الاسمية» القائمة على أساس أسماء الأعلام، والتي كانت مفضلة من قبل العلامة الأمريكي الشمالي ر. بوليت وعدد من مؤرخي الأندلس اللاحقين، وإن كان مع بعض التحفظات. وتستهدف هذه المقاربة المبكرة تجاوز عقبة صمت المصادر عن تحول المستعربين إلى الإسلام باللجوء إلى المعطيات التي توفرها المصادر العربية عن أسماء الأعلام وتسلسل نسبهم. وبحسب هذه المدرسة البحثية، فإنه بإمكاننا في حال العثور على أسم عائلة له وقع إسباني أن نستنتج أن أول شخص اعتنق الإسلام منها هو ذلك الذي يحمل أول اسم إسلامي في تسلسل نسبها. وإذا قمنا بمتابعة هذه المعلومات إحصائياً، يكون بإمكاننا تطبيق النتائج التي نتوصل إليها على كل الجالية المسيحية في إسبانيا الإسلامية - كما في بقية البلدان الإسلامية - من أجل رسم (منحنى بياني لاعتناق الإسلام). وعلى أساس هذه المنهجية، توصل بوليت إلى استنتاج مفاده أن ذروة هذا المنحنى - فيما يتعلق بإسبانيا الإسلامية - كانت في القرن الهجري الرابع/ العاشر الميلادي الذي كان نصف سكان إسبانيا الإسلامية قبل منتصفه ما زالوا على مسيحياتهم. إن القيمة الرئيسية لهذه المقاربة تكمن في وسائلها المبتدعة لتناول موضوع اعتناق المستعربين للإسلام، ذلك لأن الاستنتاجات التي نتوصل إليها ليست مفاجئة إطلاقاً، كما أنها في ذاتها (أي المقاربة) أكثر ملاءمة لدراسة الجاليات المسيحية في الشرق الأوسط - والتي لأجلها وضعت أصلاً - منها لدراسة الأندلس

حيث تبدو تصوراتها واضحة. فهذه المقاربة لا تأخذ في الاعتبار ضعف البنى الكنسية اللازمة للحفاظ على مكانة المسيحيين على الصعيدين الديني والقانوني. وفيما يتعلق بتحليل الأسماء الإسلامية، فإنه من غير المؤكد أن اتخاذها يعني بالضرورة اعتناق الإسلام، ذلك لأن بعضهم قد يغير اسمه استجابة لضغوط اجتماعية أو لمجاراة العرف السائد. ورغم أنه يمكن قبول فكرة أن هزيمة عمر بن حفصون وسيادة الثقافة العربية الإسلامية أدتا إلى ظهور رد فعل ضد كل ما له علاقة بالثقافة اللاتينية في القرن الهجري الرابع/ العاشر الميلادي، إلا أنه ليس من الحكمة ربط استعمال كلمات أو أسماء لاتينية بالمكانة الدينية للمسيحيين. فمن الممكن جدًا أن يكون مسلمو إسبانيا الإسلامية قد حافظوا على هذه التقاليد اللاتينية وظلوا مع ذلك معتبرين مسلمين من الناحية الدينية والاجتماعية. ومن الجهة الثانية، فإن تفسير انقطاع تسلسل الأسماء بوجود تحول إلى دين آخر ليس مقنعًا بما فيه الكفاية. فبحسب نظام النسب لدى العرب، يمكن أن تنشأ هذه الانقطاعات لأسباب أخرى كثيرة مما يجعل تحديد تاريخ اعتناق الإسلام يتغير بالضرورة. وأخيرًا، فإن عينة الأسماء التي درست لم تكن كبيرة (154 تسلسل نسب فقط)، وانحصرت أساسًا في مجموعات اجتماعية ذات أصول قرطبية. لذلك، لم يكن من المفاجئ أن أيا من المصادر الإسلامية أو المسيحية أو الأجنبية أو من مصادر المستعربين لم يشر البتة إلى حقيقة أن نصف سكان إسبانيا الإسلامية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي كانوا من المسيحيين. أما المقاربة الثالثة (وهي التي يقترحها كاتب هذا الفصل، فيمكن تسميتها «مقاربة قانون المسيحي والمسلم»). وعلى الرغم أنه من الصحيح أن المجتمع القوطي الغربي كان مسيحيًا، غير أنه يجب عدم تجاهل حقيقة أن البنية الكنسية لذلك المجتمع كانت عاجزة عن تلبية متطلبات السواد الأعظم للسكان والذي كان يعتبر

مسيحيًا من الناحية الرسمية عند الفتح الإسلامي. ونجّلت أبرز مظاهر هذا العجز في مجالين رئيسيين لهما أهمية دينية وسياسية هما أولاً إجراء مراسم التعميد بوصفه الوسيلة لإدخال أعضاء جدد إلى الجاليات المسيحية، وثانياً دور الأبرشيات كمؤسسات لتعزيز قوة هذه الجاليات وتمثيلها أمام السلطات الإسلامية الحاكمة. ونتيجة لذلك خسرت الكنيسة المستعربة القسم الأكبر من سكان شبه الجزيرة الأيبيرية لصالح الإسلام، إذا لم يعد بإمكانهم التحول إلى الوثنية أو البقاء على مسيحيّتهم. كما أن العملية نفسها جرت في مناطق الشمال الجبلية التي كان سكانها الأصليون قد تنصّروا عندما وقعت مناطقهم تحت سلطة حكومة مسيحية. ولم تبق مسيحية إسبانيا الإسلامية منظمة إلا في بعض المناطق الحضرية وشبه الحضرية الصغيرة التي تمكنت من الحفاظ على تسلسل الأساقفة كما كان الحال في بعض الجاليات المسيحية ذات الأهمية الرمزية، وبخاصة في إقليم إسبانيا الإسلامية بالنسبة إلى السلطة السياسية في قرطبة، والتي وفرت لها الحماية رغم وجود أسباب قوية تدفعها إلى اعتناق الإسلام مثل الضغوط الاجتماعية من المسلمين وفقدان العالم المسيحي مكانته الحضارية. وقد تعزّزت قوة هذه الجاليات عندما تم في وقت لاحق تسجيل فلاحي منطقة مالقة وغرناطة (وربما قرطبة وقادس) على أنهم مسيحيون. وبالنسبة إلى المجتمعات الريفية التي اعتنقت الإسلام اسمياً، فقد حافظ القسم الأكبر على هويته الثقافية التقليدية بما جعل عودتها إلى المسيحية أكثر سهولة بعد الاستيلاء على طليطلة والجزء الشرقي من شبه الجزيرة. لذا، ولكل هذه الأسباب، فإني مقتنع بأن اعتناق مسيحيي أيبيريا الإسلام كان ظاهرة جماعية لها أسباب بنوية دينية وسياسية، وأن عملية التحول إلى الإسلام جرت على نطاق واسع خلال القرن الهجري الثاني/ الثامن الميلادي. ومع ذلك استمر وجود أنوية مسيحية صغيرة وحسنة التنظيم خلال الحكم الأموي (بين القرنين

الهجريين الثاني والخامس/ الثامن والحادي عشر الميلاديين في مدن إسبانيا الإسلامية وبعض المناطق الريفية الجنوبية. وقد ازداد عدد هذه التجمعات بفعل انضمام مستعربين جدد أجنب إلىهم. لذا يجب اعتبار عملية «إسلامية» شبه الجزيرة الأيبيرية مشكلة من مرحلتين: في الأولى منهما جرت عملية الأسلمة على نطاق جماهيري واسع خلال عدة أجيال بعد الفتح، وفي الثانية جرت عملية الأسلمة الحقيقية للحياة الاجتماعية. وعملية الأسلمة هذه كانت بطيئة وذات آثار محدودة نسبياً على المسيحيين، إذ كانت تتعلق أساساً بالسكان المسلمين الذين كانت لهم صلات عامة بالمسيحيين الذين عاشوا معهم في مجتمع كانت ما تزال له خصائص إسبانية. ومن وجهة نظر التجمعات المسيحية، فإن هاتين المرحلتين تتطابقان أولاً مع المسيحية الرسمية للمجتمع القوطي الغربي الذي هزمه المسلمون، وثانياً مع «التنصير» الفعلي الذي جرى بعد الفتح، والذي تحقق عبر تجمعات مسيحية صغيرة أصبحت ورثة الكنيسة الغربية. فاعتناق الإسلام كان «رسمياً» بشكل رئيسي: الجماهير المسيحية من الناحية الرسمية (أي المسيحية لأن سلطاتها كانت كذلك) أصبحت مسلمة رسمياً لأن هذه السلطات طلبت منها أن تكون مسيحية بطريقة محددة كي تستطيع المحافظة على مكانتها المسيحية. وفي الشرق الأوسط أمكن تحقيق هذا الشرط لغاية الوقت الحالي بفضل إمكانية بقاء المسيحي مسيحياً بموجب هذا الترتيب المحدد⁽¹⁾.

العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة:

كان فتح المسلمين لشبه جزيرة أيبيريا (الأندلس) فاتحة عصر جديد، وبداية تطور هام بالنسبة لها، فقد كانت تعاني قبل الفتح الإسلامي لها من

(1) ميكيل دي إيبالزا، نفس المرجع، ص 253.

كثير من مظاهر الجور والعسف والاستبداد تحت حكم القوط، حيث كانت أقلية من الحكام والأمراء والتبلاء تتمتع بكل مظاهر الثراء والتفوذ على حساب أغلبية فرضت عليها الكثير من ألوان الرق والعبودية والاستغلال، فلما جاء الإسلام الفاتح قضى على ذلك كله، وأشاع مبادئ العدالة والمساواة والحرية. وأقبل عليه الكثير من أهل البلاد، لما لمسوه فيه من قيم ومبادئ نبيلة خلصتهم مما كانوا فيه. أما من بقي على دينه منهم: فقد ترك لهم المسلمون الفاتحون الحرية الكاملة في ممارسة شعائر عقائدهم الدينية، وضربوا بذلك مثلاً أعلى في التسامح. كما خففوا عنهم الضرائب الباهظة التي كانت مفروضة عليهم، واكتفوا منهم بأداء الجزية التي كانت تتراوح قلة أو كثرة على حسب مقدرة الشخص المالية.

وكان الخراج يفرض بالتساوي على من يجوز الأرض سواء كان مسلماً أو ذمياً. وهكذا تحرر أكثر الفلاحين من الإقطاع والرق القديم، وتملكوا الأراضي وأصبح لهم حق التصرف فيها. ولم يكن لهم هذا قبل الفتح. وقد عومل أهل الذمة في إسبانيا الإسلامية بمقتضى معاهدات تنظم ذلك، ويعتبر العهد الذي أعطاه عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير حاكم شرق إسبانيا الإسلامية خير مثال لذلك. وهذا نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبد العزيز بن موسى لتدمير ابن غندير يس إذ نزل على الصلح أن له عهد الله وميثاقه، وما بعث به أنبياءه ورسله، وأن له ذمة الله عز وجل، وذمة محمد صلى الله عليه وسلم، ألا يقدم له ولا يؤخر لأحد من أصحابه بسوء، وأن لا يسبون ولا يفرق بينهم وبين نساءهم وأولادهم، ولا يقتلون ولا تحرق كنائسهم، ولا يكرهون على دينهم، وأن صلحهم على سبع مدائن، وأنه لا يدع حفظ العهد، ولا يحل ما انعقد، ويصحح الذي فرضناه عليه وألزمناه أمره، ولا يكتسنا خبراً علمه، وأن عليه وعلى أصحابه غرم الجزية

من ذلك على كل حر دينار وأربعة أمداد من قمح، وأربعة أمداد من شعير، وأربعة أفساط خل وقسطاً غسل وقسط زيت، وعلى كل عبد نصف هذا - شهد على ذلك عثمان بن عبد الله القرشي، وسليمان بن قيس التجيبي، ويحيى بن يعمر السهمي، وبشير بن قيس اللخمي، ويعيش بن عبد الله الأزدي، وأبو الأصم الهذلي، وكتب في رجب سنة أربع وتسعين». ولقد استطاع المسلمون الفاتحون أن يقضوا في أعوام قليلة على الكثير من عناصر القلق والاضطراب، وأن ينظموا إدارة البلاد، فقد أبقوا أهل الذمة شرائعهم وقضائهم، وعينوا لهم حكاماً من أنفسهم يديرون شؤونهم ويجمعون الضرائب المقررة منهم، ويفصلون بينهم في الأحكام، كما عينوا الكثير من الأكفاء منهم في مناصب هامة في الدولة مثل أوطاس الذي عينه عبد الرحمن الداخل أول قومس للنصارى بإسبانيا الإسلامية، وجيزون قاضي النصارى بقرطبة الذي عينه الحكم المستنصر واتخذته إلى جانب ذلك مترجماً له، وحسداي بن شبروط اليهودي الذي اتخذته الخليفة عبد الرحمن الناصر طيباً خاصاً له وغداً من أصحاب النفوذ والثراء في عهد المستنصر. وهكذا تمتع أهل الذمة بالكثير من الحقوق في ظل الحكم الإسلامي، وكان لهذا التسامح أثره في رضائهم بالنظام الجديد، واعترفهم صراحة بأنهم يؤثرونه على حكم الإفرنج والقوط كما يقول لين بول. ويعترف بهذه الحقائق بعض المستشرقين والمؤرخين الغربيين المعتدلين فيقول دوزي مثلاً: «لم تكن حال النصارى في ظل الحكم الإسلامي مما يدعو إلى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانوا عليه من قبل؛ وكان العرب يتحلون بكثير من التسامح فلم يرهقوا أحداً في شؤون الدين، ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل، بل حمدوا للفاتحين تسامحهم وعدلهم وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج. ويقول معترفاً بآثار الفتح الإسلامي الإيجابية «كان الفتح العربي نعمة لإسبانيا، فقد أحدث

ثورة اجتماعية هامة، وقضى على الكثير من الأدواء التي كانت تعانيها البلاد من قرون . . إلخ». ويقول لين بول: «يجب ألا يخطر ببال أحد أن العرب عاثوا في البلاد أو خربوها بصنوف الإرهاق والظلم، كما فعل قطعان المتوحشين قبلهم، فإن إسبانيا الإسلامية لم تحكم في عهد من عهودها بسماحة وعدل وحكمة كما حكمت في عهد العرب الفاتحين». ويقول أيضاً «وكان للإسبان أن يحتفظوا بشرائعهم وقضائهم، وعين لهم حكام من أنفسهم يديرون المقاطعات، ويجمعون الضرائب، ويفصلون فيما شجر بينهم من خلاف. وكان التسامح الديني سائداً فلم يدع للإسبان سبباً للشكوى».

يقول المؤرخ الأمريكي سكوت: «كان دفع الجزية ضمن الحماية لأقل الناس، وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاول شعائره دون تدخل، كما يسمح للملحد أن يهاجر بآرائه دون خشية، والأخبار يزاولون شؤونهم في سلام. أما أقوال الكتاب النصارى التي ينسبون للعرب فيها أفظع المثالب فهي محض مبالغة وافتراء». وإن كنا لا نوافقه في أن المسلمين كانوا يسمحون للملاحدة بالمجاهرة بآرائهم خاصة إذا كان فيها تهجم الإسلام كما يتضح ذلك من حركة الاستشهاد التي سيأتي ذكرها. وينوه المؤرخ الأمريكي الدكتور (لي) بتسامح العرب والمسلمين خلال العصور الوسطى وترفعهم عن الخصومات الدينية، وعن بعض الأجناس والفرقة بينها⁽¹⁾. ويذكر المستشرق (التاميرا) أن أغلبية الشعب الإسباني بقيت في ظل حكم المسلمين محتفظة برؤسائها وقضائاتها وأساقفتها، وكنائسها، بالجملة فقد بقيت البلاد محتفظة بما يشبه استقلالها المدني الكامل، وقنع الولاة بأن يفرضوا عليها الضرائب الشرعية. وحتى بعض المستشرقين المتحاملين لم يجدوا مناصاً من الاعتراف بذلك مثل

(1) حسن يوسف، المرجع السابق، ص 139.

المستشرق الإسباني سيمونت الذي يقول «إنه فيما يتعلق بالقوانين المدنية والسياسية فإن النصارى الإسبان احتفظوا في ظل الحكم الإسلامي بنوع من الحكومة الخاصة. انتشر الإسلام بين غالبية سكان إسبانيا حيث وجدوه طريقتهم إلى الخلاص وإلى الحرية والعدالة والمساواة، كما اعتنقه البعض للحفاظ على ما تحت يده من أملاك وأراض، أو للخلاص من دفع الجزية، أو لرفع مكانته الاجتماعية. ولم يلبث الإسلام أن نحى النصرانية عن عرشها، وصارت الغالبية العظمى من السكان مسلمين - وسموا بالمسالمة - أما الذين بقوا على دينهم فقد أخذ يقلون شيئاً فشيئاً وعرفوا بالمعاهدين والمعاقدين وأهل الذمة والعجم. وقد بهر الكثير منهم بالمسلمين ومبادئهم - برغم بقائهم على دينهم - فأخذوا يقلدونهم في كثير من العادات والتقاليد والملابس والأزياء والطعام والشراب، ويتعلمون اللغة العربية ويجيدونها ويتحدثون بها ويكتبون ولذلك سموا بالمستعربين. وقد عاشت إلى جانب هؤلاء المستعربين النصارى جاليات من اليهود وجدت أيضاً من المسلمين الكثير من ضروب التسامح وحسن المعاملة بعد أن وجدت في فتحهم لإسبانيا خلاصاً لها من الجور والاضطهاد الذي كانت تروح تحته أثناء حكم القوط. وبالرغم من هذا التسامح التام الذي أبداه المسلمون تجاه أهل الذمة من يهود ونصارى، إلا أن فريقاً من الإسبان المتعصبين كانوا ينظرون إلى المسلمين على أنهم غزاة مغتصبون، وكان هؤلاء الغلاة يتهمون إخوانهم من النصارى المعتدلين الذين ارتضوا حكم المسلمين بالمرق والخيانة للدين والوطن. وكان رجال الكنيسة منهم هم مبعث هذا التعصب ودعامته، يذرون بذور الشقاق ويوقدون نيران الفتنة، ويوغرون صدور المتطرفين والغلاة باسم المسيحية والحفاظ عليها، وكانوا يبغضون المسلمين، ويناصرون المسيحيين الذين يقاومون المسلمين من خلال حركة الاسترداد أو الاستعادة لطرد المسلمين من إسبانيا. وكان تغلغل

حركة الاستعراب عند إخوانهم من النصارى قد أحدث رد فعل قوي لديهم فأخذوا يبدون أسفهم الشديد وتحسرهم لذلك. وحاولوا عبثاً وقف هذه الحركة دون جدوى، فلم يجدوا أمامهم سبيلاً إلا الطعن في الإسلام والسخرية من المسلمين ونبههم معتمدين على طائفة من الخرافات والأباطيل التي يروجها رجال الكنيسة. ولم تكن العوامل الدينية هي وحدها مبعث ذلك التعصب، بل كان للعوامل الاجتماعية أيضاً دور في ذلك حيث أن هؤلاء كان يثير قلوبهم ما يحيط بالحكم الإسلامي في إسبانيا الإسلامية من مظاهر العز والسؤدد، وما يظهر به الحكام المسلمون من مظاهر الفخامة والعظمة، وما ينعم به المجتمع الأندلسي من حياة رغدة آمنة مستقرة. وكان يذكي هذا الحقد في نفوسهم ما يتعرضون له - نتيجة لتعصبهم - من معاملة خشنة وخاصة من العامة. وبلغ هذا التعصب مداه في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط الذي بدأت حضارة إسبانيا الإسلامية في عهده في التآلق، وأصبحت إسبانيا الإسلامية في عداد الدول العظمى في العالم الإسلامي والمسيحي على السواء. وكان في وسع هؤلاء المتعصبين في طليطلة وغيرها من المدن البعيدة عن العاصمة «قرطبة» أن يرفعوا علم الثورة أو ينضموا إلى الثورات التي تقوم ضد الأمويين، ولكنهم في قرطبة قاموا بحركة دينية خطيرة 237 هـ حيث عمدوا إلى تحقيق أهدافهم بوسيلة بسيطة وخطيرة في نفس الوقت وهي المجاهرة بسبب الإسلام ونبه في الطرقات والأماكن العامة وهم يعلمون أن المسلمين لن يسمكتوا على ذلك، وأن تلك جريمة شنعاء تعرض مرتكبها لعقوبة القتل، غير أنهم انزلقوا في هذا المنحدر عامدين حتى يكونوا شهداء وقديسين فيؤدي ذلك إلى ازدياد نيران الفتنة. يذكر أن هذه الفتنة التي سميت بحركة الاستشهاد بدأت بحوار دار بين قسيس من قرطبة يدعى برفكتوس مع بعض المسلمين حول فضائل محمد وعيسى، وحميت المناقشة فتحولت إلى جدال

عنيف أدى إلى طعن هذا القسيس في الإسلام ورسوله فقبض عليه وأعدم مما أدى ببعض رجال الكنيسة المتعصبين إلى استغلال ذلك وعلى رأسهم يولوخوس للقيام بدعاياتهم ضد الإسلام. وكان يتزعم هذه الحركة قسيس متعصب مشهور من قرطبة يدعى يولوخوس أو (إيلوج) أخذ يسب الإسلام ويهاجم الإسبان الذين اعتنقوه، ويحبب لاتباعه الاستشهاد في سبيل نصرته المسيحية ضد الإسلام، وكان يساعده في ذلك شاب مسيحي من أغنياء قرطبة يدعى (الفارو) أخذ ينتقد الإسبان الذين يتعلمون اللغة العربية وآدابها ويتركون اللاتينية وشروحها. وكان يساعدهما قسيس آخر يدعى (برفكتوس)، وفنائه إسبانية تدعى (فلورا) كانت قد أسلمت ثم ارتدت. وأدرك الأمير عبد الرحمن دقة الموقف وخطورته ورأى معالجته بالحزم والسياسة معاً، فاستدعى مجلساً من الأساقفة عقد في قرطبة برئاسة (ريكفارد) مطران إشبيلية، ومثل الأمير في هذا المجلس كاتبه النصراني جوميز بن أنطونيان بن جوليان عامل أهل الذمة يسميه ابن القوطية قومس بن انتنيان بن يليانه وقد اعتنق الإسلام فيما بعد وسمي بحمامة المسجد. وتم في هذا المجلس استعراض الموقف وما يمكن أن يترتب على أعمال هؤلاء الغلاة من عواقب خطيرة، وأصدر المجلس قراراً ينتقد فيه مسلك هؤلاء المتطرفين، ويحذر باقي النصاري من الانضمام إليهم، والتهديد باعتقال كل مخالف لذلك. غير أن ذلك القرار لم يؤد إلى نتيجة حاسمة، فقد تمادى هؤلاء في غيهم واعتقل الكثير منهم وزج بهم في السجون، وقدموا للمحاكمة فأخذوا يطلقون ألستهم بالسب والقذف في الإسلام ونبيه، وحاول القضاة إقناعهم بخطئهم ومدى خطورته ولكن ذلك لم يجد نفعاً، عند ذلك أخذوا يحكمون عليهم بالقتل جزاء ما يصنعون، وكان الأخبار يكرمون رفات هؤلاء القتلى ويطلقون عليهم صفة الشهداء مما زاد هذه الحركة ضرماً، ورأى قضاة المسلمين خطر هذه الحركة فراوا عدم مقابلتها

بالعنف حتى لا تزداد اشتعالاً فأخذوا في مراجعة هؤلاء المنحرفين والحكم عليهم بالسجن بدلاً من القتل ولكنهم كانوا يطالبون بالموت حتى يلحقوا بإخوانهم الشهداء، حتى أن القاضي الذي حاكم فلورا عندما حكم عليها بالسجن أخذت تطالبه بالحكم عليها بالإعدام وتمادت في السب والقذف أمامه حتى حكم عليها بالموت، وظلت هذه الفتنة مستمرة وحكم على نحو أحد عشر متعصباً في شهرين. واعتقل يولوخوس وغيره من زعماء الحركة، ورغم ذلك استمرت الفتنة، ولما توفي الأمير عبد الرحمن أفرج عنه وعين أسقفاً لمدينة طليطلة حتى يكف عن إشعال نيران هذه الفتنة فهدأت قليلاً، ولكنه عاد إلى قرطبة ليواصل فتنته رغم ذلك وعند ذلك قبض عليه وأعدم في مارس 245 هـ/ 859 م بأمر من الأمير محمد الأول بن عبد الرحمن، ويقتله أخذت الفتنة تضعف شيئاً فشيئاً حتى زالت، وهكذا انتهت هذه الفتنة الخطيرة التي استمرت ما يقرب من ثماني سنوات 237 هـ/ 851 م - 245 هـ/ 859 م ولم تحقق شيئاً من أهدافها بل على العكس أدت إلى مقتل نحو أربعة وأربعين من المتعصبين، وإلى إثارة السخط والاستنكار من جانب النصارى المعتدلين الذين كانوا يقدرّون تسامح المسلمين⁽¹⁾.

(1) حسن يوسف، نفس المرجع، ص 134.

الحياة الاجتماعية للطبقات العامة

أطنت الدراسات المعاصرة في الحديث عن تعدد العناصر الأثنية بالأندلس. منها ما ركز على إبراز الاندماج العميق الذي حدث فيما بينها خلال عصر الخلافة، في اتجاه خلق نوع من «الوعي الوطني والتجانس الاجتماعي» وأخرى على العكس، تشددت في الإقرار باستمرار الانقسام بين الأهالي والدخلاء. في حين اختار البعض موقفاً وسطاً بين الطرفين. وتكمن أسباب الاندماج بالنسبة لدعاته في انتماء أغلب الطوائف للعقيدة الإسلامية واشتراكها في كراهية العباسيين إضافة لانسجام الوسط الجغرافي بينما علل الآخرون موقفهم، بحفاظ الدخلاء على تماسكهم القبلي - العشائري دون أن يجبرهم الاعتراف بشح المادة التاريخية عن الحذر من تعميم هذا الاعتقاد على عصر الخلافة على أن ما يجمع بين هؤلاء وأولئك هو، النظر إلى البناء الاجتماعي بمعزل عن تلك التحولات الاقتصادية العميقة التي شهدتها البلاد خلال القرن الرابع الهجري. ولعل في رصد العناصر المكونة لمجتمع إسبانيا الإسلامية في بنيتها الداخلية، في علاقاتها مع بعضها البعض ومع الدولة، ما يكشف عن التركيب الأثني - الطائفي لطبقات العامة. بالغ الدارسون في التقليل من الأهمية العددية للعرب بإسبانيا الإسلامية ولم يتورع أحدهم عن إجراء تحليل كيميائي بالأرقام، لنسبة الدم العربي، ليخلص إلى إقصاء العرب من الخريطة الأثنية. ولا غرو، فقد أغفلوا أهمية الهجرة العربية المدنية المستمرة، والتي تكشف عن بعض خيوطها كتب الطبقات واقتصروا على إحصاء الجماعات العسكرية. كما استندوا على الاعتقاد الشائع بأن العرب دخلوا الأندلس رجالاً محاربين، مما اضطّرهم إلى اتخاذ نساء إسبانيات. وهو ما فنده مؤرخ إيطالي من أهل القرن الثامن، في إقراره بأن العرب الذين فتحوا جنوب فرنسا «استقروا فيها بنسائهم وأطفالهم». نجد تأكيد ذلك، فيما

أورده الخشنى عن عبد الرحمن بن معاوية، الذي بعث رسولا «إلى الشام ليأتيه بأخته أم الأصبح فأبت الانتقال وقالت: كبرت سني، وأشرفت على انقضاء أجلي ولا طاقة لي على شق البحار والقفار». بما لا يدع مجالا للشك في ترحيل أغلبية الداخلين إلى إسبانيا الإسلامية لعائلاتهم. فكم من عربي دخل «الأندلس في عصابة من ولده» بل ومن النساء العربيات، من تبوأ مراكز قيادية. فقد عقد الأمير محمد لأحدهم «على إشبيلية وعقد أيضا لإمارته عليهم تعصبا للمعصية، إذ فخر عليها رجل يمانى باليمانية وكثرتها». ولدينا من القرائن ما يدل على تفوق نسبة العرب بقرطبة. فبالإضافة إلى ما هو معروف عن استقرار أكثرهم في الخواضر يقول ابن بسام «أكثر أهل بلاد هذا الأفق أشرف عرب». أكد ذلك غيره بالقول: «ففيها تمخضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية». ولا غرو، فخلال ولاية أبي الخطار «كثر أهل الشام عنده، ولم تحملهم قرطبة ففرقهم في البلاد» وعند قيام ثورة الخوارج انضم عرب الأطراف إليها. وفي عصر الخلافة، ازدادت الهجرة العربية الداخلية، من أطراف إلى العاصمة، في إطار التحولات الاقتصادية التي شهدتها البلاد. يكشف عن ذلك ابن حزم وغيره فيما ذكره عن تفرق البيوتات العربية لتتخذ من العاصمة مقرا نهائيا لها. تضاربت المعلومات الواردة في المصادر القديمة، بصدد تحديد وضعية العرب في البنية الاجتماعية للدولة الإسلامية. فابن رستم قدم لائحة بأسماء عديد من الصحابة والأشراف الذين مارسوا مهنا عامة، كالحدادة والنجارة والحجامة والقضابة وغيرها. في حين أكد الجاحظ بأن «العرب لم يكونوا تجارا ولا صناعا ولا أصحاب فلاح ولا طلبوا المعاش من السنة الموازين ورءوس المكاييل». ومن الشائع لدى الدارسين أنهم في إسبانيا الإسلامية كانوا بالمثل، يترعون على قمة الهرم الاجتماعي، و «يأنفون من القيام بالأعمال الزراعية الاقتصادية» ربما انطبق ذلك على الفترة السابقة

للخلافة . فالمصادر ركزت على إبراز تنظيم العرب في إطار «القبائل والعمائر والبطون والأفخاذ» كما أنه عندما «تسمى جماعة من موالي الخلفاء بأسماء العرب، فإنكر ذلك عليهم الأمير بفضل أنفته، وأكد فيه نهيه» وما ورد عن الصراعات المبررة فيما بين الحجازية القيسية واليمانية كاف للدلالة عن أهمية النسب والتماسك القبلي - العشائري، في تحديد الانتماءات الطبقية . غير أن تعميم هذا الاعتقاد على عصر الخلافة، دون مراعاة طبيعة المرحلة التاريخية، وحجم التحولات الاقتصادية، ينم عن مجازفات . من الطبيعي أن تسفر التطورات الاقتصادية السالفة الذكر، عن انحلال المنظومة القبلية العربية، وتراجع أهمية النسب . حتى كادت الخلافات العنصرية القديمة تصبح من ذكريات الماضي وهو ما أكده ابن خلدون بقوله: «إن الأندلس ليست بدار عصائب ولا قبائل». ففي أواخر الدولة العامرية استعطف الشاعر أبو العلاء صاعد أحد الفرسان بالقول: وأنا ابن عمك من ربيعة، إذ هي وسليم أحلاف، فالعدنانية تلفنا والنسب يضم شعبنا فما انتفع من ذلك. «وأيس ذوو الأحساب، فتفرقوا شذر مذر» وقد كان ابن عباد أكثر وضوحاً في إبراز هذه الظاهرة بالقول: «فإننا نحن العرب في هذه إسبانيا الإسلامية قد تلفت قبائلنا، وتفرق جمعنا، وتغيرت أنسابنا فصرنا فيها شعباً لا قبائل وأشتاتاً لا قرابة ولا عشائر». كان الانحلال من القوة والسرعة، أن اضطر الحكم المستنصر إلى «تأليف قبائل العرب وإلحاق من نسب أو جهله بقييلته» كما كلف أهل كور الأندلس أن يلحقوا كل عربي أحمل ذكره ويرد كل ذي نسب إلى نسبه بما يكشف عن شمولية الظاهرة لكل البلاد . من ثم فالاهتمام البالغ بالأنساب خلال عصر الخلافة، ليس تأكيداً على التماسك القبلي، كما اعتقد البعض بل محاولة للوقوف في وجه الانحلال الجارف .

ومن مظاهر تفسخ العلاقات القبلية، تشتت الأسرة الواحدة جغرافياً. بحيث أصبحت أغليتها على شكل بيوت متفرقة، ليست لهم دار جامعة حتى غدت الأخطاء لدى النسابة من الأمور العادية في ظل هذا الوضع أصبح بإمكان المرء أن يدعى «أشرف الأنساب ثم لا يجد في ذلك مكذباً» ومن المفيد إثبات نص لابن حزم بالغ الوضوح في الكشف عن صحة هذا الاعتقاد، إذ قال: «ودار بلى بالأندلس الموضع المعروف باسمهم بشمال قرطبة، وهم هناك على أنسابهم لا يحسنون الكلام باللطينية لكن بالعربية فقط، نسائهم ورجالهم، ويقرون الضيف». يحمل هذا النص عدة معان. فهو من جهة، يؤكد صحة الاعتقاد السابق بأن العرب هاجروا إلى إسبانيا الإسلامية بعائلاتهم. ومن جهة أخرى يوضح أن الحفاظ على الأنساب تعتبر ظاهرة شاذة. مع ذلك، فاستمرارها يعني أن التحولات الاقتصادية لم تكن في مستوى أبطال مفعول النسب والتنظيم القبلي بصفة نهائية. ومن القرائن ما يدل على ذلك، فإلى جانب استمرار فعالية «ديوان قريش» بقرطبة، حافظت الأجناد الشامية الستة السالفة الذكر على تماسكها القبلي بالكور المجندة كما استمرت المصادر تتحدث عن جلة قريش وخاصتهم ووجوه الموالي وأهل البيوتات ولعل في هذا ما يفسر قول المقرئ بأن «عرب إسبانيا الإسلامية يتميزون بالقبائل والعماثر والبطون والأفخاذ، إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر». طبعاً لم يكن التفسخ القبلي نتيجة لقرار سياسي. مع ذلك، يكشف هذا النص على أن العملية تمت تدريجياً. بما يؤكد ارتباطها بتحول الهياكل العقارية والنظام الاقتصادي، الذي ترسخ هو الآخر تدريجياً. ويبدو أن الانحلال القبلي كان أقوى بقرطبة وبقيّة المدن عنها بالبوادي والهوامش. فقد تحدث ابن بسام عن «بقاء شؤم العصبية بين العرب والمولدين إلى آخر الأيام» بقصبة باجة. ينطبق نفس الشيء على شلب التي كان أهلها وسكان

قراها عرب اليمن وغيرها، وهم يتكلمون بالكلام العربي الصريح، ويقولون الشعر لذلك، فليس غريباً أن نجد من «يتعصب للقحطانية ولغيرها في مثل هذه المناطق. أفضى انفراط التماسك في إطار القبيلة والعشيرة والأسرة إلى انحدار عديد من العرب إلى أسفل الدرك الاجتماعي. فقد ذكر ابن حزم بنو خصفة ابن قيس عيلان، باعتبارهم «أذل قبائل قيس بالبادية». كما ميز الإدريسي عرب مدينة شلب «خاصتهم (عن) عامتهم». ينسحب نفس الشيء على الأمويين، الذين كانت «بقرطة منهم طائفة غامضة الشخوص، بارزو الهبة، عارمة الأدب والمروءة، متطبعة بأخلاق العوام وهو ما أكده ابن بسام بقوله: «ودخلوا غمار الناس، وامتهنوا واستهينوا». بلغت الظاهرة من الشمولية، أن عجزت المصادر القديمة عن حصر البيوتات العريقة التي اندمجت في «غمار العامة». ولا غرو، فالمعلومات بصدد العرب الذين مارسوا المهن التي أنفوا منها سلفاً، مثل «عمل الفخار والليازة والخرازة والهرابة وغيرها تتجاوز الحصر. حتى غدت هذه الظاهرة من الأمور العادية، كما يفهم من نص لابن خلدون إذ قال: «نجد كثيراً من أعقاب البيوت وذوى الأحساب والأصالة وأهل الدول منطرحين في الغمار، مستحلين للحرف الدنيئة في معاشهم بما يفسد أخلاقهم، وما تلونوا به من صبغة الشر والسفسفة». تحدث المؤرخ الأندلسي المجهول عن العرب، بما لا يدع مجالاً للشك في اندماج أغليبيتهم في صفوف العامة. إذ قال: «ومن احترف منهم فاحترف بفلاحة وخدمة أجنات غلة وغرس ونسج حرير وبيعه غير منسوج وطرقه وبيع بز وتسبب بجلبه وبيع عطر وسبط شمع وبيعه ونسج وغزل الكتان وبيع لبن البقر لمن يخضه.

وبالمثل اختلف الدارسون حول مدى حفاظ البربر على تنظيماتهم القبلية. فبينما يصر كيشار على أنها، كانت أكثر متانة وتماسكاً من نظيراتها

العربية، يتفق الأغلبية على اندماجهم السريع في الوسط الجديد. في حين تحفظ البعض عن الحسم في القضية. ومما زاد الأمر تعقيداً، شح المادة التاريخية، مما يجعل هذه الآراء مجرد تخمينات نظرية. على أنه من الضروري التمييز هنا، بين العرب العاربة البربر الذين هاجروا إلى إسبانيا الإسلامية قبل عصر الخلافة، والقبائل العسكرية التي التحقت مؤخراً بخدمة الخلافة الأموية. وعلى عكس موقفهم من العرب، أجمع الدارسون على إبراز أهمية العرب العاربة البربر العددية. لم تعوزهم في ذلك، المادة التاريخية. فبصرف النظر عن الإحصائيات الواردة في المصادر، كثيرة هي القرائن التي تؤكد ذلك. فقد تحدث المؤرخ المجهول على سبيل المثال، عن ثورة العرب العاربة البربر، قائلًا: «وانضم عرب الأطراف كلها إلى وسط إسبانيا الإسلامية، إلا ما كان من عرب سرقسطة وثرغهم فإنهم كانوا أكثر من العرب العاربة البربر». وبرغم تركيزهم على الجماعات العسكرية الفاتحة واللاحقة لم يحل ذلك دون الهجرة المستمرة من شمال إفريقيا للبحث عن شروط معاشية أفضل. حقيقة تحدث الأصبطخري عن المناطق الجغرافية التي شغلتها بعض القبائل البربرية. ف «نفزة ومكناسة منهم بإسبانيا الإسلامية بين الجلالقة وبين مدينة قرطبة. وأما هواره ومديونة فهم سكان شتيرية». كما أورد ابن حزم معلومات أكثر دقة وتفصيلاً بهذا الصدد. على أن من شأن ما تعرفنا عليه من ازدهار مديني، وانحلال للعلاقات الإقطاعية، أن تؤثر في اتجاه خلخلة ارتباط هؤلاء بالأرض أولاً، وبعضهم البعض في إطار العشيرة والقبيلة.

ولعل في اتساع ظاهرة الهجرة من البوادي نحو المدن، ومن الهوامش إلى قرطبة، ما يكشف عن ذلك. فعديدة هي الأسر التي تنتمي لفخذة هواره، انتقلت للاستقرار في الجانب الغربي من العاصمة. وبالمثل، فبنو رزين البربر «كان نفر منهم بقرطبة» ينسحب نفس الشيء على الزجالين الذين نسبهم

ابن حيان في «عامة البربر»، فقد هاجروا من ناحية تاكرنا للاستقرار بقرطبة. وكم من أسرة أصبحت مشتتة بين عدة مناطق⁽¹⁾. أكدت كتب الطبقات على صحة الاعتقاد باتساع الهجرة البربرية العرب العاربة من الكور نحو قرطبة، واندماجهم في الحياة الاجتماعية والثقافية بها، فيما أوردته من تراجم لأعلامهم ولعل في نعتهم بـ «الأندلسيين» وبـ «أهل قرطبة» ما يدل على تفسخ انتماءاتهم القبلية. ولا غرو، فخلال ثورة العامة، لم تمتنعهم أصولهم البربرية من المشاركة مع بقية القرطبيين في الدفاع عن العاصمة ضد الهجومات البربرية. وفي حديث الرازي عن الكور خص فحص البلوط وحده بالقول: «وكان يسكنه البربر من العرب العاربة». ولم يخف ابن حزم تعجبه من هذه الظاهرة، حيث قال: «ونحن نجد من سمع لغة أهل فحص البلوط وهي على ليلة واحدة من قرطبة كاد يقول أنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة»، مما يكشف عن شذوذ مثل هذه الحالات عن القاعدة العامة. مع ذلك، يبدو أن انحلال الروابط القبلية، لم يكن شاملاً لكل المناطق، وبالأخص الهامشية منها. فقد ترجم ابن الفرضي لشخص «من أهل استجة من ساكن باديتها وسط قبيلة من قبائل البربر العرب العاربة». فأغلبهم كانوا يمارسون «مهنة حقيرة» مع ذلك، فقد أصرت على أن أقلية فقط هي التي اختارت الحياة المدنية لتشغل بعض الوظائف في الدولة بمعنى أن عامة المدن لم تحتضن طائفة بربرية. غير أن كتب الطبقات التي اعتمد عليها هؤلاء، نفسها تفند هذا الزعم، فمن العرب العاربة البربر، من كان «عطاراً» و«بزاراً» ومؤدباً ومن أمثال العامة ما يؤكد اشتغالهم كحراس وباعة بالأسواق. وليس أدل على ذلك من ارتفاع أعدادهم بالمدن، التي احتضنت «من البربر والمهاجرة كثير». باستثناء بعض الإشارات القبلية، يبدو أن المصادر القديمة، عربية كانت أم

(1) أحمد الطاهري، الحياة الاجتماعية ص 146.

لاتينية سككت عن الطائفة التي عرفت بالمستعربين. لذلك فأغلب ما كتب عنهم لا يتعدى أن يكون مجرد افتراضات تنقصها الدلائل التاريخية. من ثم وجاهة نصيحة الدارسين بالتزام الحذر عند التجرد للحديث عنهم. استغل البعض هذا الوضع للإقرار بدور المستعربين في الحفاظ على استمرارية الحضارة الرومانية - القوطية - المسيحية، من مخاطر حضارة عربية إسلامية دخيلة وعابرة، وفق نظرة متعصبة لا ترى التناقض بإسبانيا الإسلامية إلا فيما بين الإسلام والمسيحية.

ليست هناك معلومات دقيقة يمكن الاستناد عليها، لتقدير نسبة المستعربين في مجتمع إسبانيا الإسلامية. مع ذلك، فمن المرجح أنهم استمروا يشكلون عددًا لا يستهان به. وهو ما ذهب إليه كل من بلباس وبروفنسال يدعم هذا الاعتقاد، ما أورده ابن حوقل وإسبانيا الإسلامية غير ضيقة فيها الأولوف من الناس لم تمدن، وهم على دين النصرانية روم. ينطبق نفس الشيء على المدن التي ضمت هي الأخرى جماعات متفاوتة الأهمية. ولعل في وجود أسقفيات بها ما يدل على ذلك. قال ابن حيان: «أمر الناصر لدين الله بإحضار عباس بن المنذر جاثليق، أسقف إشبيلية، ويعقوب بن مهران أسقف بجانة، وعبد الملك بن حسان أسقف البيرة». وعلى عكس ما ذهب إليه بروفنسال وكاجيكاس يبدو أن نسبتهم بقرطبة وضواحيها كانت متفاوتة. يشهد على ذلك، كثرة ما كان بها من كنائس وأديرة. ولقد كانوا من الكثرة أن رفعت إلى القضاة شكاية في نهبي العجم عن المرور على مقابر المسلمين مع ذلك، فمما لا شك فيه أن عددهم تقلص بشكل ملحوظ، خلال عصر الخلافة، نتيجة لتزايد ظاهرة التحول إلى الإسلام في صفوفهم.

تحدث البعض عنهم، باعتبارهم «طبقة اجتماعية» متجانسة. في حين ميزت المصادر القديمة «كبار النصاري» ووجودهم عن عامة «أهل الذمة

وغمارهم». ولا غرو، فعند الفتح، تم تمييز أهل الصلح الذين حافظوا «على أرضهم وأموالهم يبيعون ويباع منهم» عن غيرهم. مع العلم أن الأندلس أكثرها إنما فتح صلحاً كما عوملت الطبقة الإقطاعية بشكل مختلف عن عامة الناس. فمن المتعارف عليه أن أبناء آخر ملوك القوط حافظوا على «ثلاث آلاف ضيعة سميت بعد ذلك صفايا الملوك» ولم تصل المضايقات التي تعرضوا لها لاحقاً، في إطار سيادة البنى القبلية - العشائرية، والتعصب الديني - الطائفي، إلى حد تحويلهم جميعاً منتجين فقراء. بمعنى أنه لا الفتح الإسلامي، ولا التطورات اللاحقة، لم تفص إلى إحداث تغيير جذري في البنية الاجتماعية القائمة. لذلك استمر المستعربون يشكلون طائفة، لا طبقة داخل مجتمع إسبانيا الإسلامية. ورغبة من الدولة في احتوائها، وتغادياً للصراعات التي قد تنجم عن عدم مراعاة خصوصياتها، لم تجد غضاضة في الاحتفاظ لها بنظمها الخاصة. هكذا، خلق منصب «القمامسة» الذي يتولاه «زعيم عجم الذمة» وقد احتفظت لنا المصادر العربية على أسماء بعض من شغل هذا المنصب خلال عصر الخلافة، منهم «أبو صاعد» و«معاوية بن لب» ويبدو أن القومس، كان يترأس جهازاً إدارياً كاملاً، مركزه في قرطبة، وفروعه في الكور. فقد ذكر ابن الخطيب أن أهل الذمة بمختلف مدن وكور البلاد، كان «يرأسهم أشياخ من أهل دينهم أولو حنكة ودهاء ومداواة، ومعرفة بالجباية اللازمة لرؤوسهم». كما توفرت الطائفة على محاكمتها الخاصة. فمن قضاة النصارى بقرطبة، ذكرت المصادر «أصبغ بن نبيل» و«وليد بن خيزران» و«حفص بن البر» ومن جهة أخرى، استمرت طليطلة، مركزاً لرئاسة الأساقفة. وقد شغل هذا المنصب خلال خلافة الحكم المستنصر، المطران «عبيد الله بن قاسم إضافة لمطرائيتي «إشيلية وماردة». تناقل المؤرخون نص رسالة بعثها نصارى أهل الشام لعمر بن الخطاب، تتضمن بنود الاتفاق

بين الطرفين، حول شروط إقامة أهل الذمة بأمان في الدولة الإسلامية. أشير فيها إلى منعهم من إقامة كنائس جديدة، ومن التشبيه في الملبس والمظهر بالمسلمين، والتجرد من السلاح، وغير ذلك. مع العلم بأن تطبيق التوصيات الفقهية بصدد أهل الذمة، اختلف باختلاف طبيعة الجهاز الحاكم. ومن الفقهاء من بالغ في وضع القيود المميزة لهذه الطائفة، والحث على ضرورة إذلالها. وبديهي أن تعمل مثل هذه الممارسات على تمتين التماسك في صفوفها. وليس أدل على ذلك بالنسبة للأندلس، من اتساع حركة العصيان و«الاستخفاف» في أوساط مستعربي قرطبة خلال القرن التاسع فهل كانت لتلك التطورات التي شهدتها إسبانيا الإسلامية من دور في تغيير هذه الوضعية. ليس هناك، على ما يبدو، من ينكر التسامح الذي حظي به المستعربون خلال عصر الخلافة. فبروفنسال لم يجد أي مظهر للكرهية والتعصب تجاههم. ولم يكن شح المادة التاريخية، ليمنع بالنشأ من الإقرار بشيوع علاقات الأخوة بين المسيحيين والمسلمين، بل وحتى متعصبي المدرسة الإسبانية التقليدية سايرو هذا الاعتقاد. فسيمونيت يعترف بمساواة المستعربين لغيرهم من الطوائف والإثنيات، في الحقوق. على غرارهِ عبر كاجيكاس عن اندهاشه الكبير من العدالة التي نعموا بها، وتفوق حرياتهم بإسبانيا الإسلامية عنها بالممالك المسيحية لم يكن دوري إذاً مبالغاً في إقراره بأن التساهل مع المستعربين «لم يكن له حدود».

تجلى التسامح في عدة مظاهر. فالناصر، لم يتردد عن إشراك بعض رعمائهم في الحكم. فعندما استرجع مدينة أبدة، أسند ولايتها لـ «عريف من العجم» وكذلك فعل باستجة التي ولي عليها «حمدون بن سبيل» المستعربي. ولا حاجة لذكر الدور الفعال الذي لعبه ربيع بن زيد، صاحب يومية قرطبة في القصر الخلافي، ولا لمكانة وجنوه نصاري أهل الذمة في النشاط الدبلوماسي ينطبق نفس الشيء على علاقة الدولة بعامتهم. إلى درجة أنه إذا

تساجر مسيحي مع مسلم، أعطى الحق دائماً للأول». ويبدو أن الخلفاء أبطلوا عملياً مفعول التشريعات المقيدة لممارسة الشعائر الدينية. وليس أدل على ذلك، مما أورده ابن خاقان بأن «قرع النواقيس يهيج سمع أهل قرطبة، على الرغم من تشدد الفقهاء في منع ذلك «ببلاذ الإسلام كما أظن عريب بن سعد في ذكر ممارسة العجم بكل حرية لأعيادهم الدينية وطقوسهم بمختلف مدن وقرى البلاد، بما في ذلك إحياء ذكرى «الشهداء المقتولين بقرطبة» خلال العصر السابق. وبالمثل، أبدت الدولة مرونة في تطبيق النصوص المانعة لاستصلاح الكنائس وتوسيعها، وإقامة أخرى جديدة. فقد اشتهرت العاصمة بكثرة كنائسها، مصدق ذلك، ما أورده ابن خاقان بالقول: بات أحدهم «ليلة بإحدى كنائس قرطبة». وحظيت منها «كنيسة الأسرى» باهتمام خاص، باعتبارها «الكنيسة المعظمة بين النصارى» كثيراً ما أثارَت هذه الإجراءات تحفظ الفقهاء، الذين تجردوا لتذكير الدولة بأنه «ليس في شرائع الإسلام إحداث أهل الذمة من اليهود والنصارى كنائس ولا شروعات في مدائن المسلمين» وطالبوا به «تهديمها بعد الاعتذار إلى أهلها». تحدث الإدريسي عن إحدى كنائس الأندلس قائلا: «ولا سبيل لأحد من المجتازين بها أن يخرج حتى يأكل في ضيافة الكنيسة، ضريبة لازمة وسيرة دائمة، لا يتقلون عنها ولا يتحولون منها، وورثها الخلف عن السلف، أمر معتاد متعارف دائم، والكنيسة ذاتها كنيسة عامرة بالقسيسين والرهبان، وبها أموال مدخرة، وأحوال واسعة وأكثر هذه الأموال محبسة عليها في أقطار الغرب وبلادهم وينفق منها على الكنيسة وخدامها وجميع من يلوذ بها مع ما يكرم به الأضياف الواردون». يؤكد هذا النص، مدى الرعاية التي حظي بها المستعربون. على أن أهم ما يكشف عنه هو عدم اقتصار دور الكنيسة على النشاط الديني، بل تجاورته إلى الفعل في المجال الاقتصادي، بتسهيل مأمورية التجار، وتقديم الخدمات لهم.

فمن الطبيعي إذاً، أن تتخاضى النظم المتبرجزة الطرف عن تلك النصوص التشريعية المقيدة لنشاطها. لذلك، فدوافع التسامح، لم تكن كلها سياسية، كما هو شائع. كما أبدت المحاكم الإسلامية مرونة قصوى في مواجهة المستخفين بالنبي، على عكس العصر السابق: فقد ورد على القاضي «رجل من النصارى مستقتلاً لنفسه، فوبخه أسلم وقال له: ويلك من أغراك بنفسه أن تقتلها بلا ذنب» واكتفى بتلقيه درساً في الدين المسيحي. ومن المفيد إثبات نص بالغ الدلالة في الكشف عن شيوع حرية الاعتقاد. قال أحد قضاة قرطبة: «أتاني غلام من النصارى يريد الإسلام فأسلم على يدي وكتبت إسلامه وأشهدت عليه. فلما كان بعد أيام أتاني فذكر أنه بدا له عن الإسلام فامتحنته فوجدته مصرّاً على ما قال» فأشار عليه الفقهاء بالقول: «فإن أصر خليته في سخط الله عز وجل، فليس بأول من أغواه الشيطان» كما أصبح بإمكان النصارى أن يتزوجوا بالمسلمات. قال الخشني «كان بقرطبة رجل أعجمي ممن استنزل من الحصون المخالفة، وكانت له امرأة حرة مسلمة». أسفر هذا التسامح، عن انقراط تماسك المستعربين في إطار الطائفة وعبر عن ذلك عديد من الدارسين بالقول: «أنهم فقدوا شعورهم الوطني، وتراجعوا عن مشروع تحقيق الاستقلال»، مع ما ينم عليه مصطلحا الوطنية والاستقلال هنا من مجازفات. على أي، لم تسجل المصادر القديمة، عرية كانت أم لاتينية، أي تحرك لهؤلاء في الإطار الطائفي، طوال عصر الخلافة. وعلى الرغم من دقة رصده للأحداث، لم يعثر لهم سيمونت ولا غيره على أثر في النشاط السياسي والمعارضة. كما تمحصر كاجيكاس عن انعدام المادة التاريخية، لتتبع تطورات المعارضة المستعرية خلال عصر الخلافة. دون أن يشير ذلك أدنى شك لديه في وجودها. وبالمثل، لم يخف سيمونت أسفه الشديد لعدم احتفال المستعربين بسقوط الخلافة. لقد فات هؤلاء جميعاً، إدراك تحول إطار

المعارضة ليصبح طبقياً، لا طائفيًا. بديهي أن ينصهر المستعربون في المجتمع الجديد، ويفقدوا كثيرًا من خصائصهم المميزة. وهو ما وضعه كثير من الدارسين وإن اختلفوا في تحديد درجة عمقه. ومنهم من أشار إلى التحولات التي طرأت على المسيحية الأندلسية، في اتجاه التراجع عن الاعتقاد بالثالوث، والإقرار بوحداية الله. أن تأثر الجانب العقائدي - باعتباره الثابت الأقوى - لا يترك مجالاً للشك في عمق انحلال العناصر الأخرى: من عادات وتقاليد ولغة وعلاقات اجتماعية. ومن مظاهر ذلك، اختلاط سكان المستعربين ببقية عناصر المجتمع. فقد أورد الطرطوشي أن «الفقيه بن الحصار بقرطبة له جار نصراني يقتضي حوائجه وينفعه». بما يسقط زعم البعض بأنهم «عاشوا معزولين في أحياء خاصة بهم». ومن أمثال العامة ما يكشف عن دور التجارة في اندماج العناصر الأثنية والطائفية. ومن المفيد إثبات نص لألبرو القرطبي، بالغ الأهمية في الكشف عن مدى انحلال العلاقات الطائفية في صفوف المستعربين، إذ قال: «إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين، ولا يردوا عليها وينقضونها، وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوباً عربياً جميلاً صحيحاً. وأين تجد الآن واحداً - من غير رجال الدين - يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة. يا للحسرة إن الموهوبين من شبان النصراني لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها! في ظل هذه الظروف، ومع تزايد ارتباط وجوه المستعربين بالارستقراطية الحاكمة لا يسع عامتهم، إلا التخلي عن الاستيلاء الطائفي، للارتباط بقوة مع الذين تجمعهم بهم نفس الظروف المعاشية والاقتصادية والطبقية. من المتعارف عليه، أن أعداداً هامة من سكان إسبانيا الإسلامية الأصليين، تحولوا إلى الإسلام وهم الذين عرفوا في المصادر القديمة باسم أسالة أهل الذمة أو المولدين. وقد أكد

المؤرخ الأندلسي المجهول على استمرارية هذه الظاهرة طوال الحكم العربي - الإسلامي، بالقول: «منهم من أسلم واستقر بموضعه ومنهم من أسلم بعد الفتح». في حين أشار البعض إلى أنها أصبحت أكثر اتساعاً وكثافة خلال عصر الخلافة. ولعل فيما أورده ابن سهل عن «غلام من النصارى يريد الإسلام»، ما يؤكد ذلك. حتى غدا المولون يشكلون «أغلبية سكان إسبانيا الإسلامية». حقيقة، تم إلحاق كثير من المولدين بخطط الدولة، منذ عصر الولاة. فعقبة بن حجاج السلولي مثلاً، استقضى «مهدي بن مسلم وهو من أبناء المسألة» على قرطبة. كما استقضى الحكم الربضي، «أيوب بن عبد ربه من مسألة الذمة، على إشبيلية. وفي عهد الأمير محمد، كان «صاحب قلم بني أمية الأعلى وكتبهم العظيم قومس النصراني بن أنتيان» ويبدو أن هذه السياسة طمحت إلى امتصاص سخط هذه الطائفة، كما يستفاد من نص لابن القوطية إذ قال: «إن الحكم الربضي «استقدم عمروس المعروف بالمولد من وشقة فاخصه وقرب مكانه وكتب إلى أهلها كتاباً يخدعهم عن عقولهم ويقول إني اخترت لكم رجلاً من أهلكم وأعقابكم». مع ذلك عجزت مثل هذه الإجراءات، على خلخلة التماسك الطائفي للمولدين. وليس أدل على ذلك، من اشتداد ثوراتهم ضد السلطة المركزية عشية ظهور الخلافة بما يكشف على أن الانتماء للعقيدة الإسلامية، واندماج النخبة العليا من المولدين في الطبقة الحاكمة، لم يكن كافياً لإبطال مفعول الطائفية. من ثم تبدو أهمية التحولات التي طرأت على البنيات الاجتماعية، والتوجهات الاقتصادية للخلافة الأموية في انهيار ركائز التماسك الطائفي. فخلال هذا العصر «أصبح من الصعب تمييزهم عن المسلمين الدخلاء فاندماجهم «في الجماعة» كان شاملاً وعميقاً. وليس أدل على ذلك مما أورده كتب الطبقات عن أهل القلم المولدين. بحيث لم تعد تحركهم بتاتاً انتماءاتهم الاثنية - الطائفية. وحسبما استحضار أمثال

ابن حزم وابن القوطية لتأكيد ذلك. على أي، فمن القرائن ما يدل على أن الانحلال لم يكن جذرياً. فمن قضاة الناصر على وشقة، من كان منسوباً إلى الكبر، مزهواً شديد العصية للمولدين، متقصاً للعرب، حافظاً لمثالبها كما تكشف جمهرة ابن حزم عن استمرار الصبغة الطائفية لدى المولدين بالشغور. أكد ذلك فقيه ورع من أهل طليطلة «كان يقول إذا سئل عن من لا يحسن العربية، إذا أعريت أعمالكم ما ضركم كلامكم» يفهم من هذه النصوص، أن الانحلال كان أقوى بالمدن وضواحيها، عنها بالبوادي والهوامش.

وسواء بالسوداي أو بالمدن، اندمج معظم المولدين في القطاعات الاقتصادية المختلفة، منتجة كانت أم غير منتجة. وقد كفانا المؤرخ الأندلسي المجهول مؤونة تأكيد ذلك، إذ قال: «وأما من أسلم من أهلها، فمن كان منهم بالبادية فاكسبوا البقر والغنم الحرت والعسل وأهل الجبال منهم فكانوا يغرسون الأجناد والفواكه وقطع الخشب وطبخ الفحم ومن ولي البحر منهم فكانوا يجلبون الحوت والسردين ويصنعون السفن وآلاتهم إلى غير ذلك فأما من كان منهم بالحاضرة فكانوا يحترفون بالدباغة والحياكة والخزارة وبيع النعال المخروزة وبيع الحياك والجلاليل ونسجهم والضرب بالطبول والبند والحجامة وحمل الموتى وبيعة الأسواق بالليل وحرص الفنادق وتعمير البهائم وحمل السلوع من بلد إلى بلد». تحدث صاحب أخبار مجموعة عن الطائفة اليهودية، التي كانت عند الفتح قائلًا: بأن الفاتحين «إذا لقوا اليهود ببلدة ضمهم إلى مدينة البلد ولم يفعلوا ذلك بمالقة لأنهم لم يجدوا بها يهودا». وبالمثل، جمع مغيث «يهود قرطبة فضمهم إليها ولعل في غلبة الطابع المديني عليهم، ما يؤكد الاعتقاد الشائع، بأنهم كانوا يمارسون تجارة الكماليات وأعمال الصيرفة والصياغة. من ثم تماسكهم الاجتماعي وانعزالهم في أحياء خاصة بهم. وقد اتسعت هذه الطائفة بعدئذ بشكل ملحوظ، نتيجة لتزايد

الهجرة اليهودية من مختلف المناطق للاستقرار بإسبانيا الإسلامية. فمئذ الفتح «صرف اليهود همهم للحلول بها» حتى غدوا يشكلون نسبة مهمة في سكان بعض «مدن إسبانيا الإسلامية» خلال عصر الخلافة، وبالاخصصوص البساسة، التي وصفها الإدريسي بأنها «مدينة اليهود». وهي نفس الصفة التي نعت بها «مدينة طركونة» وكثيرة هي القرائن التي تدل على أهميتهم بالعاصمة، والتي احتضنت حسب بروفسال أكبر تجمع لهم بالبلاد. وعلى العكس بقية الطوائف، استمر اليهود بقرطبة منعزلين في أحياء خاصة بهم وليس أدل على ذلك، من إقدام القاضي على «بيع دار يتيم لعزلها من دور اليهود وإخراج اليتيم من مجتمع اليهود إلى مجتمع الإسلام» وهو ما أكدته الإدريسي بالقول: «واليهود يسكنون بجوف المدينة، ولا يداخلهم فيها مسلم البتة وأهلها مياسر». فهل في هذا، ما يدفع إلى مجازاة ما أجمع عليه معظم الدارسين بأن الدور الاقتصادي لليهود استمر مقتصرًا على التجارة بمواد الترف والعباد عبر المسافات البعيدة.

حقيقة ركزت المصادر القديمة على إبراز هذه المسألة. فابن حوقل على سبيل المثال أورد بأن «جميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان فمن جلب إسبانيا الإسلامية ويفعل ذلك بهم تجار اليهود. وهو ما يستشف من أغلبية أمثال العامة التي تناولتهم. فهل هذا يعني، بأن تماسك اليهود الطائفي كان أقوى من أن ترعزعه التطورات الجديدة؟. على غرار بقية أهل الذمة، نعيم اليهود بحرية واسعة خلال عصر الخلافة. وليس أدل على ذلك، من إشراك خاصتهم في الحكم. فالناصر، استوزر «حسندي بن إسحاق الإسرائيلي» الذي لعب دورًا هامًا في سفاراته إلى الممالك النصرانية كما كلف «بروخ اليهودي» بعدة مهام دبلوماسية مماثلة. ومن المفيد، إثبات نص لصاعد الأندلسي، بالغ الدلالة عن التسامح الذي حظي به اليهود، إذا قال أن

«حسداي بن إسحاق خادم الحكم بن عبد الرحمن الناصر هو أول من فتح لأهل إسبانيا الإسلامية منهم باب عملهم في الفقه والتاريخ وغير ذلك، وكانوا قبله يضطرون في دينهم وسنى تاريخهم ومواقيت أعيادهم إلى يهود بغداد، فلما اتصل حسداي بالحكم نال عنده نهاية الخطوة بفضل دربه ونهاية براعته وأدبه وتوصل به إلى استحلال ما شاء من تواليف اليهود». إن من شأن هذه السياسة، أن تقلل من روابط التضامن بين اليهود على أساس طائفي، وتشجعهم على مزيد من الاندماج في الحياة الاجتماعية. ومن مظاهر ذلك، مشاركتهم في الحياة الثقافية بإسبانيا الإسلامية. فقد أورد المقرئ وغيره أسماء عديد من شعرائهم الذين تباروا مع غيرهم في النظم باللغة العربية. ومنهم من «أحكم لسان العرب، وبلغ الرتبة العليا من البلاغة والشعر» ولعل أشهرهم على الإطلاق «مروان بن جناح» اللغوي. ولعل في تحول العديد منهم إلى الإسلام ما يؤكد صحة هذا الاعتقاد. لم تنحصر الظاهرة في صفوف أهل القلم، بل شملت جماهير عريضة من مختلف الطبقات، كما يستفاد مما أورده المؤرخ الأندلسي المجهول عن «من أسلم من اليهود».

ولا غرو، فمن التلاميذ اليهود من كان يتلقى العلم، جنباً إلى جنب مع أبناء المسلمين. من الطبيعي، أن يتخلى اليهود، ولو نسبياً عن انعزالهم، ويندمجوا بالتدرج مع بقية العناصر، وليس أدل على ذلك من أن اليسانة كان لها ربض يسكنه المسلمون وبعض اليهود، ومن شأن التحول الذي طرأ على طبيعة التجارة البعيدة المدى، وتراجع الربا، والوراثة العائلية للحرف، أن تعمل على اختراق البنيات الطائفية لليهود، في اتجاه تكريس الانقسام والشعور الطبقيين لديهم. عكست المصادر القديمة هذه المسألة، بتمييزها الخاصة عن «عامة اليهود» أكد ذلك ابن سهل في حديثه عن فلاحين يهود يملكون جناباً بقرطبة، وعن «اليهودي» الذي يسقط سلع أحد الدلالين. ولا يترك المؤرخ

الأندلسي المجهول مجالا للشك في صحة هذا الاعتقاد، بقوله: «وأما من أسلم من اليهود، فاحترف خياطة الحلف والثياب، وظفر الخيضان الذي يخاط مع الثياب ونسج العقد ونسج قلنسوة وتبطينهم وصبغهم وتصفيفهم وحجامة وبلاجة ودلايين أسواق وبيع مخوض وبيع بقل وإصلاح نعل مخروز». أما الصقلية، فعلى الرغم من إسهام بعضهم في الإنتاج الأدبي والفني، استمروا طائفة مميزة داخل مجتمع إسبانيا الإسلامية. نظراً لاقتصارهم - في إطار علاقات العبودية - على تقديم الخدمات الإدارية والعسكرية والمنزلية. مما عرقل عملية اندماجهم. وهو نفس ما ينطبق على الخدم السود. عبر ابن حيان عن هذا الخليط من العناصر والأثنيات الذي تشكلت منه عامة قرطبة في وصفه لأحدهم بالقول: «كان من العامة وخمول الأصل، ونذالة الفرع، ولؤم الأطراف ودخلة الأعراق، على ثبج عظيم. نخلص إلى أن انحلال البنى الطائفية والقبلية، أفضى إلى إعادة صياغة العلاقات الاجتماعية على أساس طبقي. من ثم تماسك عامة قرطبة - رغم تعدد انتماءاتها - على نفس الأساس. مما أكسبها قدرة هامة على إدارة الصراع الاجتماعي لصالحها⁽¹⁾. كان فتح العرب لإسبانيا - كغيرها من البلدان الأجنبية - سبباً مهماً في حدوث عملية اختلاط وامتزاج كبيرة بينهم وبين سكانها من الإسبان وغيرهم، اختلاط في الأنساب والدماء، واقتباس في النظم والعادات والتقاليد، وامتزاج في العقيدة الدينية، وامتزاج في اللغة، حيث دخل كثير من هؤلاء السكان في الإسلام وتعلموا اللغة العربية، كما تعلمها كثير ممن يدخل في الإسلام لأنها غدت لغة العلم والثقافة، وسمي هؤلاء بالمستعربين Losmozarabes. وقد ساعدت عدة عوامل على حدوث هذه العملية من أهمها: التعاليم السمحة والقيم النبيلة التي جاء بها الإسلام، وأدت إلى دخول الكثيرين فيه، ثم

(1) د. أحمد الطاهري، المرجع السابق، ص 159.

الاختلاط بين العرب وبين أهل هذه البلاد في السكنى والجوار، والتعامل فيما بينهم في كثير من نواحي الحياة. وقد أدت الفتوحات التي قام بها المسلمون في إسبانيا الإسلامية إلى دخول الكثير من العبيد والإماء في ملكهم بعد أن أصبحوا أسرى لهم، وبذلك أصبح لكل جندي منهم عددًا من الرقيق يستخدمهم في قضاء حوائجه، ويستولد الإماء منهم فيصرون أمهات أولاد، ونتج عن ذلك جيل مولد له صفات مختلفة تجمع بين الجنسين، وحدثت بعد ذلك عملية اختلاط بشرية واسعة النطاق، نظرًا لأن المسلمين عندما دخلوا إسبانيا الإسلامية لم يصطحبوا معهم زوجاتهم أو عائلاتهم، وكان منهم الكثير من غير المتزوجين، ولذا فإنهم اضطروا إلى الارتباط بعلاقات المصاهرة مع أهل هذه البلاد وخاصة الإسبان، هذا بالإضافة إلى حسن معاملة الإسلام لأهل الذمة مما أدى إلى ازدياد الصلات بينهم وبين المسلمين الفاتحين.

لعل ما يروى من قصص حول زواج بعض القادة المسلمين بالإسبانيات - وإن كان يبدو في بعضها مسحة من المبالغة أو الخيال - يعطينا فكرة واضحة عن هذه الظاهرة الاجتماعية الهامة التي كان لها أثرها الكبير في نواح شتى. ويذكر أن عبد العزيز بن موسى بن نصير كان أول من تزوج من الإسبانيات، فقد تزوج من (إيخلونا) أرملة لذريق آخر ملوك القوط والتي تسميها المصادر العربية أيلة وتكنيها بأم عاصم. هناك حالات فردية شذت عن هذه القاعدة، مثل طارق بن زياد الذي ذكر أنه اصطحب معه زوجته أم حكيم وتركها في الجزيرة الخضراء فسميت بعد ذلك باسمها، وموسى بن نصير الذي اصطحب معه زوجاته وبناته. وحذا حذوه الكثير من العرب، مثل زياد بن النابغة التميمي الذي تزوج من إحدى أميرات إسبانيا، وعيسى بن مزاحم الذي تزوج من سارة القوطية بنت المند بن غيشطة في دمشق عندما ذهبت تشكو للخليفة هشام بن عبد الملك عمها أربطاش، ثم قدمت معه إلى إسبانيا

الإسلامية بعد زواجها وسكننا إشبيلية وأنجبت منه إبراهيم وإسحاق. ويعتبر عيسى هذا جد المؤرخ الأندلسي المشهور بـابن القوطية وهو (أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم ابن عيسى بن مزاحم ت 367 هـ) وقد روى ذلك في كتابه (تاريخ افتتاح الأندلس). وبعد وفاة عيسى بن مزاحم 138 هـ تزوجت سارة من عمير بن سعيد فولدت له ولداً يدعى حبيب وهو جد بني سعيد وبني حجاج وبني مسلمة وبني حجر الجزر وهم أشراف ولد عمير بإشبيلية. كما تزوج القائد البربري (مونوسة) - الذي كان حاكماً على شرطانية شمال إسبانيا اشتراك مع القائد العربي عبد الرحمن الغافقي في فتح جنوب فرنسا - من ابنة الدوق (أودو) حاكم إقليم أكيثانيا وتدعى (لامبجييه أو مينين).. كما تزوج الأمير الأموي عبد الله بن محمد والي قرطبة من الأميرة البشكنسية ونقه أو (أنيجا) المعروفة باسم در - ابنة ملك نافار (فرتون بن غرسية) المعروف بالأنقر - والذي وقع في أسر المسلمين، وظل في قرطبة نحو اثنين وعشرين عاماً - وأنجب منها ابنه محمد والد عبد الرحمن الناصر، كما تزوج الشاعر تمام بن عامر بن علقمة (ت 283 هـ) - الذي تولى الوزارة للأمير محمد ولولديه المنذر وعبد الله - من ابنة رومانوس قومن جنوب إسبانيا زمن القوط وتكنيها المصادر العربية بأم الوليد بنت خلف بن رومان النصرانية فكان من نسله الكثير من الكتاب والعلماء والقضاة ومنهم الوزير الكاتب عيسى بن قطيس وابنه عبد الرحمن بن عيسى المحدث وقاضي الجماعة بقرطبة 394 - 395 هـ. ولذا كان الناصر - كأكثر بني أمية من المولدين بإسبانيا الإسلامية - يتصف ببياض اللون وشقرة الشعر وزرقة العينين، ولذلك لقبوا في الملاحم الفرنسية بالملوك الشقر. كما تزوج الخليفة الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر من يشكنسية تدعى (أورورا) وتعرف أصبح في المصادر العربية، وهي التي ولدت له ابنه هشام المؤيد الذي تغلب

عليه المنصور بن أبي عامر، واستطاع أن يصل عن طريقها إلى السلطان والنفوذ. كما تزوج المنصور بن أبي عامر من ابنة ملك نافار (سانشو غرسية) المعروف بشانجة، وقد اعتنقت الإسلام، وتسمت باسم (عبده)، وأنجب منها المنصور ولده عبد الرحمن الذي عرف باسم شنجول في المصادر العربية. حيث أطلقت عليه والدته اسم «سانشويلو» أي سانشو الصغير تكريماً للذكرى والدها.

وتزوج مطرف بن موسى القسوي حاكم الثغر الأعلى (سرقسطة وما حولها) من الأميرة (فلشكيطة) بنت سانشو ملك نافار، كما تزوج أخوه موسى من أوروپه بنت غرسية بن ونقه ملك نافار أيضاً. وإذا كانت المصادر قد حفظت لنا هذه الأمثلة للأمرء والخلفاء والقادة، فلا شك أن الكثيرين من العامة والجنود قد فعلوا ذلك، فالتاس على دين ملوكهم كما يقولون. ومما يدل على مدى انتشار هذا الزواج المختلط وكثرته، ما ذكره المراكشي حين قال: «ملأ المنصور بن أبي عامر إسبانيا الإسلامية غنائم وسبيا من بنات الروم، وأولادهم ونسائهم. وفي أيامه تغالى الناس إسبانيا الإسلامية فرميا يجهزون به بناتهم من الشيباب والحلي وذلك لرخص أثمان بنات الروم، فكان الناس يرغبون في بناتهم بما يجهزونهن به، ولولا ذلك لم يتزوج أحد. بلغني أنه نودي على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة، وكانت ذات جمال رائع فلم تساور أكثر من عشرين ديناراً عامرية. وفي هذا المعنى أيضاً يذكر ابن عذارى: أنه عقب وفاة المنصور خرج الناس صائحين «مات الجلاب، مات الجلاب» وهي كلمة كانت تطلق على بائع الدواب أو السخاس (بائع الرقيق)، واستعملت بمعنى المدح للمنصور والترحم على أيامه لكثرة السبایا في غزواته. وقد حبيب العرب والبربر من العرب العاربة في هذا الزواج ما عرف عن الإسبانيات من جمال وبياض بشرة، وصفرة شعر ورقة عيون وهي صفات

أحبوها كثيراً لأنها كانت جديدة عليهم». وقد نتج عن طريق هذا الزواج المختلط جيل من المولدين نشأ على الإسلام، وتعلم العربية، وأصبح يؤلف على عهد بني أمية لكثرة الغالبة من السكان، ومنه تكونت جماهير الأندلسيين.

في بعض الأحيان القليلة أو النادرة كانت تحدث زيجات عكسية، حيث يتزوج بعض الملوك أو الأمراء الإسبان بزوجات لبعض المسلمين، مثل زواج ونفة بن ونفة ملك نافارا من أرملة موسى بن فوتون بن قيسي أمير الشجر الأعلى بعد وفاته، وزواج أحد حكام جليقية من جميلة أخت محمود بن الجبار المصمودي البربري الذي أعلن الثورة في ماردة سنة 213 هـ على الأمير عبد الرحمن الأوسط، واضطر بعد هزيمته إلى اللجوء إلى جليقية وبقيت أسرته هناك، وقد أنجب منها ولداً صار أسقفاً على مدينة شانت ياقب (سانت يعقوب). ونظراً لأنه لا يجوز لمسلمة أن تكون زوجة لغير مسلم فلا بد وأن أمثال هؤلاء الزوجات كن على ديانتهم النصرانية بعد زواجهن بالمسلمين، أو أنهم أجبرون على التنصر، أو تحولون إلى المسيحية. وقد اشتهر هذا الجيل المولد بصفات عدة: منها: الجمال والذكاء والشجاعة، وكان له أثره الكبير في تاريخ إسبانيا الإسلامية وحضارتها. وقد احتفظ كثير من أبناء هذا الجيل من المولدين بأسمائهم الإسبانية القديمة وعرفوا بها بعد تعريبها مثل بنو أنجلين ومنهم محمد بن عمر بن خطاب بن أنجلين أحد زعماء المولدين بإشبيلية في عهد الأمير عبد الله وبنو شبرقة ومنهم علي بن حسن المعروف بابن شبرقة (ت حوالي 300 هـ) وكان من أهل بطليوس وبني بها مسجداً على نفقته. وبنو يليان (جوليان) حاكم سبتة أيام الفتح، ومنهم أبو عمر أحمد بن سليمان بن أيوب بن سليمان بن حكم بن عبد الله بن اليكايش بن أليان القوطي (ت 388 هـ) وكان من مشاهير علماء قرطبة، وكذلك بنو الجريج (جورج) وبنو

لنتق، وبنو القبطرنة (كابتورنو) أي الرأس المستدير، وبنو مردنيش (مارتنيز)، وبنو غرسية ملوك البشتكس الذين ينسب إليهم ابن غرسية الشعوبي الأندلسي المشهور، وبنو ردلف (رودلف)، وبنو موسى بن فرتون القسوي أصحاب تطيلة والثغر الأعلى (سرقسطة) في عهد أمية، وكان جدهم فرتون قومس الثغر في عهد القوط. وهناك الكثير من المولدين عن يتسبون إلى أسر شهيرة ذات أصول إسبانية نذكر منهم: أبا الفتح نصر بن أبي الشمول (ت 237 هـ) الذي تنسب إليه منية نصر وكان أبوه من نصارى قرمونة. وأيوب بن عبد ربه السرقسطي الأصل وكان من المسألة المولدين تولى قضاء إشبيلية، وعبد السلام بن بسيل الرومي وكان أحد مشاوري ووزراء عبد الرحمن الداخل. والعلامة الحافظ بقي بن مخلد (ت 276 خ) الذي يرجع إلى أصل إسباني كذلك. والاقشنتين محمد بن عاصم (ت 307 هـ) وهو أول من ألف في طبقات الكتاب إسبانيا الإسلامية، والفقهاء أبو محمد الأصيلي (ت 392 هـ)، وكان جده من مسألة أهل الذمة وعمل أبوه وراثاً للحكم المستنصر، وأصله من شذونة أو من الجزيرة الخضراء. وكذلك أحمد بن عبد الله القرطبي، وهو ابن أخى قومس كاتب الأمير محمد وقومس هو ابن انتيان بن يليانة النصرانية، أسلم بعد 246 هـ واشتهر بكثرة العبادة حتى سمي بالسجاد العباد حمامة المسجد (مسجد قرطبة الجامع). وكان له ابن يسمى عمر ابن قومس الكتاب ت 298 هـ. وكذلك محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة (ت 330 هـ) المعروف بالبرجون وهو من أسرة قرطبية شهيرة ظهر منها العديد من العلماء الأعلام كمحمد هذا وأخيه أحمد وعمر، وأبو المطرف بن فورث (386) الذي تولى قضاء سرقسطة وكان منها، أبو وهب متسيل بن عفيف (ت 317 هـ)، وكان من أهل وشقة، وأبو عمر بن قرلمان القرطبي (377 هـ). وغير هؤلاء كثيرون من حفلت بهم كتب التراجم في إسبانيا الإسلامية. وحسبنا أن نتصفح هذه

الكتب لتجد العديد من أسماء الأمراء والقادة والفقهاء والكتاب التي تدل على أصل إسباني.

كان من شأن كثرة أبناء هذا الجيل المولد انتشار اللغة الرومانية (اللاتينية الحديثة) بين الأندلسيين وسميها المؤرخون العرب العجمية أو اللطينية. وعن طريقهم تداخلت العربية والرومانشية تداخلا كان من مظاهره نشأة فن الموشحات. ومع أن هؤلاء المولدين كانوا يدينون بالإسلام، ويتحدثون العربية، ويتخذون غالبًا نمط الحياة التي يتخذها المسلمون الوافدون على إسبانيا الإسلامية، فإنهم لم يفقدوا شخصيتهم تمامًا باعتبارهم منحدرين من أصول إسبانية في الأصل ولم يتناسوا ثقافتهم الوطنية، ولذلك فقد تعصب كثير منهم لأصلهم الإسباني رغم إسلامهم، وتحالفوا مع إخوانهم من النصارى ضد العرب، واستغلوا فترات ضعف الدولة الأموية وبخاصة أيام الأمير عبد الله، وثار بعضهم في عدة أماكن من إسبانيا الإسلامية مثل ثورة عمر بن حفصون في بيشتر، وثورة عبد الرحمن بن مروان المعروف بابن الجليقي في ماردة وبطليوس الذي «كانت دعوته عصبية للمولدين على العرب» وثورة يحيى بن بكر بن ردف (رودلف) في شنت مرية بأشكونية. وقد تألفت منهم جماعات كبيرة في مدن الأندلس الهامة مثل طليطلة التي كانت من أهم مراكز تجمعهم - لأنها كانت عاصمة إسبانيا القديمة - إلى جانب النصارى ولذلك شهدت هذه المدينة الكثير من ثورات ومحاولات الانفصال عن سلطان الدولة الأموية في قرطبة. ومن أخطر هذه الثورات تلك الثورة التي قامت فيها في عهد الحكم الرضي 189 هـ وكان يتولى أمرها أمراء مولدين مثل عمروس الوشقي بن طريشة. وكذلك كانت إشبيلية معقلًا هامًا من معقلهم، وكان المولدون فيها يعملون غالبًا بالتجارة فجنوا أرباحًا طائلة، وكان كثير منهم من الأثرياء الذين أنفوا من العصبية العربية فتعصبوا ضد العرب في جنسهم⁽¹⁾.

(1) حسين يوسف، المرجع السابق، ص 78.

انتشار اللغة العربية بين الإسبان،

وإذا كان هناك امتزاج جسمي عن طريق الزواج المختلط فقد وجد هناك لقاح بين اللغات والثقافات في الأندلس وتأثير متبادل بينها، واحتكاك ثقافي أدى إلى ظهور حضارة إسبانيا الإسلامية بخصائصها المتميزة. فقد انتشر الإسلام بين الكثيرين من سكان شبه الجزيرة الأيبيرية الذين سموا (بالمسالمة)، وكانوا أغلبية بالنسبة لغير المسلمين من الإسمان الذين عاشوا بجوار المسلمين، وأخذوا بالكثير من العادات والأساليب الإسلامية، وتعلموا اللغة العربية وسموا (بالمستعربين)، فقد لبسوا الملابس العربية واستعملوا الختان، وامتنعوا عن أكل لحم الخنزير، واتخذ الكثير منهم أسماء عربية إلى جانب أسمائهم الإسبانية. كما أتقن الكثيرون منهم اللغة العربية. وليس أدل على ذلك من تلك الصبغة التي أطلقها القسيس الفارو القرطبي 240 هـ/ 854 م حيث كتب رسالة سماها (الدليل النير) يتتقد فيها بمرارة ذلك الاتجاه من الإسبان في الإقبال على دراسة اللغة العربية وآدابها والمذاهب الدينية للمسلمين وفيها يقول: «إن إخواني في المدن يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وقصصهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين لا ليردوا عليها وينقدوها، وإنما يكتسبوا من ذلك أسلوباً عربياً جميلاً صحيحاً. وأين تجد الآن واحداً من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة؟ ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحوليين وآثار الأنبياء والرسل؟ يا للحسرة من الموهوبين من شبان النصراني لا يعرفون اليوم إلا اللغة العربية وآدابها إلخ! ويقول (دوري): هجر أهل إسبانيا اللاتينية، واشتغلوا باللغة العربية وآدابها وكانوا لا يكتبون بغيرها، حتى أن أحد العلماء المشهورين منهم شكاً من ذلك (يقصد الفارو القرطبي).

يقول نيكلسون: في أوائل القرن التاسع كانت اللغة العربية هي لغة الوثائق الرسمية، وفي هذا الوقت ترجم قسيس من أهل إشبيلية التوراة إلى اللغة العربية لتلاميذه فغضب منه ميل له واتهمه بالعمل على نشر العربية، وقد كان هذا القسيس من النصارى المتعصين الذين أسهموا في إثارة الفتنة المسيحية ضد الإسلام في خلافة عبد الرحمن الأوسط والتي سميت بحركة الاستشهاد أو الانتحار. ودافع القسيس عن نفسه بأن هذه هي الوسيلة الوحيدة لتعليم التلاميذ، وقد دامت هذه الحال زمناً طويلاً في قرطبة وطليلة حتى بعد أن استولى ألفونسو السادس عليها 1065 م. ويقول توماس أرنولد: إن اللغة اللاتينية بلغت في بعض أجزاء إسبانيا درجة كبيرة من الانحطاط حتى لقد أصبح من الضروري أن تترجم قوانين الكنيسة الإسبانية القديمة والإنجيل إلى اللغة العربية ليسهل استعمالها على المسيحيين، وأقبل الناس على دراسة الآداب العربية التي ازدهرت في ذلك العصر في حماسة وشغف. وهكذا زحزحت اللغة العربية اللاتينية عن عرشها الأول كما زحزح الإسلام المسيحية وصارت اللغة العربية هي اللغة الرسمية ولغة العلم والثقافة كما صار الإسلام هو الدين الرسمي كذلك. وإذا كان للإسلام أثر كبير في انتشار اللغة العربية لأنها لغة القرآن الكريم، فقد كان لظاهرة التزاوج بين المسلمين والإسبان دور في ذلك أيضاً. وإلى جانب اللغة العربية الفصحى كانت هناك لغة عامية تستخدم في الحياة اليومية بعيداً عن العلم والأدب: فقد ذكر ابن بسام في حديثه عن الموشحات أن مقدم بن معافى القبري (أواخر القرن الثالث) الذي يقال أنه اخترعها «كان يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة».

كما ذكر ابن سعيد المغربي (القرن السابع الهجري) أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع

العربية. حتى لو أن شخصاً من العرب سمع كلام الشلوين المشار إليه بعلم النحو وهو يقرئ تلاميذه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذي في لسانه. وهذا دليل على أن الأندلسيين حتى العلماء منهم كانوا يتحدثون بالعامية المنحرفة عن العربية الفصحى. وكما كانت الفصحى لإسبانيا الإسلامية بمرور الزمن وبحكم البيئة وباحتكاك العناصر المختلفة ذات خصائص محلية ميزتها عن فصحى بلاد المشرق العربي، فكذلك كانت العامية في إسبانيا الإسلامية ذات سمات محلية حتى غدت عسيرة الفهم على الكثيرين.

انتشار الإسبانية بين مسلمي الأندلس:

وقد كان من الطبيعي نتيجة هذا الاختلاط الكبير بين العرب والإسبان أن يتأثر جيل المولدين بأمااتهم الإسبانيات في لغتهم وعاداتهم وطرائق معيشتهم، وإذا كانت اللغة العربية قد انتشرت بين الإسبان مسلمين وغير مسلمين فإن اللغة الإسبانية العامية بصفة خاصة قد أخذت تنتشر بين المسلمين أيضاً وهي التي يسميها العلماء «الرومانشية» (Romance) وهي لهجة لاتينية كان يستخدمها الرومان فنسبت إليهم، ويسمونها العرب الأعجمية أو اللطينية. وما يدل على انتشار هذه اللغة على نطاق واسع ما ذكره ابن حزم عند حديثه بني بلن بالأندلس. حيث قال وكأنه يتعجب «وهم لا يحسنون الكلام باللطينية لكن بالعربية فقط رجالهم ونساؤهم». وهذا دليل على محافظتهم على لغتهم العربية وعاداتهم العربية. كما يذكر الخشني: أن أحد القضاة شكاه بعض العامة إلى الأمير عبد الرحمن الثاني (الأوسط) فطلب الشهود عليه وكان هناك شيخ أعجمي اللسان يسمى (ينير) مقدماً مقبول الشهادة فستل عن القاضي فقال بالأعجمية: ما أعرفه إلا أن سمعت الناس يقولون: إنه إنسان سوء (باللفظ الأعجمي) فلما سمع قوله الأمير عجب من لفظه وقال: ما

أخرج مثل هذه الكلمة من هذا الرجل إلا الصدق وعزل القاضي عن القضاء .
ومن مظاهر تأثير اللغة الإسبانية على الأسماء العربية في الأندلس إضافة
المقطع الآخر المكون من الواو والنون بالإسبانية On للأسماء للدلالة على
التفخيم والتعظيم مثل حفص وحفصون، وخالد وخلدون . . إلخ . ويذكر
المقدسي : أنه التقى في موسم الحج ببعض الأندلسيين فوجدوهم يتكلمون لغة
عربية عسيرة الفهم ولغة أخرى أعجمية . ويروي ابن هشام اللخمي : أنه نبت
سن لأحد أبناء الأمير عبد الرحمن ابن الحكم فوصفوا له طعاماً يتناوله
الأطفال عند ذلك فقال لوزرائه : هذا الذي يسميه الناس بالأعجمية (الذنينية)
هل روى عن العرب فيها شيء؟ ويذكر ابن عذارى أن الوزير الشاعر أبا
القاسم لب هجا الوزير عبد الملك بن جهور بأييات أمام الخليفة عبد الرحمن
الناصر . وكان أبو القاسم عندما وصل إلى قوله شو سكت فقال له الناصر
قول فأتىها على نحو ما أضمر وقال له : أنت هجوته يا مولاي - كأنه كان
يقصد ذلك - فضحك الناصر وأمر له بصلة . وهذا يدل على انتشار هذه
اللغة العامية الإسبانية (الرومانسية) بين الكثيرين سواء من عليّة القوم أو
العامّة . وفي الشعر الأندلسي كثيراً ما نجد ألفاظاً إسبانية وما يقابلها بالعربية
إما بطريق مباشر أو بطريق الاستعارة والكناية بصورة تدل على تمكن الشاعر
من اللغة الإسبانية مثال ذلك قول ابن دراج القسطلبي في مدح عبد الملك بن
المظفر بن المنصور بن أبي عامر حينما افتتح حصن قونة في شمال إسبانيا
ومعناه البدر .

وحين يتحدث عن أحد قادة الإسبان واسمه لوبث (لوبيز) ومعناه الذئب
يقول :

كم من سمى له فيها وذي نسب لم يدخر نابه عنه ولا ظفـره

تعتبر الموشحات والأزجال من أهم مظاهر انتشار اللغتين العربية الإسبانية بين الأندلسيين، وهي ما يسمى بالشعر الشعبي. وقد استخدمت فيه الفاظ عامية عربية وأخرى رومانسية، ويعتبر هذا الفن من الشعر ثورة في عالم الشعر العربي، وحركة من حركات التجديد فيه حررته من كثير من قواعد العروض. حيث لم يلتزم فيه القافية واحدة كالقصيدة، وإنما اشتمل على قواف متعددة ليس وحدته البيت الشعري، وإنما المقطوعة الشعرية التي تتكون من غصن وقفل. أي أن الموشحة عبارة عن أغصان وأقفال ويسمى القفل الأخير منها بالخرجة. ومن شروط هذه الخرجة أن تكون بالعامية الدارجة أو بالأعجمية أي الإسبانية وأن تكون حارة محرقة، حادة منفجة كما قال ابن سناء الملك المصري. كما جرت العادة على أن تكون هذه الخرجة على لسان فتاة تتغزل في الفتى على عكس القصيدة العربية التي لجأ الرجل فيها هو المحب وهو الذي يتغزل. كما أن الموشحة تبدأ من آخرها حيث تؤخذ العبارة العامية أو الإسبانية لتكون المركز أو الخرجة ثم تبني عليها البقية. على عكس القصيدة الشعرية التي تهتم بمطلعها ومثال ذلك الغصن الأخير من الموشحة بما فيه الخرجة.

النزاع بين عناصر السكان؛

لم يكن مجتمع إسبانيا الإسلامية بعد الفتح مجتمعاً بسيط التركيب، وإنما كان يتألف من عدة عناصر متباينة في أصولها الجنسية والثقافية كما ذكرنا. وكان هذا التباين وهذا التعدد في وقت من الأوقات مظهرًا من مظاهر القوة والثراء، ولكنه كان يحمل في نفس الوقت بذور الضعف وأسباب التفكك والاضمحلال. وربما كان تعدد الجماعات العرقية وتنوع العناصر البشرية في مجتمع إسبانيا الإسلامية هو العامل الأول والأكثر أهمية في ثراء

ذلك المجتمع وازدهار حضارته، والركيزة التي قام عليها في الوقت نفسه. ويتمثل هذا التنوع العرقي في وجود الجماعات العربية والبربرية من العرب العاربة التي لاحت إسبانيا الإسلامية، وعاشت إلى جانب العناصر الوطنية أو الجماعات التي كانت تستوطن البلاد قبل الفتح. ورغم وحدة الدين والعقيدة لدى العرب البربر فقد كان لكل من الفتين ثقافته الخاصة المتميزة في أصولها وعناصرها. وقد اختلط هؤلاء الفاتحون من عرب وبربر من العرب العاربة بالسكان الأصليين الذين كانوا يعيشون في إسبانيا الإسلامية قبل الفتح من قوط وإسبان ورومان ويهود وغيرهم. وبالرغم من ذلك فلم يكن هناك اندماج تام وامتزاج كامل بين العناصر التي وفدت إلى إسبانيا الإسلامية. فالعصية العربية التي كانت ظاهرة في المشرق ما لبثت أن انتقلت إلى إسبانيا الإسلامية وعملت عملها في تفتيت وحدة العرب، وتفريقهم إلى شيع وأحزاب. ما بين مضربين ويمنيين يتنازعون على الملك والرياسة، وما بين بلديين وشاميين يتنازعون على خيرات البلاد ومن هو أحق بها.

وكذلك لم يكن البربر من العرب العاربة وحدة واحدة فيما بينهم، ووقع نزاع شديد بينهم وبين العرب وكذلك كان الأمر بالنسبة للعناصر الأخرى فلكل منها طابع وأهداف واتجاهات. ويمكن القول: إن الفتن والاضطرابات والحروب بين هذه العناصر بعضها البعض بدأ مبكراً واستمر استمراراً يكاد يكون متصلاً، ولم تكن تهدأ إلا تحت ضغط القوة، وما تكاد تهدأ حتى تبدأ من جديد عندما تضعف هذه القوة. بحيث يمكن القول: إن هذه الفتن والاضطرابات والحروب قد صاحبت تاريخ المسلمين في إسبانيا الإسلامية من بدايته إلى نهايته إلا في عهود بسيطة شهدت فترات من الاستقرار طالت أو قصرت فأدى ذلك إلى ازدهار الحضارة والثقافة والعمران. ولقد تميزت إسبانيا الإسلامية من بين الأقطار التي فتحها المسلمون بعوامل

خاصة كانت مثار الاضطرابات والفتن والقلاقل من حين لآخر . وقد ظلت هذه العوامل تثور حيناً فتسبب التفكك والانحلال ، وتكبح حيناً فتعود إسبانيا الإسلامية إلى وحدتها وقوتها ، ولكنها اشتدت وتجمعت في النهاية لتؤدي إلى غروب شمس الإسلام من إسبانيا الإسلامية . ويمكن أن نلخص هذه العوامل فيما يلي :

1 - عامل جغرافي : يتمثل في بعد إسبانيا الإسلامية عن بلاد المسلمين الشرق مما جعلها تحمل وحدها عبء الدفاع عن كيائها إلا ما كان داخل شمال إفريقيا عند الاستتجاد بها في مرحلة الخطر . ولذلك كان على عمر بن عبد العزيز أن يعود المسلمون منها لانتقطاعهم من وراء عن إخوانهم . فالعامل الجغرافي كان بعيد الأثر في غربه الإسلام الجزيرة الأندلسية . 2 - عامل قومي : فالمسلمون في إسبانيا الإسلامية كانوا بإزاء أمة مقاتلة من أكثر شعوب أوروبا تعصباً للمسيحية وهم الإسبان الذين سيطر عليهم هدف واحد هو إخراج المسلمين من إسبانيا الإسلامية بأي وسيلة والشار منهم . 3 - عامل ديني : وهو خشية الأوروبيين من الزحف الإسلامي لا يسيطر على بقية أوروبا فوقفوا يؤيدون الإسبان بكل قوة للدفاع للمسيحية من ناحية وحراسة أوروبا من المسلمين الغزاة من ناحية أخرى ، كما فعلوا بعد ذلك مع الأتراك العثمانيين . 4 - الخلاف والصراع والتنافس بين عناصر المسلمين في إسبانيا الإسلامية وبين العرب وبعضهم وبين العرب والبربر العرب العاربة . 5 - كثرة الفتن والثورات منذ بداية الفتح والتي أشاعت الفوضى في البلاد وراح ضحيتها الكثيرون ، وقادها زعماء كثيرون من مختلف البشر . ومثال ذلك أن أسرة بربرية واحدة هي أسرة فرتون بن موسى وحدها ثمانية في مدينة واحدة هي سرقسطة . 6 - الخلاف على ولاية العهد بين أبناء الأمراء والخلفاء والذي بدأ مبكراً منذ وفاة عبد الرحمن الداخل واستمر ينخر في جسم الدولة

الإسلامية حتى عهدها الأخير. 7 - استعانة المسلمين المتحاربين في إسبانيا الإسلامية بأعدائهم من المسيحيين الإسبان والأوروبيين لقتال إخوانهم، مما جعلهم يفتنون بعضهم بعضاً وعدوهم ينتهز القرض للإجهاز عليهم. وقد أصاب ابن الشباط حين قال: إن المسلمين بالأندلس لم يقصدهم عدو إلا هزم وانصرف مغلوباً وإنما خذلهم التحاسد وفرط الخلاف والتباغض وقلة الإنصاف. وكذلك الحجاري حين ذكر أن شارل مارتل لما شكى إليه قومه وقوف العرب على أبواب بلادهم قال: «لا تواجهوهم في إقبال أمرهم فإن لهم إرادة قوية ونية صادقة وحصانة ضد الهزائم فلتصبروا حتى تهدأ أمورهم، ويأخذوا في التنافس على الرياسة والملك والمال، وعند ذلك تتفق كلمتهم ويضعف أمرهم فتمكنون منهم بأيسر مجهود، ويُعقَّب المقرري على ذلك فيقول: فكان والله ذلك. 8 - يضاف إلى ذلك أن هذه العناصر السكانية في إسبانيا الإسلامية كانت تميل غالباً إلى العيش والتكتل في مناطق خاصة بها، فمثلاً كان العنصر العربي الغالب على قرطبة، والعنصر البربري من العرب العاربة الغالب على غرناطة ومالقة وقرمونة، وعنصر المولدين الغالب على طليطلة وإشبيلية وكان لهذا أثره البالغ في الميل إلى الاستقلال والخروج مما كان يستلزم استعمال القوة العسكرية كوسيلة للحفاظ على الوحدة السياسية للبلاد.

ويرى د. حسين مؤنس: أن مسيحي إسبانيا كانت تعورهم روح الترابط والوحدة بسبب تفرقهم في شبه الجزيرة، وأن هذا قد أدى إلى تمزق البلاد بسهولة. والحقيقة أن تفرق السكان لا دخل له بالوحدة السياسية لأنها تتوقف على قوة الحكومة المركزية أو ضعفها وكل ما في الأمر أن طبيعة البلاد الجغرافية (الجبلية) قد جعلت هناك حواجز طبيعية من الصعب اجتيازها مما قسم إسبانيا الإسلامية إلى أقاليم شبه منفصلة، وساعد على الميل إلى النزعة

الانفصالية في كثير من الأقاليم التي كانت تسكنها عناصر غير عربية تغذيها عوامل قومية في كثير من الأحيان. وأمام هذا الخليط العجيب من الأجناس تكتلت العناصر العربية وألفت نوعاً من العصاةي وظهرت آثار ذلك في صراع العرب مع عرب العارة البربر من جهة ومع المولدين من جهة أخرى. لم يمض وقت طويل على استقرار المسلمين في إسبانيا الإسلامية بعد فتحها، حتى ظهرت آثار العصبية القبلية التي أدت إلى النزاع بين القبائل العربية من قيسية ويمنية. وقد لعبت سياسة بعض الولاة في إسبانيا الإسلامية دوراً كبيراً في إذكاء نيران هذه العصبية عن طريق ميلهم إلى فريق دون آخر وتقديمه عليه. فكان إذا ما تولى شخص من القيسية قدم قومه وأثرهم على اليمنية مما يؤدي إلى إثارة النزاع والقتال والفتن وعلى سبيل المثال: فقد تعصب كل من عنبسة بن سحيم الكلبي، وعذرة بن عبد الله الفهري، ويحيى بن سلامة العاملي خلال مدة ولايتهم التي استمرت سبع سنوات (شوال 103 هـ - ربيع الأول 110 هـ) اليمنية مما أوغر صدر الحجازية، وامتلات نفوسهم المأ وأصبحوا ينتظرون الفرصة المواتية، ولما تولى أمر إسبانيا الإسلامية ولاة منهم مثل: حذيفة بن الأحوص القيسي وعثمان بن أبي نسعة الخثعمي، والهيثم بن عبيد الله الكنانتي⁽¹⁾. كانت موقعة مرج راهط سنة 64 هـ بين جيوش الأمويين بقيادة مروان ابن الحكم وجيوش عبد الله بن الزبير بقيادة الضحاك بن قيس الفهري من أهم أسباب اشتداد العصبية بين اليمنية أنصار الأمويين وبين أنصار ابن الزبير، حيث دارت الدائرة على جيش ابن الزبير وقتل قائده ومعه نحو سبعمائة ألفاً من قيس وقبائلها، مما أوغر صدور الحجازية، فكانوا ينتظرون الفرصة لتسوية حسابهم القديم مع اليمنية.

(1) حسين يوسف - نفس المرجع السابق ص 91.

الحروب وتأثيرها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية:

من الثابت أن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية تتأثر تأثيراً بالغاً بحالة الأمن والاستقرار في مجتمع إسبانيا الإسلامية، تعرضت خلال فترة الانتقال من حكم الطوائف إلى حكم دولة المرابطين لحالة من الاضطراب واختلال الأمن وانعدام الطمأنينة، حيث كثرت - في تلك الفترة المذكورة - حالات الغصب، والإكراه، ومصادرة الأموال، وإنهاك الرعية بالضرائب والمغارم. فتذكر لإحدى النوازل التي تؤرخ بعام 492 هـ / 1098 - 1099 م أن أحد الثوار في أواخر عصر دويلات الطوائف، ويدعى سعيد بن زيفل، ثار بحصن شقورة واستولى عليه وعلى جميع جهاته عدة أعوام، وخلال ذلك اصطنع كل مظاهر العسف والظلم مع الرعية، وأنهك كاهلهم بالمكوس والضرائب الباهظة، واستولى على غلات تلك المنطقة أعواماً، كما اغتصب أموال بيت مال المسلمين وأملاكه بها، وأثرى من وراء ذلك ثراءً فاحشاً، فاشترى الضياع الواسعة والعقارات والرياح بجيبان وغيرها، وانعكس هذا الوضع السيئ على مستوى معيشة الأفراد في تلك المنطقة وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية بصفة عامة. كذلك هناك ما يدل على اتجاه بعض ملوك الطوائف إلى الاستيلاء على أموال الناس بالباطل ومصادرة ممتلكاتهم، مستغلين في ذلك سطوتهم وجبروتهم، وعدم وجود من يردعهم من القضاة والعلماء وأهل الفتوى الذين لا يخشون في الحق لومة لائم، ومن أمثلة ذلك قيام المعتضد بن عباد - صاحب إشبيلية - بغصب مجشر (ضبيعة) لابن زهر، ونجم عن ذلك مشكلة فقهية فيما بعد، وذلك أن رجلاً يدعى ابن عاصم اشترى المجشر المذكور من ابن عباد، وبعد عدة أعوام قام ابن موسى وكيل ابن زهر، بالمطالبة بالمجشر الذي كان لسلف موكله ابن زهر، وأنه من جملة ما غصبه ابن عباد، وعندما عرضت القضية على أهل الفتوى والقضاة بإشبيلية حكموا بإعادة المجشر

المذكور إلى ورثة ابن زهر. ومن جهة أخرى كان للغارات النصرانية، والحروب بين المسلمين والنصارى الإسبان انعكاسات على الأوضاع الاقتصادية في مدن وقرى إسبانيا الإسلامية، فلا شك أن تلك الغارات النصرانية على الثغور والحصون المتاخمة لحدود الممالك الإسبانية المسيحية كانت تؤثر على النشاط التجاري وحركة البيع والشراء وحرية الانتقال من موضع إلى آخر، وغير ذلك من مظاهر الحياة الاقتصادية. فتذكر إحدى النوازل أن متقبلي الفنادق والأرحاء والخوانيت وما شابههم تعرضوا للكثير من الأضرار الاقتصادية والمالية نتيجة للحروب والفتن وانعدام الأمن، لأن تلك الحالة أدت إلى انعدام الإقبال على سكنى الفنادق وقلة العملاء الذين يأتون بالحبوب لطحنها في الأرحاء، مما دفع المتقبلين إلى مطالبة مُلأكَ الفنادق والأرحاء باعتبار ذلك حائجة يجب بسببها تخفيض قيمة الكراء عنهم. وتضيف نازلة أخرى أن نصارى طليطلة كانوا يشنون غارات على أحواز قرطبة وقراها ويعيشون في تلك المناطق نهبًا وسلبيًا، غير أن هذا لم يمنع تجار طليطلة النصارى من الوفود على قرطبة في أوقات الصلح أو الهدنة من أجل التبادل التجاري، وقد حدث أن قام أهالي قرطبة بأسر بعض التجار النصارى وأخذ أموالهم رهينة حين رد ما نهبه إخوانهم المغيرون من أموال مسلمي قرطبة، وما أسروه من أهلها. كذلك كان لسقوط بعض مدن وثغور إسبانيا الإسلامية في أيدي النصارى الإسبان تأثير على العلاقة بين الممالك (أو صاحب العمل) والأجير، فتذكر إحدى النوازل أن رجلا من أثرياء مجريط (مدريد Madrid حاليًا) استأجر آخر مقابل كمية محددة من القمح، ثم اضطر للخروج منها إثر سقوطها في أيدي النصارى، واجتمعًا بقرطبة، حيث طلب الأجير حقه من القمح، ولكن صاحب العمل رفض إعطائه القمح بقرطبة بحجة أن ثمنه بها مضاعف، وأصر على أن يعطيه قيمة ما كان يساويه بمجريط آن ذاك. وقد

تأثرت الحياة الاجتماعية والدينية في المجتمع أيضاً بالفتن والحروب، فنستنتج من إحدى النوازل أن الخطر الإسباني المسيحي كان له تأثيره على اختيار المسجد الجامع لأهل القرى المتجاورة الواقعة على مقربة من حدود الممالك الإسبانية المسيحية، فالحروب قد تضطر أهالي القرى إلى اختيار مسجد الحصن ليكون جامعاً لهم تقام فيه صلاة الجمعة حين زوال الأخطار. كذلك كان للحروب الداخلية في إسبانيا الإسلامية والتي اندلعت عند قيام المرابطين بخلع بعض ملوك الطوائف تأثيراتها على الأوضاع الاجتماعية، حيث يتضح من إحدى القضايا الفقهية أن بعض الجوارى - بمدينة إشبيلية سقطن في أيدي الجند المرابطين بطريق الغصب، إثر دخول قوات المرابطين المدينة وخلع المعتمد بن عباد في 484 هـ / 1091 م، مما نتج عنه نوازل فقهية، فقد طالب أسيادهن بهن، وأثبتوا أحقيتهم فيهن، واضطر المرابطون إلى إعادتهن إليهم. ومن الثابت أيضاً أن اندلاع الفتن والثورات الداخلية، واضطراب حالة الأمن في المجتمع، خصوصاً في أوقات ضعف سلطة الدولة، يؤدي غالباً - إلى انتشار حوادث السرقة والنهب والقتل والمشاجرات الدامية، وتشير النوازل إلى حوادث عديدة تسمى «بالتمدية»، وقعت بجيان ومريبط وإشبيلية وقرطبة، ونجم عنها سقوط قتلى وجرحى، ومطالبة أوليائهم بالقصاص من القتلة، ويلاحظ أن أغلب تلك الحوادث سببها محاولة السطو وسرقة أموال من اشتهر بالثراء في تلك المدن⁽¹⁾.

تجدر الإشارة هنا إلى أنه في حالة ثبوت اتهام بالقتل على متهم ما، وعجزه عن الدفاع فإنه يجب بعد ذلك أن يقوم والد القتيل وأخوه بالقسم

(1) كمال السيد أبو مصطفى، صور من المجتمع الأندلسي، المجلة التاريخية العربية، المجلد 27، عام 1990.

خمسین یمیناً بأن المدعی علیه (القاتل) هو الذي قتله، حيث يقول الأب في یمینه وهو مستقبل القبلة إثر صلاة العصر من يوم الجمعة على ما مضى علیه عمل القضاة: «بالله الذي لا إله إلا هو، عالم الغیب والشهادة، لقد قتل هذا - ويشير إلى القاتل - ابني فلاناً بالجرح الذي أصابه به ومات منه على سبیل العمد بغير حق، وكذلك یقسم الأخ، فإذا استكملا خمسین یمیناً على هذه الصفة فإنهما یقومان بالإجهاز على القاتل بالسيف على ما أحكمه الشرع من القصاص في القتل.

البناء الطبقي،

أفصحت الخلافة الأموية منذ قيامها، عن مشروعها الهادف إلى استئصال جذور الخلاف والصراع «كما يكون الناس أمة واحدة، سامعة، ساكنة» وقد نجحت فعلاً، كما اتضح ذلك سلفاً، في محور التناقضات ذات الصبغة العرقية والطائفية. مما دفع بالبعض إلى الحديث عن تجانس المجتمع الأندلسي وانتصار «الشعور القومي» وسيادة «روح الإخاء» والتضامن الوطني على الرغم مما لهذه الملاحظات من أهمية في التأكيد على عمق التغيير، فإنها تخفي حقيقة الوضع الاجتماعي الجديد، وطبيعة تناقضاته. فانهلال البنى الاجتماعية التقليدية، لم یفضِ إلى الركود، كما يستفاد من النص السابق. بل ساهم في تحرير الصراع الطبقي من معظم القيود التي كبته خلال العصر السابق. من ثم أهمية الكشف عن أطراف هذا الصراع. من الطبيعي أن يسفر ازدهار التجارة والحرف، وتغير الهياكل العقارية، عن بلورة منظومة اجتماعية جديدة. ولعله من المفيد، للكشف عنها إثبات تصنيف نظري لإخوان الصفا يتناول الطبقات الاجتماعية في العالم الإسلامي، إذ قالوا: «الناس أصناف وطبقات ... منهم أرباب الصنائع والحرف والأعمال، ومنهم أرباب التجارات والمعاملات والأموال، ومنهم أرباب البناءات والعمارات والأملاك،

ومنهم الملوك والسلاطين والأجناد وأرباب السياسات، ومنهم المتصرفون والخدامون والمتعيشون يومًا بيوم، ومنهم الزمنى والعطل وأهل البطالة والفراغ، ومنهم أهل العلم والدين». ولعل في اعتماد هذا التصنيف على مقياس اقتصادي، ما أكسبه - على الرغم من شموليته - الوضوح والأهمية التي نفتقدها عند غيرهم. وبالنسبة لإسبانيا الإسلامية، حدد ابن الخطيب بتفصيل وضعية التركيبة الطبقة خلال خلافة هشام المؤيد، بما يساعد على التأصيل التاريخي لخريطة إخوان الصفا، اعتمادًا على ما توصلنا إليه من نتائج يصدد رصد الوضعية الاقتصادية. ففي قمة الهرم الاجتماعي: الطبقة الأرستقراطية، وتضم حسب ابن الخطيب «صنائع الحكم وخدامه وعماله وفتيانه ورجاله». وقد لاحظنا سلفًا، بأن قيام حكم مركزي، كان على حساب الشرائح الإقطاعية، البيروقراطية والعسكرية، اللتين تم تقزيمهما. وقد وصف ابن الخطيب ما آلت إليه وضعيتهما بالقول: «وهذا الصنف المنارع المنافس، بين أن يصمت فيموت بدائه، أو يجهر بالمنازعة فينتهي إلى قدرة الله وقضائه». مما فسح المجال لتبرجز الطبقة الأرستقراطية، التي راکمت الأموال الضخمة من الضرائب والمكوس والعشور، استثمارتها في اقتناء «الضبايع المغلة» وإقامة دور للتصنيع، واحتكار التجارة ببعض السلع، إضافة للأشراف على مشاريع البناء والتجهيز. ومن الملاحظ أن النصف الأخير من عصر الخلافة، شهد انتعاشًا تدريجيًا للشرائح الإقطاعية، تمثل في استقدام القبائل العسكرية البربرية وإقطاعها الأراضي مقابل خدماتها. وغني عن القول أن الازدهار الاقتصادي، ووفرة الأمن، واتساع شبكة المواصلات، أفضى إلى تزايد أهمية التجار، الذين شكلوا طبقة وسطى في المجتمع. وقد عرفوا في المصادر القديمة باسم وجوه الأرباض والأسواق أو «بياض أهل السوق» وفي وصف للجاحظ ما يكشف عن وضعيتهم، إذ قال: إنهم أروع الناس أبدًا وأهناهم عيشًا

وآمنهم سرّباً . . . يرغب إليهم أهل الحاجات وينزع إليهم أهل البياعات، لا تلحقهم الذلة في مكاسبهم. وقد اتسعت قاعدة هذه الطبقة، بانضمام بعض أرباب المهن، ممن استطاعوا تطوير وحداتهم الإنتاجية، خصوصاً النسيجية منها. إضافة لعدد من أهل القلم الذين «استندت على جهودهم تقنيات النهضة الزراعية والصناعية والتجارية وأولئك الذين شغلوا المناصب في الجهاز الإداري الجديد. وقد كشف ابن الخطيب عن وضعيتهم في وسط السلم الاجتماعي، بالقول: أن هذا الصف «لا يتشوف إلى المزيد، ولا يحذر من النقصان». ولعل في هذا ما يفسر هامشيته في الصراع الطبقي. ولا غرو، فقد اشتهر بكونه «هادن ساكن، وإلى فئة العافية راكن». وفي قاعدة الهرم الاجتماعي، نجد العامة. وغني عن البيان أنهم شكلوا الغالبية العظمى، بالبوادي والمدن على السواء. عبر عن ذلك ابن خلدون بالقول: «ويموج بحر المدينة بالسفلة». وهم بقرطبة «خلق لا يحصيه إلا خالقهم وقد سبق القول، أن العاصمة احتضنت أكبر تجمع لهم، ليس بالأندلس فحسب، بل بمجموع الغرب الإسلامي، كنتيجة طبيعية لمكانتها الاقتصادية. على الرغم مما تحمله هذه الطبقة من خصائص مشتركة، وما يجمعها من مصالح وأهداف، فمن الخطأ تصورهما منسجمة تمام الانسجام. ولعل في طيسعة عصر الخلافة، باعتباره مرحلة انتقالية، امتزجت فيها عناصر من البنية السالفة ببدور التحول، ما يقتضي بعض التروي عند رصد شرائحها. ولا غرو، فإخوان الصفا فصلوا أرباب الصنائع والحرف والأعمال، عن المتصرفين والخدامين والمتعيشين، عن الزمنى والعطل وأهل البطالة، باعتبارهم شرائح متميزة بعضها عن بعض، في إطار طبقة العامة. واستناداً على الوضعية الاقتصادية، يمكن تحديد شرائح عامة قرطبية كالتالي:

ويشملون بداخل المدينة أهل الحرف الصناعية. ويمكن تمييز أرباب المهن المالكين لأدوات العمل، عن الصناع ومتعلمي الحرف، الذين يفتقدونها. من ثم، فهناك نوع من الاستغلال، يمارسه الطرف الأول على الثاني. لكنه استغلال مؤقت. يقول إخوان الصفا «إن أي تلميذ أو متعلم في علم أو صناعة أمثل أمر أستاذه وانقاد لمعلمه ودام عليه فإنه سيصير يومًا ما إلى مرتبة أستاذه». والأهم من ذلك، قرب الحرفة، لا يسيطر على فائض القيمة لتحقيق الربح والتراكم الرأسمالي، بل للعيش. من ثم العلاقة الأبوية بين الطرفين، والجنوح نحو التماسك والتعاوض داخل الحرفة، على حساب التناحر والصراع. ساهم في ذلك، تعرض الجميع لاستغلال التجار المسوقين لمتوجاتهم، وكذلك للمكوس والضرائب التي تفرضها الدولة. بل وحتى المحتسب، في مراقبته لا يميز بين الطرفين، فهو «يأخذ المعلم بكل ما يجد من الفساد في شغله ويعاقب مع الفاعل له. غير أن تزايد الطلب على المنتجات الصناعية، مكّن بعض أرباب المهن من تحقيق تراكم رأسمالي. ولزيادة الإنتاج، تحولت حوانيتهم تدريجيًا إلى ما يشبه «المانيفاتورة». من ثم صعودهم بحكم موقعهم الجديد كمستثمرين إلى الطبقة الوسطى. في حين تحول الحرفيون إلى عمال مأجورين. بمعنى أن بذور الانحلال عملت فعلها في الروابط باتجاه إفراز طبقتين متناقضتين بداخلها، وإن كان على نطاق ضيق. ومما ساعد على بلورة هذه الفئة من المأجورين، إقدام بعض التجار على الاستثمار في المجال الصناعي. وعلى الرغم من التناقضات القائمة فيما بين الحرفيين: صناعيًا، عمالا وأرباب مهن، من جهة، والارستقراطية والتجار وأرباب المهن المثبرجزين من جهة أخرى، فقد جمعتهم مصلحة الحفاظ على وحدة البلاد، وضرورة الهيمنة على طرق التجارة العالمية. ولا غرو، فالقطاع الصناعي ازداد ارتكازًا في توينه بالمواد الخام، وتسويق منتوجاته، على

مجموع البلاد وعلى الأسواق الخارجية. أن انفرط ذلك، يعني انهيار هذا القطاع. وعلى عكس بقية شرائح العامة، فمن الملاحظ أن الحرفيين حظوا بفضل وعيهم بدورهم الاقتصادي وتماسك تنظيماتهم، باحترام بقية الطبقات. فكما أشاد ابن غالب بصناع الأندلس، اعتبر غير اكتساب الصنعة ميزة. وعلى الرغم مما أكله السقطي من شتائم على رءوس العامة، لم يتردد عن القول: «حدثني رجل من الصناع لم أزل أذكره بخير». وبالمثل، خصهم إخوان الصفا دون غيرهم، بالتعظيم والتبجيل. وفي إطار تقسيم العمل بين القطاعات الاقتصادية، اقتصر دور سكان الأرياف القرطبية و«الجنان» و«المستغلات» التي بداخل المدينة وبالحقول المحيطة بها، على الإنتاج الفلاحي. واستناداً على وضعية الأرض. يمكن تمييز المنتجين بهذا القطاع، إلى ملاكين صغار وفلاحين فقراء. ومن المعلوم أن الفئة الأولى، قد تحرر معظمها من الواجبات الإقطاعية، واتسعت قاعدتها تدريجياً، تبعاً للانكماش الذي أصاب الشرائح الإقطاعية. ولعل فيما أورده ابن سهل عن ظاهرة البستنة بقرطبة وخارجها ما يؤكد ذلك. ولكنها استمرت ملزمة بأداء واجبات الدولة. والأخطر من ذلك، أصبحت معرضة لجشع التجار والطبقة الأرستقراطية. فقد سبق إثبات حديث لأحد وزراء الناصر عن قرية بقنباية قرطبة، قال فيه: «لم أهنأ بعيش حتى أعملت الحيلة في ابتياعها بأحوازها» كما تحدث ابن عذارى عن عديد من «أرباب المستغلات الذين اشترت منهم». وعن اضطراب «شيخ من العامة إلى بيع قطعة أرض بداخل قرطبة. بصرف النظر عما أورده ابن سهل عن العديد من عمليات بيع وشراء الأرض. ويبدو أن سنوات القحط، وانخفاض أسعار المواد الغذائية خلال سنوات الرخاء، كان له دور في فقدان العديد من الفلاحين الصغار لممتلكاتهم. أما الفئة الثانية، فكانت معقدة في تكوينها. فهناك الاثنان الذين استمروا فيما تبقى من الأراضي الإقطاعية، وفي ممتلكات

الأسرة الحاكمة. وأشبه الأقتان الذين يرتبطون مؤقتًا بالأرض، بواسطة عقود «الشركة» و«كراء الأرض» في ممتلكات الأحياس والطبقة الوسطى والشرائح المتبرجة من الطبقة الأرستقراطية. وأخيرًا الفلاحون الأحرار المأجورون الذين، رغم العلاقة الرأسمالية التي تربطهم بالملاكين، لم يكونوا طبقة عمالية زراعية واضحة. نظرًا لطابع عملهم الموسمي، وانتقالهم للخدمة من مالك إلى آخر. تأرجحت طبيعة هذه الفئة إذًا، بين القنانة والعمل المأجور. على أن تراجع الربح العيني والسخرة، وتوجيه أغلبية الإنتاج لتلبية الحاجيات الغذائية للعاصمة، أو حاجيات بعض القطاعات الحرفية من المواد الخام الفلاحية، اضطر المنتجون إلى الدخول في علاقات سوقية مع التجار والجلاب. مما جعلهم عرضة لاستغلال مزدوج. ولعل فيما أورده المقرئ بالقول: «وبخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية»، ما يكفي للدلالة عن كثافة هذه الفئة. نخلص إلى القول، أنه على الرغم من الاختلافات وبعض التناقضات التي استمرت في صفوف المنتجين، فلاحين كانوا أم حرفيين، فتعرضهم للاستغلال من قبل الأرستقراطية والتجار يجعلهم متماسكين. باعتبارهم النواة الصلبة الأساسية لطبقة العامة. وغني عن القول، أن النمو الديموغرافي وازدهار النشاط الصناعي والتجاري، أفضى إلى اتساع ملحوظ في قاعدتهم الاجتماعية. ميز ابن خلدون كبار التجار الممارسين للتجارة عبر المسافات البعيدة، عن «التردد في أفق واحد ما بين أمصاره وبلدانه» باعتبار الصنف الثاني «سافل الطور للأشرا الباعة» وقد برهن ابن بشكوال على انطباق ذلك على إسبانيا الإسلامية، فيما أورده عن أحدهم «كان معاشه من ثياب يبتاعها ببجانة ويقصرها ويحملها إلى قرطبة له في ثمنها ما يصلح ببجانة». وعلى الرغم من أن كلاهما يشغل رأسمالًا تجاريًا، فالهدف بالنسبة للمصنف الأول هو الربح، والثاني، التعيش. أكد ذلك ابن بسام فيما أورده عن تاجر تقسيط

«يقتات معيشة مياومة». وعلى غرار الشرائح السابقة، تعرض هؤلاء لاستغلال كبار التجار والمحترفين، الذين لا يتركون لهم إلا مجالا محدودا للربح، ساهمت مكوس الدولة وواجبات الأسواق في تقليصه. وفي درجة أدنى: الباعة، وهي الفئة التي تتولى تسويق المواد الاستهلاكية الضرورية لحياة الناس. وقد عرفوا في المصادر باسم «السوقية» و«باعة الطريق» و«الرعاع» و«أوباش الأسواق» كما أطنبت كتب الحسبة في إحصاء أصنافهم، التي ازدادت اتساعاً وكثافة مع النمو الديموغرافي الذي عرفته العاصمة. وبما أن هذا النشاط لا يتطلب مهارة خاصة، لا تعلماً، فقد استوعب أغلبية المهاجرين الجدد من البوادي. من ثم هشاشة تنظيماتهم، وعجزهم عن مواجهة المراقبة الشديدة التي فرضتها عليهم الدولة، ممثلة في خطتي الحسبة والشرطة. ولعل في ذلك مايفسر نعتهم بـ «همج هامج ورعاع منتشر لا نظام لهم ولا اختبار» ونظراً لاحتكاكهم المباشر بالمستهلكين، لم تتورع الدولة عن تحميلهم مسئولية ارتفاع الأسعار واقتعال تناقضات فيما بينهم وبين بقية شرائح العامة. ركز المؤرخون القدامى على إبراز أهمية قطاع البناء والتجهيز، باعتباره المظهر الأكثر دلالة على مدى ازدهار الحضاري. ولا غرو، فالناصر خصص له ثلث الجباية. مما يكشف عن أهميته في التشغيل. فبناء الزاهرة وحدها، تطلب «عدة حذاق البناء في كل يوم ثلاثمائة بناء، وعدة حذاق النجارين مائتا نجار، وعدة الأجراء في كل يوم خمسمائة أجير تمة ألف عامل» إضافة لـ «ألف وأربعمائة» ناقل لمواد البناء. واضح بأن العلاقة بين المشغل والمشتغل، كانت قائمة على الاجور. فـ «من الرجال من له ذرهم ونصف ومن له الدرهمان والثلاثة على أنه من المفيد بين القطاع الموجه للاستعمال الخاص والعمومي، والاستثمار العقاري الهادف إلى تحقيق الأرباح. فمن القرائن، ما يكشف عن مدى ازدهار النوع الثاني. فعدد هم التجار الذين يملكون «دكاكين ومنازل

مغلة» كما كانت بقرطبة عدة حوانيت ابتناها السلطان فاكتراها الناس منه وتحدث ابن سهيل عن «الاكتراء في القيساريات والحوانيت المقصوبة والمبنية بالأموال الحرام». ومن أمثال العامة ما يكشف عن اتساع الاستثمار العقاري. وليس أدل على ذلك من أهمية وظيفة عرفاء البنيان والقسام في عيوب الدور. ونما يؤكد شيوع العقلية التجارية بهذا القطاع، شكوى إحدى النساء من أن بناء «القرائن بقرب دارها ضرر عليها لأنه يحط من ثمنها نحن إذا، أما فئة عريضة من الأجراء، معرضة لاستغلال مكثف من طرف حفنة من العقاريين. وقد كشف السقطي عن وضعيتهم، على لسان شيخ من البنائين، قال: «كان معي رجل يخدم وكان مقدوراً عليه في رزقه ضيق الحال». تضاف إلى هؤلاء جميعاً، جماهير غفيرة من مستخدمي الأشغال العامة. كالمكلفين بمد وصيانة شبكة «أنابيب الرصاص» الموردة للمياه الصالحة للشرب، والقائمين على «قنوات» تصريف المياه المستعملة، ومنظفي الشوارع والدروب والمرافق العامة، وغيرهم. ولم يكن قطاع المواصلات أقل أهمية في إفراز المزيد من الأجراء العارضين للخدمات: نقله، حمالين، نواتية حراس. نخلص إلى أن هذه الشريحة، تضمنت فئة مرتبطة بتلبية رغبات الترف لدى الطبقة الأرستقراطية. وأخرى على العكس، وثيقة الصلة بالنشاط التجاري. مع ذلك فمكانة فعاليتها، على هامش الأنشطة الاقتصادية الأساسية، يجعلها دون أهمية الشرائح السالفة.

من المتعارف عليه أن إسبانيا الإسلامية احتلت مكانة هامة كسوق لتجارة العبيد، وتقدم المصادر معلومات مستفيضة عن الصقالبية منهم. ويبدو أن مصدر الرقيق يكمن في الحروب المستمرة فيما بين الكيانات الأوروبية؛ وعجز العلاقات الإقطاعية بها عن استيعابهم، فيرسلون مادة تجارية إلى إسبانيا

الإسلامية يقول الرقيق القيرواني متحدثاً عن الفرنجة «وهذه أمة الصقالب المتصلين بأرضهم لمخالفتهم إياهم في الديانة فيسبونهم ويبيعون رقيقهم بأرض إسبانيا الإسلامية. أما المعلومات بصدد العبيد السود فقليلة، مع ذلك فمن القرائن ما يؤكد تداولهم. كثير هم الدارسون الذين اعتقدوا في مشاركة العبيد الفعالة في الأنشطة الاقتصادية، وبالأخص الفلاحية منها. بل ولم يتورع موريس لومبار عن الإقرار بأن «العالم الإسلامي هو أيضاً، عالم حضارة رقية. القوة المحركة، الطاقة، كائناً آنثذ مطلوبتين في حدود واسعة من عضلات العبد». ولعل فيما سبقت دراسة ما يكفي لإسقاط هذا الزعم. على أي، فالمصادر القديمة وفرت عنا عناء تغيده، في تأكيدها المستمر على إدماج الرقيق في الأجهزة العسكرية والإدارية واقتصار غيرهم على الخدمات المنزلية فلنتأمل على سبيل المثال نصاً للسقطي يقول فيه: «الخادم البربرية للذة والرومية لحيلة المال والخزانة، والتركية لإنجاب الولد، والزنجية للرضاع، والمكية للغناء، والمدنية للشكل، والعراقية للطرب، والزنج والأرمن للكبد والخدمة ومعها العطاء، والترك والصقالب للحرب، والشجاعة». حقيقة أن هناك من العبيد، من أسندت له مهام إنتاجية. فقد ذكر ابن عذارى أن الحكم المستنصر «رتب جملة من ممالكه لتعلم الصناعة». كما سبقت الإشارة إلى «ممالك منية العجب» بقرطبة، الذين استمروا يمارسون النشاط الفلاحي. لكنهم لم يحافظوا من العبودية إلا على الاسم. فقد أشكل على القاضي «أمر (اثنين منهما) ولم يعلم أهما من أبناء الخرائر أم من أبناء الإمام» بما يؤكد عجز العلاقات العبودية عن الاستمرار في القطاعات المنتجة، كحصول طيعية لما عرفته من تطورات. وعلى غرار الخلفاء والحجاب العامريون، الذين تناغوا في اكتساب العبيد للخدمة بقصورهم تنافس باقي أفراد الطبقة الأرستقراطية على تملكهم. يذكر ابن بسام أن أحدهم كان يملك «مائتي نسمة من رقيق الصقلب

منتقاة». ولم يكن هناك ما يمنع أهل الذمة عن ذلك، فقد ورد على القاضي غلام يزعم أنه حر وأنه يكره على اليهودية وادعى يهودي أنه مملوك وبالمثل، لم يتردد غيرهم من ذوي الإمكانات عن اتخاذ الخدم أحراراً كانوا أم عبيداً. وذلك على الرغم من تشجيع الخلفاء والحجاب على تحريرهم. فقد «أعتق الحكم نحواً من مائة رقية من عبيد له على غراره» «أعتق المنصور ألفاً وخمسمائة مملوك وثلاثمائة مملوكة». ونظراً لهامشيتهم ولاقتصار دورهم على الخدمات المنزلية، لم يكن للخدم والعبيد، كشريحة من العامة شأن يذكر، ولا غرو، فقد كانوا محط سخرية باقي شرائح العامة، ومثالا لديهم على الفتور والكسل بل لم يترددوا عن التحذير من الاختلاط بهم. حددهم إخوان الصفا، كما لاحظنا ذلك سلفاً، في الزمنى والعطل وأهل البطالة والفراغ. وهو ما فصله أحد الدارسين بالقول: «وتألفت من اللصوص، المجرمين، الشحاذين، المومسين، المومسات، المتسكعين في أزقة المدن وساحاتها، الغرباء والعاطلين عن العمل، المهرجين، الراقصات» والدرائش والحمقى. وعلى الرغم من دور الازدهار الاقتصادي في تقليص عددهم، فقد استمروا يشكلون فئة هامة بالعاصمة، كتاج بديهي لتفسخ البنيات التقليدية بالبوادي، وكثافة الهجرة القروية. وليس أدل على ذلك، من اتساع ظاهرة اللصوصية. فأهل قرطبة كانوا «في بلاء عظيم، يتحارسون الليل كله، ويكابدون من روعات طراقة مالا يكابد أهل الثغور من العدو ولا غرو، ف لا تكاد في إسبانيا الإسلامية تخلو من سماع دار فلام دخلت البارجة وفلان ذبحه اللصوص على فراشه» وقد وصل بهم الأمر إلى حد «سرق بيت المال الذي للمسبيل بداخل المسجد الحرام بقرطبة». أكد ابن سهل هذه الحقيقة فيما أورده من نوازل قضائية، حوكم فيها «أهل الشر»، وامتداد حقل عملياتهم إلى «قبنائية» قرطبة. هكذا، فدور هذه الشريحة كان سلبياً، باعتبار ميلها للسلب والنهب.

من ثم إمكانية الجنوح عن أهداف تحركت العامة المطلية والسياسية. إضافة إلى كونها، قد مكنت أعداء العامة الطبقيين من وصفها باللصوصية والزعرنة والفجور. الخلاصة - أن عامة قرطبة تضمنت عدة شرائح، منها ما هي رئيسية، ومنها ما هي ثانوية. وعلى الرغم من الاختلافات والتناقضات في صفوفها، فصلاية نواتها وتزايد أهمية الأساس الطبقي، من شأنه، تغليب الالتحام والتماسك بين أطرافها في مواجهة أعدائها على ساحة النضال السياسي⁽¹⁾.

بعض فئات المجتمع الإسباني الإسلامي:

الأرستقراطية:

أشارت النوازل إلى بعض البيوتات الكبرى في الأندلس خلال عصري الطوائف والمراطين، والتي تنتمي إلى طبقة الخاصة، أو ما يسمى بالطبقة الأرستقراطية، وكان معظم أفراد تلك العائلات الكبيرة يتمتعون بالوظائف العالية في خدمة الدولة، وقد استطاعوا تكوين ثروات ضخمة، علاوة على الممتلكات من العقارات والأراضي والضياع.

ونعد أسرة بني زهر من أشهر الأسر الأندلسية التي أوردها ابن رشد في نوازل، وكانت تلك الأسرة تسكن بمدينة إشبيلية في عهد دولة بني عباد، أي منذ بداية عصر دويلات الطوائف (أوائل القرن 5 هـ / 11 م)، وتمتعوا بنفوذ كبير في إشبيلية، علاوة على الجاه والنبوغ العلمي، خصوصاً في مجال الطب، فتذكر النوازل أن بني زهر الإشبيليين امتلكوا الضياع الواسعة والفنادق. ويضيف ابن بسام أن بني عباد حكام إشبيلية نظروا بعين الشك والخوف إلى تلك الأسرة النابذة الثرية، وخشوا على سلطانهم بإشبيلية،

(1) د. أحمد الطاهري - المرجع السابق ص 170.

فاضطروهم إلى الخروج عنها، ومصادرة أملاكهم بها، فحل محمد بن مروان ابن زهر - جد بني زهر - إلى شاطبة بشرق إسبانيا الإسلامية، وأقام بها بقية عمره بين جاهه ووفره. ويتضح من المصادر أن العلاقات بين بني عباد أصحاب إشبيلية وبني زهر قد تحسنت في عهد المعتمد بن عباد (461 - 484هـ / 1069 - 1091م)، فقام المعتمد باستمالة الطبيب زهر بن عبد الملك بن زهر لبراعته في الطب، وحثه على العودة إلى بلده إشبيلية، وأعاد إليه بعض أملاك أسرته بها، غير أن ابن زهر لم يستقر بإشبيلية إلا بعد خلع المعتمد وسقوط دولة بني عباد على أيدي المرابطين في عام 484 هـ / 1091 م. فاستدعاه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إليه بالعاصمة مراکش، واستقبله بالخفاوة والتكريم. وازدهر نفوذ ابن زهر في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف المرابطي (500 - 537 هـ / 1106 - 1143 م)، وصار من أهل الحل والعقد ومن ذوي الرأي والمشورة في بلدة إشبيلية، ويدل على ذلك قول ابن عذارى، بأن ابن زهر كان «يولي من قبله حاكمًا يحكم من حاشيته، وصاحب المدينة من توليته، وشهود البلد بحكمه، وأمر المستخلص (أي أملاك بيت المال) وأملاك السلطان جارية على نهيه وأمره بمدينة إشبيلية.

ظل ابن زهر يحتفظ بمكانته ونفوذه إلى أن تغير عليه الأمير علي بن يوسف في عام 511 هـ / 1117 - 1118 م بسبب وشايات خصومه ومنافسيه، فلم يسمح له بالقدوم عليه بالحاضرة مراکش. وجدير بالملاحظة أن الفقهاء ورجال الدين والقضاة تمتعوا بمركز مرموق في ظل دولة المرابطين التي كانت تحرص على استمالتهم وتوثيق أواصر العلاقات معهم، حتى تضمن مساندتهم لها، مما يدعم سلطة المرابطين، وخصوصًا في بلاد إسبانيا الإسلامية وهذا كان له أثره في إرديا ثراء الفقهاء الذين احتكروا معظم المناصب العليا في ذلك العصر، خصوصًا خطط القضاء والفتيا والحسبة. ومن أمثلة تلك الأسر

المتنمية إلى طبقة الفقهاء الشريعة، والتي أشارت إليها النوازل: أسرة الفقيه سفيان بن العاصي الأسدي، وأصل سلفه من مريبطر غير أنه سكن قرطبة، وكان من الفقهاء وأهل العلم فيها، وعلى صلة بالفقيه القاضي ابن رشد - صاحب النوازل - أما أخوه محمد بن العاصي الأسدي فكان من أعيان بلدة مريبطر، ومن ذوي الأموال والأموال فيها، فتذكر النوازل أنه التزم بعد أداء حجة الفريضة على تميم عقاره، والنظر بما ينمي غلته، وانتشر عنه في بلدة الذكر سبعة حال ووفور مال (أي الأموال النقدية). أشارت النوازل إلى فئة المؤدبين، أو معلمي الكتاتيب وواجباتهم ودورهم في التعليم الديني، فتفيد إحدى النوازل بأن المؤدبين كانوا يحصلون على أجره مقابل تحفيظ الصبيان القرآن الكريم. ويتضح من المصادر أن تلك الطائفة كانت كثيرة العدد داخل مجتمع إسبانيا الإسلامية ويبدو أن بعضهم كان يهمل في أداء واجباته، ولذا كان لابد من الإشراف عليهم من قبل المحتسب أو صاحب السوق، فيذكر ابن عبدون أنه يجب «منع المؤدبين من حضور الولائم والجنائز والشهادات إلا في يوم عطلة، فإنهم مستأجرون»، كما ينبغي على المؤدب ألا يكثر من الصبيان، حتى يتمكن من الإشراف عليهم ورعايتهم، «فالتعليم صناعة تحتاج إلى معرفة ودربة ولطف، فأكثر المؤدبين جهال بضاعة التعليم لأن ضبط القرآن شيء والتعليم شيء آخر لا يحكمه إلا عالم به، ويضيف ابن عبدون أن معنى التأديب هو أن يقوم المؤدب بتعليم الصبي تجويد تلاوة القرآن وحسن الالفاظ في القراءة والخط الحسن والهجاء، ويأمر من كان كبيراً بالصلاة. ويتصل بالمؤدبين، فئة أهل العلم من قراء الحديث والأدباء والكتاب وغيرهم، وقد تعرض لهم ابن رشد في نوازله، وأشار إلى أن قلة منهم جنحوا إلى التطرف، فاستخفوا باللغة العربية، وجهروا بالقول بأنهم لا يحتاجون إلى لسان العرب، وأخذوا يقرأون بعض سور القرآن باللسان الأعجمي (أي لاتينية أهل إسبانيا

الإسلامية المعروفة باللغة الرومانسية (Romance). ومن الغريب أن يظهر مثل هذا التطرف في عصر بحث ديني، مثل عصر دولة المرابطين، التي اهتم حكامها بالنواحي والجهاد ورعاية الفقهاء والعلماء. ألمحت إحدى النوازل إلى طائفة من طوائف مجتمع إسبانيا الإسلامية وهم الجند من المرابطين البربر ومسيحي إسبانيا، كما أشارت إلى مستواهم المعيشي، ويتضح من النازلة أن الجند - سواء من المغاربة البربر أو مسيحي إسبانيا - كانوا يتمتعون بمركز اقتصادي واجتماعي مرموق، وبمستوى معيشي مرتفع. حيث كانوا يصرفون رواتب عينية تعرف بالبراءات، وهي عبارة عن كميات من الطعام أي الحبوب، يصرفها أمير المسلمين المرابطي للجند في الحصون والثغور، وهي تشبه المواساة التي كان يفرقها الموحدون كل سنة بعد وصول المحاصيل إلى مخازن الدولة. ويستدل من تلك النازلة على أن الجند المرابطين كانوا يبيعون تلك البراءات (الاطعمة) إلى أهل إسبانيا الإسلامية قبل قبضها، مما دفع ابن رشد إلى الإفتاء بأنه «لا يجوز للجند من المرابطين وغيرهم بيع الطعام المرتب لهم على خدمتهم وعملهم إذا خرجت لهم به البراءات إلا بعد أن يقبضوه ويستوفوه» ونستنتج من ذلك أن عطاء الجند المرابطي كان أثبت وأكثر من عطاء الأندلسي، ولعل مثل هذا التمييز يفسر جانباً من مظاهر القلق الاجتماعي الذي كان مسيحي إسبانيا يحسون به نحو المرابطين البربر القادمين من المغرب، ولعله يبرر إلى حد كبير ثورات أهل إسبانيا الإسلامية على المرابطين قرب نهاية عصرهم⁽¹⁾.



(1) كمال السيد أبو مصطفى، صور من المجتمع الأندلسي، المجلة التاريخية العربية، المجلد 27، عام 1990، ص 19.

الأسرة والمرأة في المجتمع الإسباني الإسلامي

أمدتنا نوازل وفتاوى ابن رشد القرطبي بمعلومات قيمة حول الحياة العائلية في دور المرأة في المجتمع، فتشير إحدى تلك النوازل إلى وجود الحاضنة أو المربية التي كانت تحصل على أجرة معينة يتفق عليها نظير قيامها بهذا العمل، كما كان يحق لها بعد انتهاء مهمتها زيارة محضونتها من حين لآخر، «خوفًا من المضرة من انقطاعها، لأنها أشفق على المحضونة وأنفع لها من كثير من قرابتها». وقد تعرضت النوازل للعديد من المشاكل الأسرية، من ذلك نازلة - يندر وجودها ضمن كتب النوازل والفتاوى إسبانيا الإسلامية والمغربية - تتعلق بمشكلة زواج المتعة، وهو الزواج إلى أجل معين، فتذكر النازلة أن رجلاً من أهل العلم في مدينة بطليوس تزوج امرأة نكاح متعة إلى أجل مسمى، بلا ولي ولا صداق إلا نصف درهم، وأقر عند القاضي بوطشها، وبرر اضطراره إلى هذا الزواج -برغم تحريمه- بأنه لم يستطع أن يتزوج زواجاً مشروعاً خوفاً من أيه الذي لم يكن يسمح له بهذا الزواج، كما أن الذي تزوجها زواج متعة لم يكن يصلح لمثله، وأنه خشي أن يزني بها، فلجأ إلى زواج المتعة. وعندما عرضت تلك القضية على ابن رشد أفتى بإقامة الحد على من تزوج زواج متعة، لأن الرجل تزوج بغير ولي للمرأة، وعقد النكاح بشهادة غير العدول. وهناك أيضاً مشكلة الطلاق، التي كان من أهم أسبابها في إسبانيا الإسلامية الضرر الذي يلحق بالزوجة من زوجها، وكان لهذا الضرر صور شتى منها: سوء معاملة الزوج لزوجته، وكثرة مشاجراته معها، أو غياب الزوج عن زوجته فترة طويلة بسبب الجهاد ضد التصاري أو فقدان الزوج أثناء الحروب والفتن الداخلية بحيث لا تدري الزوجة حياته من مماته.

وألححت إحدى التوازل إلى مشكلة أسرية أخرى. وهي مشكلة حضانة الأطفال، ومدى أحقية كل من الزوجين في تلك الحضانة. فتفيد النازلة بأن رجلاً طلق امرأته وله ابنة تركها عند والدتها (مطلقتها) التي تزوجت من آخر، ومكثت الابنة معها حوالي خمسة أعوام، وعندئذ أراد الأب أخذ ابنته من والدتها التي رفضت ذلك، ولجأ الأب إلى القضاء وأهل الفتوى، فافتنى ابن رشد - آن ذاك - بأنه لا يحق للأب أخذها إلا بعد أن يثبت عدم أمانة الأم على حضانة ابنتها. وتشير نازلة أخرى إلى أن الزوجة بعد طلاقها كانت تترك ابنتها - غالباً - عند أمها، خاصة في حالة زواجها مرة أخرى، وهنا كان على الأب إجراء التفقة على ابنة أو ابنته. ويتضح من النوازل كثرة الهبات والصدقات والأحباس داخل نطاق الأسرة، فهناك ما يشير إلى أن رجلاً وهب ابنته - في صحته وجواز أمره - ربا مكونة من دارين وثلاثة حوانيت، كذلك تصدقت الأم على ابنتها المذكورة بمائة مشقال (أي دينار من الذهب)، كما وهب الأب ابنته قبل وفاته حلياً وثياباً. وتضيف نازلة أخرى أن رجلاً بإشبيلية - في عصر المرابطين - يسمى أيوب وهب لابنته - وتدعى عائشة - بعض الأموال والأموال ببلدة إشبيلية، واشترط الأب في عقد الهبة أنه في حالة وفاة ابنته الموهوب لها من غير ولد فإن الهبة المذكورة ترجع إلى حفيدته أمة الرحمن المدعوة بقنة ابنة أحمد، وإن لم تكن قنة على قيد الحياة عند موت عائشة، فإن الهبة تورث عن عائشة لمن يحق له ذلك من ورثتها كذلك هناك ما يفيد بقيام رجل من أهل أشبونة بشراء دار، وهبها لزوجته، كما تصدق رجل مسيحي بإسبانيا على ابنته بتسابوت في بيته يحوي حلياً وثياباً، وكتب بذلك عقداً أشهد عليه بعض الشهود العدول في بلده.

ومن الملاحظ أيضاً أن أهل إسبانيا الإسلامية وجهوا عنايتهم إلى حبس - أي وقف - بعض الأملاك والعقارات على أبنائهم وأفراد أسرهم

وأقربائهم، ومن ذلك قيام الفقيد محمد بن زهر في 414 هـ/ 1023 م بـ 1024 م بحبس فندق وضياح ببلدة إشبيلية على ذريته وأعقابهم ما تناسلوا، كذلك قام رجل يدعى ابن أبي عبدة في 429 هـ/ 1037 ع 1038 م بحبس دار قرب مسجد طرفه بقرطبة على ابنة وابنته. ومن جهة أخرى ألمحت النوازل إلى بعض العادات والتقاليد داخل أسر إسبانيا الإسلامية، فمن ذلك الاحتفال بختان الطفل (ويسمى حفل الإعذار) الذي كان يتم غالباً في العام السابع من عمره، حيث جرت العادة أن يقوم رب الأسرة بدعوة أقربائه وأصدقائه إلى حضور وليمة في داره للاحتفال بذلك الحدث السعيد. ومن أمثلة تلك الاحتفالات - والتي ورد ذكرها في إحدى النوازل - حفل إعذار أقيم بقرطبة في 499 هـ/ 1105 - 1106 م حضره فقيه قرطبي في دار أحد رجال الحاشية في بلاط ابن الحاج أمير قرطبة المرابطي آن ذاك. كذلك هناك إشارة إلى عادة إسبانيا الإسلامية كانت تتبعها الأسرة في الجنائز، وهي قيام المرأة بالخروج وراء جنازة زوجها عند وفاته، فتذكر إحدى النوازل أن الحرة حواء بنت تاشفين (ابنة أخي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين)، خرجت تتبع نعش زوجها الأمير سير بن أبي بكر - وإلى إشبيلية، وتضيف نازلة أخرى بأن المرأة كانت تقف أحياناً على شفير قبر زوجها عند دفنه. ومن العادات الأندلسية أيضاً، والتي وجدت في كثير من المدن مثل قرطبة ومرسية، أن الإمام الذي يصلي بالناس صلاة عيد الأضحى لا يخرج أضحيته إلى المصلى (الشريعة) للذبحها عند انصرافه من خطبة العيد، بمعنى أنه لا يقوم بذبح أضحية العيد إلا بعد الوصول إلى داره.

وفيما يتعلق بمكانة المرأة في الحياة العامة ودورها في المجتمع خلال عصري الطوائف والمرابطين، فقد أمدتنا النوازل بمعلومات قيمة تفيد بأن

الأميرات من أسرة بني تاشفين - حكام الدولة المرابطية - كن يتمتعن بثراء واسع، وكثرت صدقاتهن على الفقراء والمساكين اليتامى بإسبانيا الإسلامية، ومن أمثلة ذلك: قيام الحرة حواء - عقب وفاة زوجها سير - بالتصدق بثلاث مالهها على المساكين في مدينة إشبيلية كما أعتقت ما لديها من رقيق لوجه الله تعالى. وكان للحرة حواء دور بارز في الحياة الأدبية سواء في مراكش - حاضرة المرابطين - أو في إشبيلية التي سكنتها بعد ذلك، فتذكر المصادر أنها كانت تحضر مجالس الشعراء والأدباء والكتاب، وتشارك في تلك المجالس الأدبية بالشعر، حيث كانت أديبة شاعرة ذات نباهة، واختصت الشعراء والأدباء برعايتها وأعطياتها، وامتدحها الشاعر الوشاح في إسبانيا الإسلامية الأعمى التطيلي بعدة قصائد. ونستتج من النوازل أيضاً أن المرأة - خلال عصري الطوائف والمرابطين - كانت تتمتع بالحرية الاقتصادية، وخصوصاً التصرف بالعقود والوصايا، وتمكنها من إدارة تجارتها، والسيطرة المستقلة على شئونها المالية، وكذلك هناك ما يشير إلى قيام المرأة بإقراض زوجها واشتراكها مع قوم في استثمار أراض زراعية⁽¹⁾.



(1) كمال السيد أبو مصطفى، نفس المرجع السابق، ص 25.

العلاقات بين الجيران

أشارت نوازل ابن رشد إلى العلاقات بين الجيران داخل مدن إسبانيا الإسلامية وحقوق ارتفاع الجوار، أي إمكانية انتفاع الجار بما يوجب الحاجة إليه من المبنى المجاور بدون إضرار بحق جاره، ويستتبع من تلك النوازل أن كسب حق الارتفاع كان مقراً به في حالة وجود ضرورة ملجئة إلى تقريره، ولكن يشترط الاتفاق بين الجيران على هذا المبدأ والتراضي بينهم، مع الحرص على عدم إلحاق ضرر بأحد منهم، مما يدل على مدى التعاون بين الجيران داخل المجتمع، والاهتمام بتطبيق المبدأ الإسلامي بأنه «لا ضرر ولا ضرار»، وأن دفع الضرر مقدم على جلب المنافع، غير أن ذلك لم يمنع من نشوب بعض المنازعات أو الخلافات أحياناً بين الجيران، والتي كانت تحسم سريعاً عن طريق القضاة وأهل الفتوى. وقد أوردت النوازل العديد من الأمثلة التي توضح العلاقة بين الجيران، والالتزام بعدم الإضرار بالجار، ومن ذلك نازلة عرضت على ابن رشد، ومفادها أن رجلاً له غرفة ويابها يقابل سطح جاره، ولا يرى منه غير السطح الذي يتصل بالغرفة، وظل الحال هكذا فترة طويلة من الزمن إلى أن باع صاحب البيت داره، وأراد المشتري رفع بنيان البيت ليعلو كالغرفة، فيسد بذلك على جاره باب غرفته، غير أن الجار (صاحب الغرفة) منعه من ذلك، وعندما احتكما إلى الفقيه القاضي ابن رشد، قضى بأن لصاحب البيت أن يرفع بنيانه ما شاء، شرط ألا يسد باب غرفة جاره، وعليه أن يستر على أهله إن شاء، أما إذا كان باب الغرفة يتنفذ به فقط في التطلع على جاره، فمن حقه أن يسد باب الغرفة لقول رسول الله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار». كذلك تشير نازلة - سئل عنها ابن رشد - إلى وجود باين متقابلين لجارين، وبينهما رفاق نافذ، فعمد أحدهما إلى فتح باب وحائوتين

في داره، مما أدى إلى إيقاع الضرر بجاره، فلم يعد يمكن لأحد الدخول أو الخروج من باب دار جاره إلا ويراه من هو بالحنوتين من الناس، ولذلك حكم ابن رشد بأنه إذا ثبت ما ذكر، فإنه يؤمر صاحب الحانوتين بتحويل اتجاه بابيهما ليكونا بعيدين عن مواجهة باب دار جاره. وكان النزاع ينشب - أحياناً - بين الجيران بسبب عين الماء التي تنبع فجأة إحدى الدور، مما يحدث ضرراً بسكانها، فنذكر إحدى القضايا أن عيناً نبعت في وسط دار قديمة، وأضر الماء بها، فضاقت السكنى فيها، وكانت يلاء الدار المذكورة عرصه (أي أرض ملاصقة للدار)، لرجل ثان، فهوى هذا الماء عليها، ورأى صاحب الدار أن يخرج الماء إلى هذه العرصه، بعمل سرب تحت الأرض، فيكون ذلك صلاحاً بين الجارين، إذ ليس في ذلك إضرار بالعرصه. وقد أفتى ابن رشد في تلك القضية بأنه إذا كانت العين قد نبعت في داره دون أن يستنبتها، فمن حقه أن يرسل الماء إلى تلك العرصه إن كانت تقع في الجهة التي إليها انصباب الماء، وليس أن يحفر للماء تحتها سرباً إلا بإذن صاحب العرصه وموافقة تطبيقاً للمبدأ الإسلامي «لا ضرر ولا ضرار». ومن الملاحظ في مدن إسبانيا الإسلامية كثرة تضرر أصحاب الدور المجاورة للمساجد، حيث سهل إطلاع ضعاف النفوس من المؤذنين على ما يدور داخل الدور، ويكشفون من المآذن المرتفعة عورات البيوت المجاورة، وقد عرضت على ابن رشد العديد من تلك النوازل، ومنها أن صومعة (مئذنة) أحدثت في مسجد بإحدى مدن الأندلس، فاشتكى منها بعض الجيران لأنها أدت إلى كشف عورات بيوتهم فأوضح ابن رشد أنه إذا كان المؤذن يطلع من المئذنة على الدور من بعض نواحيها دون بعض، فيمنع من الوصول منها إلى الجهة التي يطلع منها بإقامة حاجز أو ساتر ينسئ بين تلك الجهة وغيرها من الجهات، ويضيف ابن رشد بأن هذا

بقرطبة في كثير من صوامعها، ولعل ذلك دفع أهل الفتوى إلى القول بأن
«يؤمر المؤذن بأن يسد عينيه عند الصعود، ويوكل ذلك إلى أمانته، فإنه قل من
يصعد إلى المنار إلا أهل الصلاح في غالب الأمر».

بعض ملامح ريف إسبانيا الإسلامية

أمدتنا نوازل ابن رشد بإشارات تنسم بالجدة والأصالة حول الريف لإسبانيا الإسلامية والتي لا نجد لها نظيراً في المصادر التاريخية والجغرافية. فيتضح لنا من إحدى النوازل أن القرية في إسبانيا الإسلامية كانت - غالباً - المساحة، فهي تشتمل على عدد محدود من الدور، يتراوح ما بين اثنتي عشرة داراً، وبالتالي كان عدد السكان بها قليلاً. وتضيف نازلة أخرى أن القرية كانت تحتوي على حارات كثيرة، وكل حارة منها منسوبة إلى قوم، معروفة لهم ولآبائهم. ولعل قلة عدد السكان والدور بالقرية كان عاملاً مساعداً على زيادة الترابط والتعاون داخل القرية سواء بين أفراد الأسرة الواحدة أم بين سكان القرية بصفة عامة. ونستنتج مما ذكره ابن رشد وجود قلة من الأفراد - من ذوي الثراء - كانوا يمتلكون الضياع الواسعة في ريف إسبانيا الإسلامية، فهناك إشارة إلى أن رجلاً من أهل بطليوس امتلك وحده قرية بكاملها حول المتجبل (من أعمال بطليوس بغرب إسبانيا الإسلامية)، وتذكر النازلة أن تلك القرية كانت تشتمل على أرحاء، ويشقها جدول صغير أو نهر يستفاد منه في أعمال الري. وتشير بعض المسائل الفقهية إلى وجود منازعات في بعض الأحيان بين سكان الريف حول الري والأراضي الفضاء التي ليست ملكاً لأحد، فبالنسبة للمنازعات حول مياه الري الممتد نازلة إلى أن رجلاً باع حقلاً لآخر على أن يشاركه المشتري في الاستفادة من البئر الكائنة على مقربة من الحقل، فيروي منها أرضه كل ثلاثين يوماً، غير أنه في أحد الأعوام عجز المشتري عن زراعة الحقل المذكور، وأراد ألا يترك نصيبه في مياه الري، واحتكم المتنازعان إلى الفقيه ابن رشد، ففضى بأن له (أي للمشتري) الحق في

الاستفادة من مياه البئر، إن كان له في ذلك منفعة، أما إذا أراد أن يحفر بركة لنفسه يحبس فيها الماء، ولا يتركه لمن يشاركه فيه، فليس له ذلك. كذلك هناك إشارات إلى مشكلات كانت تثار من آن لآخر بين أصحاب البساتين المتجاورة حول مياه الآبار، خاصة عندما يكون لصاحب أحد البساتين بئر وفيرة المياه، في الوقت الذي كانت فيه مياه آبار أصحاب البساتين المجاورة شحيحة لا تفي بمتطلبات السقيا والري. وكانت المنازعات بين سكان ريف إسبانيا الإسلامية حول الأراضي الفضاء عديدة أيضاً، فمن ذلك أن أهل قرية تنازعوا فيما بينهم حول أملاك ببعض حاراتها، إذ أن القرية بها حارات عديدة، وكل حارة منسوبة إلى قوم منهم، فثار أهل إحدى تلك الحارات على جيرانهم في حارة أخرى، وادعوا أن عندهم أملاكاً لهم، ورفعوا شكواهم إلى القضاء، وוכל كل فريق منهما وكيلًا مفروضًا، وانتهى النزاع بالصلح بين الفريقين أمام القاضي، حيث تنازل المدعي عليهم عن الأملاك التي كان يطالب بها المدعون. كذلك وجدت بإحدى القرى سبخة (أي أرض ملحية كثيرة المياه) بين أراضي قوم محدقة بها، ولم يدعها أحد، بمعنى أنها أرض مشاعة ليست ملكًا لأحد، ثم ادعى رجل ملكيته لها، وأتى بشهود غريباء ليسوا من أهل الموضع، يشهدون بامتلاكه لها، وأنكر جيرانه ذلك، مدعين أنها أرض مشاعة ومنفعة عامة لجميعهم، وذلك لقربها من أراضيهم، وعندما عرضت تلك المشكلة على ابن رشد حسمها بقوله بأنه «إذا كان في البلد من العدول جماعة من أهله لا يدعون في السبخة حقًا، ولا يعرفون للقاتم فيها ملكًا، فشهادة الغريباء له بها غير جائزة، والواجب أن تبقى على حالها مسرحًا لجميعهم ومنفعة لعامتهم. وهناك ما يشير أيضًا إلى اعتداء بعض الأفراد بالقرى على الطرق أو المرافق العامة، ومن أمثلة ذلك أن رجلاً بإحدى القرى الأندلسية أدخل طريقًا من طرق المسلمين في بستانه، وحازها، وغرسها،

وقطع فيها، وأغلتها مدة، ثم بعد ذلك ثبت أنها ليست من أملاكه، وأنها من المرافق العامة للمسلمين، ولذلك حكم القاضي بتأديبه على اعتدائه على الطريق العام، ولكن يأخذ غلة ما اغترسه من زرع، على أن تعود الأرض التي اغتصبها للمصلحة العامة للمسلمين. ومن ناحية أخرى يلاحظ في ريف إسبانيا الإسلامية كثرة وجود نظام المزارعة والمغارسة وتكوين الشركات الزراعية، مما يدل على مدى اهتمام مسيحي إسبانيا، بالزراعة، وبراعتهم في فنون الفلاحة وغرس الحدائق والبساتين. وكذلك يتضح من النوازل كثرة الأرحاء الطاحنة في قرى إسبانيا الإسلامية خلال العصر المرابطي فتذكر إحدى النوازل أن ضفة وادي بلون قرب جيان، وكانت تكثر بها الأرحاء التي تدور بقوة جريان المياه، كما شاع في تلك المنطقة نظام اكتراء الأرحاء من أصحابها الذين كانوا يشترطون في العقد - أحياناً - على المستأجرين أن يسمحوا لهم بطحن كمية محددة من القمح كل شهر بدون أجر طوال مدة الكراء، وأن يترك المستأجرون - بعد انتهاء مدة الكراء - الأحجار الطاحنة وأية أدوات وآلات أخرى أصلحوا بها بيت الرحى. ونستج من النازلة أن مسيحي إسبانيا اهتموا اهتماماً كبيراً ببناء بيت الرحى، واستخدموا في ذلك الأحجار الغليظة، وأخشاب البلوط الجيدة والحديد والقرايد⁽¹⁾. كتاب المعيار معين لا ينضب لدراسة الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس، وستقتصر على الإشارة إلى بعض ملامح الحياة الاجتماعية في إسبانيا الإسلامية في عصورها المختلفة. ويمكن للباحث أن يطلع على بعض دقائق المجتمع من خلال المسائل الاجتماعية الكثيرة التي يزر بها الكتاب. فهناك معلومات قيمة تبين أساليب الزواج، ومقدار الصداق، ومشورة الزوجة، أي جهازها، وكيفية التصرف به، سواء من قبل الزوج أو الزوجة، أو ولي المرأة. كذلك يمكن الاطلاع على

(1) كمال السيد أبو مصطفى، نفس المرجع السابق، ص 34.

المقادير التي كانت تطلب عن طالقي الزوجة، أي المهر المؤجل، ومطالبة الآباء به في مختلف العصور نظراً لحالة إسبانيا الإسلامية الخاصة ومجاورتها للممالك النصرانية والاحتكاك الدائم بين الطرفين، فقد تضمن الكتاب معلومات كثيرة عن الأسرى الذين يتزوجون نصرانيات في الأسر، ومسائل خاصة بالفقودين وزوجاتهم. يضاف إلى ذلك وجود بعض حالات نكاح المتعة في الأندلس، لا سيما في عصر القاضي ابن الوليد بن رشد (ت 520 هـ / 1126 م) الذي أجاب عن بعض المسائل الخاصة بهذا النكاح، وأفتى بإقامة الحد على مرتكبيه. ولعل من أطراف ما يزخر به كتاب المعيار، هو بعض الشروط الغريبة التي كانت توافق بعض حالات عقد الزواج، منها اشتراط الأزواج لزوجاتهم بعدم الزواج عليهن، وإذا ما حصل ذلك، فالداخلة عليهن طالق، وقد فصل الونشريسي في حالة غريبة من هذا النوع عن رجل يدعى محمد بن يوسف الغاسل، الذي تزوج في طليطلة من امرأة اسمها عزيزة بنت يحيى، وشرط لها في صداقها أن يبدها أمر الداخلة عليها بنكاح تطلقها إن شاءت. وكان هذا الرجل يعمل في قلعة رباح Calatrava يقيم بها مدة، ثم يأتي إلى طليطلة. ويبدو أنه قرر مفارقة زوجته فبارها سرّاً في ذي الحجة 452 هـ / 1060 م، وكتب بذلك عقداً لم يخبرها به، ثم غادر إلى قلعة رباح حيث تزوج امرأة أخرى اسمها شمس 404 هـ / 1061 م. فبلغ ذلك عزيزة، فاشتكت عند قاضي طليطلة وأثبتت عنده صداقها بالشرط المذكور، ثم طلقت على زوجها التي نكح بقلعة رباح ثلاثاً. وخاطب قاضي طليطلة قاضي قلعة رباح، ففرق بين ابن الغاسل وشمس. وقد اعترض الزوج على هذا القرار بمباراته التي بارى بها عزيزة، وأثبت ذلك عند قاضي طليطلة، لكن ذلك استغرق وقتاً اعتبرته زوجته الثانية شمس مخلاً بعقد زواجها، حيث ادعت أنه شرط لها متى غاب عنها طائعاً أو مكرهاً أكثر من ستة أشهر فأمرها بيدها

تطلق نفسها بأي الطلاق شاءت، لهذا طلقت نفسها ثلاثاً، وهكذا خسر زوجتيه بما اشترطه في عقد زواجه من شروط لم يستطع الوفاء بها.

نرى من جهة أخرى صوراً حية عن التعامل الاجتماعي في المجتمع الإسباني الإسلامي من خلال ما ينقله صاحب المعيار عن كتاب أحكام السوق ليحيى بن عمر (ت 289 هـ / 901 - 902 م)، لا سيما التعامل في الأسواق من حيث المكايل والموازين، والأقفزة، والأرطال، والأواني، الغش والتدليس، كذلك الملاهية في المجتمع، والقذور المتخذة للخمر، وعن صاحب الحمام، وبكاء أهل الميت، والخروج إلى المقابر، والنساء اللواتي يمشين بالخف الصرار، وفي الاحتكار والتطفيف، واليهود والنصارى الذين كان بعضهم يتشبه بالمسلمين في الزي وفي المعيار أيضاً نصوص تشير إلى تنظيم العلاقة بين النصارى المعاهدين، وكيفية التعامل مع أحباسهم على الكنائس والأديرة، وكذلك أحباس اليهود كما يتضمن الإشارة إلى بعض الممارسات السلبية من قبل نصارى إسبانيا الإسلامية في قرطبة وغيرها، من ذلك مثلاً، يتناول بعضهم على الذات الإلهية، وعلى الرسول ﷺ، كما فعلت (ولجة) إحدى النصرانيات بقرطبة في عصر الإمارة، الأمر الذي أدى بشيوخ الشورى في المدينة إلى الإفتاء بقتلها، ومنهم محمد بن لبابة (ت 314 هـ / 927 م) ولعل هذه الحالة تؤكد ما أوردته بعض المصادر النصرانية عن حركات المستعربين في قرطبة أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم وابنه الأمير محمد، والتي أطلقت عليها اسم (الاستشهاد)، حيث يقوم المتعصبون من النصارى بالطعن بالإسلام، وسب الرسول علناً، الأمر الذي يؤدي إلى محاكمتهم والقضاء بإعدامهم. ومن الجدير بالذكر أن كتب التاريخ العربية لم تنطرق إلى هذه الحركة، ومعلوماتنا عنها مأخوذة من مصادر أوروبية فقط لهذا فإن إشارة الونشريسي هنا لها دلالتها في هذا المجال، لأنها تشابه إلى حد ما

بعض الحالات التي أشارت إليها المصادر النصرانية . ويمكن للباحث أن يطلع على بعض مناحي الخدمات الاجتماعية في إسبانيا الإسلامية عن طريق دراسة الحالات العديدة من الأحباس التي تم وقفها لخدمة المجتمع ، فهناك على سبيل المثال أحباس محبسة على المرضى في مدينة قرطبة ، حيث يحق لكل مريض فيها الاستفادة منها . أما الغرباء فيحق لهم ذلك أيضاً بعد أربعة أيام من دخولها إذا ما قالوا أنهم يريدون الاستيطان في المدينة وكانت الأحباس غالباً ما تحبس على طلبة العلم الضعفاء . وفك الأسرى ، وعتق الرقاب ، وفي العصور المتأخرة ، لا سيما في أيام الدولة النصرانية ، ترد إشارات كثيرة إلى أحباس وقفت على مصالح حصون معينة ولغاثة الفرسان المدافعين أمام خطر النصارى في منطقة بطة Baza ، وبلش Velez وغيرها من الأماكن المجاورة التي كان يقوم عليها بمهيء حراسة ثغور المسلمين وهناك من الأحباس ما يشير إلى تكافل اجتماعي عظيم المغزى ، من ذلك مثلاً حبس لرجل نص على كمية معينة من متوج أرض من الشعير ، لتبقى سلفاً لمن لا يقدر على شراء زرع يزرعه في أملاكه ، فإذا حصد الزرع رد منه مقدار ما أخذه على سبيل السلفة وهكذا فكر هذا الرجل في إنشاء مشروع تسليف البذور للمزارعين ، قبل مئات السنين من قيام الدول الحديثة بهذا المشروع على نطاق عام .

يتضح من دراسة بعض نوازل المعيار وجود حالات إلحاد ورندة في إسبانيا الإسلامية في مختلف العصور ، منها حالة في عصر الحكم المستنصر (350 - 366 هـ / 961 - 976 م) عن رجل يدعى أبا الخير ، شهد عليه أربعة وأربعون شاهداً بأنواع الكفر وصنوف من الإلحاد ، فأفتى القاضي منذر بن سعيد ، وصاحب الصلاة أحمد بن مطرف وغيرهما بقتله ، فأمر الحكم بصلبه وينقل الوثنريسي عن القاضي ابن سهل حالة أحد المتهمين بالإلحاد والاستخفاف بحق الرسول عليه الصلاة والسلام في طليطلة 457 هـ / 1064 -

1065 م، وهو المدعو عبد الله بن أحمد بن حاتم الأزدي الطليطلي، وقد شهد عليه نحو ستين شاهداً بذلك. وتولى التحقيق معه ومحاسبته محمد بن لييد المراتب على سبيل الحسبة، وثبت ذلك عند القاضي أبي زيد عبد الرحمن بن الحشا. وتشير قضية هذا الرجل إلى مدى تعاون القضاة في إسبانيا الإسلامية في مختلف دويلات الطوائف التي كانت سائدة في ذلك الحين. فعلى الرغم من الفرقة السياسية، كانت سلطة القضاة سائدة، والتعاون بينهم مستمرًا. فقد فرَّ الرجل المقصود من طليطلة عندما أحس بانكشاف أمره، وتوجه إلى بطليوس Badajoz، حيث انضم إلى أميرها المظفر أبي بكر الذي عينه في ديوانه لقراءة الكتب عليه دون أن يعلم بحقيقته. ولكن قاضي طليطلة لم يتركه، بل أرسل محمد بن لييد مع نسخة من شهادة الفقهاء بوجوب قتله إلى دانية Dania، ومرسية Murcia، والمرية Almeria وغيرها لأخذ أجوبة الفقهاء، بكل حاضرة لإدائته. كما ورد قرطبة أيضًا وأخذ جواب ابن عتاب وغيره، ومن هناك خطب قاضي بطليوس بثبوت ذلك التسجيل على المتهم. وسافر ابن لييد مع اثنين من الشقاة من قرطبة إلى بطليوس، حيث ثبتوا التسجيل عند قاضيهما، فثبرا أميرها المظفر من ابن حاتم، وخاف الأخير، فانهزم إلى سترين Santarín في المغرب، ومنها إلى سرقسطة Zaragoza في الشمال الشرقي، وأخيرًا إلى قرطبة التي وصلها 464 هـ / 1071 م. وقد سمع به المحتسبة، فقصدوا محله وألقوا القبض عليه، وساقوه إلى القاضي محمد بن أحمد منظور، فأمر بسجنه. وبعد التحقق من ثبوت تقييد قاضي طليطلة عليه، نفذ فيه حكم الإعلام بحضور المعتمد بن عباد وهذا يدل على وحدة القضاء كما ذكرنا آنفًا، وعلى دور المحتسبة في البحث عن هؤلاء الملحدين⁽¹⁾.

(1) د. جمعة شبيحة، الشعر الأندلسي، المجلة العربية للثقافة، العدد 27 سبتمبر 1994.

عقد طلاق ومباراة بأشبونة في 512 هـ / 1119 م

(أي في العصر المرابطي)

«بارى عبيد الله بن محمد الأزدي راقي بنت الفقيه أبي الوليد يونس بعد بنائه بها، إذ تفاقمت أمورها واختلفت أهواؤها على أن أسقطت جميع ما كان أمهره لها من كاليء بعد معرفتهما بعدده، وعلى أن صرفت جميع ما كان أمهره لها في كتاب صداقها معه من دور بالوط الغربي الذي من قصبة أشبونة لوالد المباري المذكور، وجنات بنواحي الجهة المذكورة وأرضين بقرى مدينة الأشبونة طائعة بذلك كله، وأمضى ذلك كله من فعلها والدها الفقيه أبو الوليد المذكور وعلى هذا الإسقاط المذكور الموصوف ملكها عبيد الله المذكور أمر نفسها، ولم يبق بين راقي المذكورة وعبيد الله المذكور شيء من الأشياء من جميع الدعاوى والتبعات، وانفردت راقي المذكورة بجميع الثياب المقبوضة منه المكتوبة في كتاب صداقها معه، ولا حق لعبيد الله في جميع الثياب المقبوضة منه كذلك، وكذلك لا حق لعبيد الله المذكور فيما قبل راقي المذكورة ولا قبل أبيها المذكور في شيء من الأشياء من صداق أو تجارة ولا شيء من الأشياء. شهد على إشهاد عبيد الله بن محمد والفقيه يونس على أنفسهما بجميع ما في الكتاب عنهما من سمعه منهما وعرفهما وهما بحال الصحة والجواز، لأربع بقين من شهر شعبان من سنة اثني عشرة وخمسمائة».

«عقد استنجاب بيت رحي بإحدى قرى جيان في 509 هـ / 1116 م».

«بسم الله الرحمن الرحيم: اكترى محمد بن عبد الرحمن بن طارق الأنصاري، وعبد الصمد بن علي الأموي، ومحمد وعلي ابنا عبد الله بن حرب اللخمي، بينهم على السواء والاعتدال، من أحمد بن جزي التجيبي، ومن عبد الله بن ؟ الناظرين للقريش بقرطبة جميع بيت الرحي الدائرة

المعروفة ببيت السانية بقرب الحرب على ضفة وادي بلون من جيان لمدة سبعة أعوام متصلة، أولها منتصف ذي الحجة الأدنى إلى تاريخ هذا الكتاب بمائة مثقال واحدة، وأربعين مثقالاً من الذهب المربطة لوازنة، يدفع منها محمد عبد الرحمن، وعبد الصمد، ومحمد وعلي ابنا عبد الله لهما كورين، لأحمد وعبد الله المذكورين، أو إلى من يجيب له ذلك بسبب القریش المذكور في أرباب القرية وبيت الرحي المذكورين عند انقضاء كل شهر من أول الأمد المذكور مثقالاً واحداً وثلاثي مثقال أداً متوالياً إلى تمام العدد وانصرام الأمد، وعلي ؟ محمد ابن عبد الرحمن، وعبد الرحمن وعبد الصمد الأخوان ومحمد وعلي المذكورين في البيت المذكور أربعة أحجار طاحنة . . وتكون دواليبهما من البلوط بأعمدة حديد ومنصب البيت أربعة من الألواح ويرفعون سد الرحي المذكو بالحجارة والسلك الأوتاد، ويرخج ماؤه في ساقية الرحي، وعلي أن يقيموا في جوفي بيت الرحي اصطبلًا للدواب، سعته مثل بيت الرحي ومتصل بالبيت . . وغطاؤه وغطاء بيت الرحي بالقراميد، ويشكون البرج المتصل ببيت الرحي المذكورة من ناحية الغرب بالحصص وتواصفوا ذلك كله صفة أقاموها مقام العيان، فإذا انقضت المدة المذكورة ترك محمد عبد الرحمن وعبد الصمد، والأخوان محمد وعلي المذكورون الأربعة الأحجار المذكورة طاحنة بآلاتها كلها مستقيمة في جريتها في البيت المذكور للقریش المذكورين أرباب القرية المذكورة، وطاع محمد وعبد الصمد والأخوان محمد وعلي المذكورون بعد تمام الكراء المذكور طوعاً صحيحاً دون شرط، أن يطحن عبد الله وأحمد بن جزي المذكوران في الرحي المذكورة في كل شهر من أشهر الأعوام المذكورة قفيزين من القمح بكيل جيان دون أجر، وعرفوا قدر ذلك. شهد عليهم بذلك من أشهدوه به في صحتهم، وجوار أمورهم في شعبان من سنة تسع وخمسمائة؛ ومن الظواهر الاجتماعية الأخرى التي برزت في

العصور المتأخرة من الوجود العربي في إسبانيا الإسلامية ظهور جماعات من الفقراء ينتحلون ما يسمى بالطريقة الفقية أو طريقة الفقراء، التي اشتهر أهلها بالإباحة وتحليل ما حرم الله، ومنهم من اتهم بالزندقة، حيث كانوا يظهرون الإسلام ويستترون بالكفر، وكان هؤلاء يجتمعون في بعض الزوايا ليلة الجمعة وليلة الإثنين، فيمدحون ويرقصون، وكانوا غالباً ما يتواجدون في الحصون البعيدة عن الحضرة (غرناطة) حيث يقصدون القرى التي غلب على أهلها الجهل، فيزينون لهم طريقتهم التي تشتمل على اللهو واللعب، وأكل أموال الناس بالباطل، وقد شاعت هذه الطرق التي عدها الفقهاء من البدع، فحرموها ومنعوها، وأفتوا بعدم صحة وقف الجبوس على مثل هذا النوع من الفقراء. لقد احتلت حالة المسلمين المدجنين حيزاً لا بأس به من اهتمام نوازل المعيار وكان لفظ (المدجن) يطلق على من بقي من المسلمين في بلادهم بعد أن استولى عليها النصارى، وهو مشتق من (دجن)، أي أقام خاضعاً، غير أنه تحرف على السنة الإسبان في بعض الأحيان إلى (دجل) و(دجر) وصار الموصوف به يسمى (مدجل) أو (مدجر). وعلى هذه الصورة انتقل إلى الإسبانية الدارجة فقالوا (موديخار Mudejar)، واختفى أصله باختفاء اللغة العربية من ألسن المسلمين الذين بقوا لفترة طويلة في أرض النصارى. وقد استخدم هذا اللفظ أيضاً بمعنى معاهد، أي أن المدجنين كانوا بعيدين معاهدين ومنذ القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي فما بعد عرف المدجنون باسم المورييسكيين (Moriscos)، وهو الاصطلاح الذي استخدم لأول مرة لتسمية مسلمي غرناطة بعد سقوطها عام 897 هـ/ 1492 م.

ابتداءً تدجن المسلمين في إسبانيا الإسلامية قبل نحو أربعمئة سنة من عصر الونشريسي، أي في حدود القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. وفي الكتاب نصوص كثيرة عن أحوال هؤلاء المدجنين، لا سيما موقف السلطات

النصرانية منهم، ومدى تأثرهم بالمعاهدات التي كانت تعقد بين الممالك الإسبانية والمسلمين ولم تكن أوضاع المدجنين سيئة حتى بعد سقوط طليطلة 478 هـ / 1085 م، ولكن وضعهم تغير بعد معركة الزلاقة 479 هـ / 1086 م، وما تلاها من صراع مرير بين المسلمين في الأندلس والممالك النصرانية. وقد المدجنون حقوقهم وضمماتهم، واجتهد رجال الدين النصارى في التآليب عليهم، فتعرضوا إلى مختلف أنواع الأذى، فتتصر بعضهم مكرهًا، وهاجر البعض الآخر، بعد أن تركوا في إسبانيا الإسلامية الدور والأراضي والكروم، وغير ذلك من أنواع الأصول، وبذلوا زيادة على ذلك الأموال الوفيرة. وهكذا هاجر الأغنياء بينما بقي الفقراء لعدم تمكنهم من دفع تكاليف الهجرة، فظلوا يعانون العذاب والحرق، وكانوا كالقابضين على الجمر حفاظًا على دينهم. وهؤلاء هم الذين أفتى الونشريسي بعدم صحة بقائهم في إسبانيا الإسلامية وقد ضمن هذه الفتوى في رسالة خاصة في المعيار بعنوان: «أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، وما يشترط عليه من العقوبات والزواج». وذلك ردًا على سؤال عن الحكم في هؤلاء الباقين في الأندلس، وقد وصفهم بالكفر والعصيان، دون أن يقدر ظروفهم، وأن أغليتهم كانت عاجزة عن الرحلة والهجرة التي لم تكن هينة على رغبة المسلم فحسب، بل كانت أمرًا عسيرًا حافلًا بالصعوبات والمخاطر والمكاره، إذ كان لا بد للمهاجر أن يؤدي قدرًا من المال حتى تأذن له السلطات بالانتقال. وكانت الطرق غير آمنة، فإذا ما سار المهاجر عن وطنه لم يأمن أن يسطو عليه من يلقاه ويسقطه أو يأسره ويسبيعه وأولاده يبيع الرقيق. يضاف إلى ذلك، خطر البحر الذي لا تأمن فيه السفن الصغيرة التي يستطيع أولئك المهاجرون أن يركبوا فيها. وكان رجال الدولة في الموانئ لا يطلقونه حتى يدفع لهم مبلغًا من المال. فإذا كتبت للمهاجر السلامة والوصول إلى البر المغربي، وجد

صعوبات كثيرة في الرزق والتأقلم مع البيئة الجديدة، ويدل على هذا شكوى بعض المهاجرين التي جاءت في السؤال الموجه إلى الونشريسي. ويضاف إلى كل هذه المعوقات صعوبة مفارقة الوطن، وترك الديار التي عاش فيها هؤلاء وأجدادهم مئات السنين. لقد غابت كل هذه النواحي الإنسانية عن صاحب الفتوى، وكان لفتوى الونشريسي وأمثالها أسوأ الأثر على مصير الجماعات الإسلامية الباقية في الأندلس، فقد حكم عليها بالكفر وهي مقيمة في الجحيم الذي كانت فيه. لقد كان هؤلاء مضطهدين من أعدائهم ومظلومين من أهل دينهم الذين أفتوا بكفرهم وعدم جواز البيع والشراء معهم، ولا السلام عليهم، واعتبارهم كأهل الأهواء الذين لا تجوز شهادتهم⁽¹⁾.

مظاهر الحياة الاجتماعية،

في إطار سيادة الرؤيا التي تختزل تناقضات إسبانيا الإسلامية في الصراعات الحضارية والدينية، من الطبيعي أن يميل الجدل عن رصد مظاهر الحياة الاجتماعية في علاقتها بالبناء الاجتماعي الداخلي ويتطور الأنماط الاقتصادية، إلى البحث في المشرق الإسلامي والغرب الأوروبي والماضي الأيسري، عن العناصر التي تؤكد هذا التحليل أو ذاك. ولعل في ندرة وتشتيت المادة التاريخية، ما ساعد في ذلك. فـ «المتنوع لمظاهر الحياة الاجتماعية يجد صعوبة كبيرة في جمع معلومات دقيقة عن هذا الجانب الهام» من ثم الاكتفاء برأي عام مفاده أن الحضارة الأندلسية حملت خليطاً من المؤثرات: مشرقية، مغربية، بربرية، ومحلية أوروبية. في ظل هذا التعميم، من السهولة الإقرار بتعدد اللغات المتداولة بإسبانيا الإسلامية غير أن هذا لا يفيد كثيراً في الكشف عن حقيقة الوضع الاجتماعي. وهو ما حاول أحد

(1) جمعة شبيحة - نفس المرجع ص 105.

الدارسين تجاوزه في إقراره بأن الرومانسية هي لغة التخاطب الوحيدة لدى العامة. وقد اتخذت المدرسة التقليدية من هذه الفكرة حجة لتأكيد استمرارية الحضارة الأيبيرية - المسيحية بما يتناقض مع ما توصلنا إليه من نتائج بصدد التركيب الطائفي للعامة.

حقيقة استمرت بعض الجماعات متميزة لغوياً. فكان دار بلى «لا يحسنون الكلام باللطينية، لكن بالعربية فقط وبالمثل، نعتت الطائفة الصقلية في الجبش بـ «فرسان الخرس» لعدم تمكنهم من اللغة المتداولة. كما أن «من سمع لغة أهل فحوص البلوط وهي على ليلة واحدة من قرطبة كاد يقول إنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة» وفي طليطلة، كان أحد الفقهاء «يقول إذا سئل عن من لا يحسن العربية إذا أعربتم أعمالكم ما ضركم كلامكم» إن في هذا ما يؤكد استمرار الاختلافات اللغوية على الصعيد الإقليمي. لكنها انحصرت على ما يبدو في بعض البوادي والمدن الهامشية. ولا غرو، فنفس النصوص، تنم عن اتساع ظاهرة ازدواجية اللغوية، وإقبال الجميع على اتخاذ العربية قاعدة للتخاطب. وهو ما أفصح عنه ألبرو القرطبي بالقول: «يا للحرسة، إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب» وأكد ابن خلدون إذ قال: «وهجر الأمم لغاتهم وألستهم في جميع الأمصار والممالك، وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم ومدنهم وصارت الألسنة العجمية دخيلة فيها وغريبة». هكذا فالتداخل الاثنى في إطار الحضارة العربية الإسلامية، أفرز على المستوى الشعبي لهجة عامية للتخاطب، اتخذت من العربية عمودها الفقري، وطعمت بكلمات ونبرات متنوعة الأصول. يكشف عن ذلك ابن حزم بالقول: «نجد العامة قد بدلت الألفاظ في اللغة العربية تبديلاً، وهو من البعد عن أصل الكلمة كلغة أخرى ولا فرق، فنجدهم يقولون في العنب، العينب وفي السوط أسطوط وفي ثلاثة

دنانير ثلثدا. وإذا تعرب البربري فأراد أن يقول الشجرة قال السجرة. وإذا تعرب الجليقي أبدل العين والحاء هاء». إن في هذا ما ينم عن شيوع استعمالها كلغة للتخاطب من طرف الجميع. وذلك على «حساب الرومانس» الذي تراجع بشكل ملحوظ على ما يبدو. أكد ذلك المقرئ في قوله: «إن كلام أهل إسبانيا الإسلامية الشائع في الخواص والعوام كثير التحريف عما تقتضيه أوضاع العربية». لذلك تسابق النحاة على التأليف في «لحن العامة» خوفاً من تأثيرها على قواعد اللغة الفصحى. ولا غرو، فقد بلغت من الشيوع أن اتخذ أحدهم من ألفاظها مدخلا لكتابه في المنطق، وهي «طريقة لم يسلكها قبله أحد». من المشاع أن الامية خاصة ملازمة للعامة في المجتمعات الإسلامية الوسيطة. فهم «جاهلون لم يستضيؤا بنور العلم» ومشهورون بعدائهم للفكر العلمي والفلسفي والاتجاهات العقلانية، ومتشبهون بالخرافات والشعوذة وهو الوضع الأنسب للحفاظ عليهم تحت السيطرة الفكرية للفقهاء وأهل القلم. لذلك فغالباً ما حذر هؤلاء من تعليمهم، معتبرين «تفقه الرعاع فساد الدنيا، وتفقه السفلة فساد الدين» مع ذلك، فمن القرائن ما يدعو إلى التحفظ من تعميم هذا الاعتقاد على كل الفترات. فالمعلومات بصدد إسبانيا الإسلامية الخلافة، ضافية عن الاهتمام الكبير الذي أولاه الخلفاء للعلم والثقافة، وتشجيعهم لتعميمها في مختلف الأوساط. هكذا، اتخذوا «المؤدبين يُعلِّمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حوالي المسجد الجامع ويكل رضى من أرباض قرطبة» وأجروا عليهم «المرتب» كما «حبس الحكم حوانيت السراجين بقرطبة على المعلمين لأولاد الضعفاء حتى تيفت عدد الكتابيب التي استحدثها، عن سبعة وعشرين» بصرف النظر عما كان موجوداً قبله، إضافة لعدد هائل من الدكاكين والدور والمكاتب المخصصة للتعليم بالاجرة.

اقتصرت برامج هذه المؤسسات، على تعليم القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن لذلك لم يطالب المعلمون بكفاءات عالية. فقد ذكر ابن حزم «مقرنين ثلاثة للامة» لا يحسنون «النحو» مما عرضهم أحياناً لاستخفاف وسخرية أهل القلم، إلى حد اتهامهم بالجهل ووصفهم بالخمير في حين اعترز المؤدبون بشرف مهمتهم وقداصة برامجهم التعليمية. على أي، فالحديث عن وجود معلمين للامة واتخاذ مفهوم العامة، صفة لمجموع التعليم الابتدائي دليل عن مدى شيوع التعلم في أوساط الطبقات الدنيا. وهو ما عبر عنه أحد الدارسين بالقول: «وكان أبناء الشعب جميعاً يعرفون القراءة والكتابة». مصداق ذلك، شهادة المقرري بأنهم كانوا «يقرأون لأن يعلموا لا لأن يأخذوا جاريًا»، وأكدته المقدسي بقوله: أنهم «يحبون العلم وأهله». تنم هذه النصوص عن تجاوز العامة في تطلعاتهم الثقافية لمجرد القراءة والكتابة. وهو ما أكدته ابن الفرضي فيما أورده عن محدث قرطبي «كان عوام الناس والمحسبة يجتمعون إليه ويسمعون منه». ينطبق نفس الشيء على بقية المعارف، فشر الرمادي، على سبيل المثال، كان «مشهوراً عند العامة». لم تقتصر مشاركة العامة في الحياة الثقافية على استهلاك ما هو سائد، بل تجاورته إلى الإنتاج. فقد أورد ابن بشكول بيتاً شعرياً من نظم امرأة عامية، لم يجد أحد الفقهاء غضاضة في الاعتراف لها بالفضل، إذ قال: «فحفظت عنها الشعر». وبالمثل، روى الحشني تفاصيل قصة «مشورة مستفيضة عند العامة». أي اتخذهم مصدراً لكتابات. وهو ما ينطبق على ابن سعيد، الذي أورد حكايات شعبية، قائلاً: «لولا كثرة ذكر العامة لها بالأندلس ما ذكرتها في حين لم يتردد غيره عن تأنيب أحد طلابه بالقول: «رجعت تأخذ اللغة عن أهل الزمر». وفي نص للمقرري ما يكشف عن مدى غزارة وأهمية الإنتاج الثقافي العامي، إذ يقول: «ولشطار الأندلس من النوادر والتكنيكات والتركيبات وأنواع المضحكات ما تملأ

الدواوين كثرت وتضحك الثكلى وتسلي المسلوب قصته، مما لو سمعه الجاحظ لم يعظم عنده ما حكى وما ركب. إلا أن مؤلفي هذا الأفق طمحت همهم عن التصنيف في هذا الشأن فكاد يمر ضياعاً. ولعل فيما وصلنا من أمثالهم ما يدل على أهمية هذه الثقافة الشعبية المهمة لدى القدماء والمحدثين على السواء. ويبدو أن ما عرف بالزجل في أدب إسبانيا الإسلامية كان في بداية نشأته، ابتكاراً عامياً، يقول ابن قزمان: «وجد في الأندلس ضربان من الزجل جنباً إلى جنب: أولهما شعبي خالص جاف غليظ يستعمل الزجالون فيه اللغة الدارجة وعجمية أهل إسبانيا الإسلامية وكان يوافق أذواق العوام، وثانيهما مصقول مهذب مصطنع متكلف ولم يبق من النوع الأول شيء لأن مصنفي الكتب ازدروه وضربوا عنه صفحاً». صفوة القول: أن الاهتمام بتثقيف أوسع الجماهير، وإقبال هؤلاء على ثقافة عصرهم في ظل النظم المتبرجزة، إضافة لاشتراكهم في الإنتاج الثقافي، من شأنه إسقاط احتكار العلم من طرف النخبة والإسهام في الرق الاجتماعي والاستنارة الفكرية والتقدم الحضاري. من ثم ضرورة التحفظ من الاعتقاد بسطوة الفقهاء على عقول العامة خلال عصر الخلافة. من جهة أخرى، فتوفر العامة على ثقافة متميزة من شأنه أن يساهم في طمس الاختلافات العرقية والأثنية، ويعمل على تهدير الشعور بالانتماء. وفي الحياة الاجتماعية من المظاهر، ما ينطبق بهذه الحقيقة. وقد وفرت عنا بعض الدراسات مؤونة حصر العادات والتقاليد المحلية التي تلاشت تحت تأثير الحضارة العربية، وتلك التي استمرت وبالمثل فلا حاجة إلى تعداد المؤثرات الاجتماعية والتقاليد المسماة «مشرقية» التي أصبحت سارية المفعول لدى جميع العناصر. مع ذلك، فمن الملاحظ، أن أغلب الدراسات تعاملت مع العادات والتقاليد، وكأنها مواد جاهزة ذات تركيبة معينة. فتلك إسلامية شرقية، وهذه غربية مسيحية. بذلك انحصر الجدل في تحديد كمية الجرعة

التي تناولها المجتمع الأندلسي من كلا المادتين. في حين، يبدو أن انهيار العلاقات الإقطاعية، والقبلية - العشائرية، وتراجع الشعور الإقليمي - العرقي، ونهج سياسة التسامح الديني والمذهبي، قد وفر الأساس الموضوعي لتطور العادات والتقاليد الاجتماعية على قاعدة التفاعل الحضاري. وذلك على الرغم من اختصاصات خطة الحسبة في مراقبة الأخلاق العامة، وفق منظور إسلامي - مالكي.

أورد الطرطوشي قوله دالة عن صحة هذا المنحنى، نصها: «ومن البدع اجتماع الناس بأرض إسبانيا الإسلامية على ابتياع الحلوى ليلة سبع وعشرين من رمضان وكذلك على إقامة ينير بابتياع الفواكه كالعجم وإقامة العنصرة وخميس أبريل بشراء المجنات والإسفنج وهي من الأطعمة المبتدعة وخروج الرجال جميعاً أو اثنتان مع النساء مختلطين للتفرج، وكذلك يفعلون في أيام العيد ويخرجون للمصلى ويقمن فيه للتفرج لا للصلاة ودخول الحمام للنساء مع الكتائيات بغير مزر والمسلمين مع الكفار في الحمام. إن هذا النص غني عن البيان. فإلى جانب تأكيده على انهيار الحواجز الاجتماعية التي تفصل لأسباب دينية أو عرقية أو طائفية بين العناصر السكانية المختلفة، يتضح بأن الأعياد الدينية، إسلامية ومسيحية، قد فقدت كثيراً من مضمونها الأصلي لتصبح مناسبات للفرح العام وللتآخي، ورمزوا للحياة الأندلسية الجديدة، في إطار الحضارة العربية الإسلامية. ومن الأعياد ما أصبح لها طابع اقتصادي مثل النيروز والعنصرة اللذين يوافقان على التوالي الانقلابين الشتوي والصيفي. وهو ما أكدته العوام في أمثالهم وزكاه عريب بن سعد في ربطه الأعياد بالمواسم الفلاحية⁽¹⁾. في نفس الوقت، ازداد التمايز على أساس

(1) د. أحمد الطاهري - المرجع السابق ص 177.

طبقي، اتساعاً. فلتأخذ على سبيل المثال، عادة التردد على الحمامات، التي نيف عددها بقرطبة عن «سبعمئة حمام» لنلاحظ بأنه في الوقت الذي سمح لأهل الذمة بالاختلاط مع المسلمين، منع العامة، الذين خصصت لهم حماماتهم عن دخول حمامات الخاصة، لذلك، فلما انتهى الناصر من بناء الزهراء، جعل «فيها حمامان: واحد للقصر، وثان للعامة وبالمثل كان الركوب مقياساً للانتماء الطبقي يقول ابن حوقل «ولا يعرف فيهم المهنة والمشى إلا أهل الصنائع والارذال». واضح إذًا بأن الشعور بالانتماء الطبقي، كان أقوى من أي شعور آخر، ولو في أبسط مظاهر الحياة الاجتماعية. من المتعارف عليه، إن الفقهاء كانوا متشددين على أهل الذمة، كي يتميزوا باللباس عن المسلمين وليس هناك - على ما يبدو - دليل عن تنفيذ الخلافة الأموية لكل توصياتهم بهذا الصدد. حقيقة، أشار المقرئ إلى أن الصوف الملونة بالأصفر «مخصصة باليهود ولا سبيل إلى يهودي أن يعتنم». مع ذلك ركز في حديثه على إبراز اختلاف الأزياء على الصعيد الإقليمي والمهني وبالمثل، لم يجد الضبي من اختلاف، إلا فيما بين أزياء أهل البوادي والمدن، وفي حديث للمقرئ عن ملابس «يستعملها أهل إسبانيا الإسلامية من المسلمين والنصارى»، ما يدل على تخليهم عن التوصيات السالفة. على العكس، يبدو أن الأحداث كانوا ملزمين باتخاذ زي خاص. يقول ابن عبدون «يجب أن لا يمشي الطيّاب ولا الحكاك ولا الحجام في الحمام إلا بالثياب وسراويلات». كما تحدث غيره عن وجود «زي الحدائق» بإسبانيا الإسلامية. أثارت الحريات التي تمتعت بها المرأة الأندلسية، اهتمام كثير من الدارسين الأجانب باعتبارها لديهم ظاهرة غريبة عن المجتمعات الإسلامية، والحلقة الضعيفة التي من خلالها يمكن الدفاع عن مقولة صمود التقاليد المسيحية وتلاشي نظيراتها العربية الإسلامية. إن اعتماد هؤلاء على النصوص الدينية النظرية وإسقاطهم للتطورات التي عرفت أوروبا

الحديثة، على ماضي إسبانيا الإسلامية حجب عنهم الأسباب الكامنة وراء هذه الظاهرة. أما أن تكون المرأة الأندلسية، قد حصلت على حريات هامة بالنسبة لعصرها، فهذا ما تكشف عنه مظاهر شتى. فإلى جانب السماح لها بمرودة الأماكن العمومية مثل سوق الغزل والكتان وشطوط الأنهار وأبواب حمامات النساء و«مجتمع النساء» عند باب العطارين، كان لهن الحق في التجول بمختلف مرافق العاصمة، على أن يكون موضعاً ينظر إليه وترمقه الأبصار بصرف النظر عن مشاركتهم في مختلف التظاهرات والمهرجانات والحفلات العامة. على أن أهم مظهر لتحررهن من التدجين، مشاركتهن الفعالة في النشاط الاقتصادي. فازدهار التجارة بقرطبة وشيوع التعامل النقدي والتطور المدني، مع ما يتبع ذلك من تزايد في حاجيات الأسرة، دفع بالكثير من النساء إلى عرض خدماتهن مقابل أجر. وهو ما كشف عنه ابن حزم بالقول: «فمن النساء كالطبية والحجامة والسراقة والدلالة والمأشطة والنائحة والمغنية والكاهنة والمعلمة والمستخفة والصناع في المغزل والنسيج وما أشبه ذلك». والجدير بالذكر أن العمل في قطاع الغزل والنسيج، لا يدخل في نطاق الأشغال المنزلية، التي اعتبرت من طرف الدارسين أشد الأشغال استرقاقاً، علماً بالتطورات التي مست العلاقات الإنتاجية خلال عصر الخلافة. وليس أدل على ذلك، من تأكيد المصادر عن علاقة الأجرة التي تربطهن بالمشتغلين. وفي البوادي ساهمت النساء في تقديم خدماتهن المأجورة للتجار والمسافرين إضافة للعمل الفلاحي المنتج. يقول أبو الخير «وما تقلعه النساء باليد دون الذراع يكسرن في الخيوط مقدار أجورهن». كما ساهم الازدهار الثقافي في تحرير النساء من الأشغال المنزلية. ولقد أورد ابن بشكوال تراجم لعدد من اللواتي اشتهرن في مختلف فروع العلم والمعرفة، بما في ذلك العلوم الدينية، بل ومنهن من تصوفت وزهدت في الدنيا. ومنهن من

بلغت من الشهرة أن تقاطر عليها طلاب العلم من مختلف الجهات، وقد ذكر ابن بشكوال شاعرة كانت «تخالط الشعراء وتساجل الأدباء وتفرق البرعاء». مع ذلك استمرت للحجاب أهميته الاجتماعية، كما يستفاد مما أورده الخشنى بالقول: «أخبرتني امرأة صالحة من أهل الاستار». وهو ما أكده كثير من أمثال العوام، ويبدو أن الطبقة الأرستقراطية وحدها التي كانت أجنح إلى التمسك به. فقد تحدث ابن حزم عن امرأة «عالية المنصب غليظة الحجاب»، وعن «ربات القصور المحجوبات من أهل البيوتات». نخلص إلى أن جميع مظاهر الحياة الاجتماعية تكشف عن تلك التطورات العميقة التي عرفتھا أندلس الخلافة⁽¹⁾.



(1) د. أحمد الطاهري - نفس المرجع السابق ص 180.

المجتمع الإسلامي في إشبيلية

يمكن اعتبار الفترة الإسلامية لمدينة إشبيلية أهم فترة في تاريخ هذه المدينة الممتد عبر العصور، بدءاً بالأزمنة شبه الأسطورية (Tartessian Times). ورغم ذلك فإن الخمسمائة عام وما يزيد (92 - 712 هـ / 1248 م) التي كانت فيها المدينة والمنطقة المحيطة بها جزءاً صميمًا من الحضارة العربية - الإسلامية يجب أن ينظر إليها - في اعتقادي - على أنها محض مرحلة ساهمت، كما ساهم غيرها من المراحل، في تكوين إشبيلية كما هي اليوم، أو كما كانت في المراحل التالية للمرحلة موضوع الدراسة الحالية. أما إشبيلية كما كانت في أوج العصور الوسطى فإنها إحدى صور هذه المدينة التي يجب أن ينظر إليها جنبًا إلى جنب مع مدينة هسبالس (Hispalis) الرومية أو العاصمة التي أضحت صلة الوصل مع العالم الجديد منذ عام 1492 م. وحقيقة الأمر أن إشبيلية الإسلامية برزت من نواة مدنيّة مكتملة، وذات تراث حضاري محدد المعالم. وبسبب من موقعها وسط السهول الخصبة على ضفاف نهر الوادي الكبير، في الموقع الذي يصبح فيه النهر غير صالح للملاحة، فقد استقطبت الاستيطان البشري منذ قيام الأزمنة، كما أن العناصر المكونة لتراثها هذا (ما قبل الرومية، والبيزنطية أو المشرقية، والرومية والقوطية القديمة (Visigothic) قد زودتها، حتى في هذه المرحلة المبكرة، بأساس يتسع لاندماج الحضارات الجديدة. تلك كانت المدينة التي أضاف إليها الإسلام مساهمته في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي بحيث أصبحت مختلفة جذريًا عندما أتاها المستوطنون المسيحيون في القرن الثالث عشر الميلادي لتركوا بدورهم تأثيرهم فيها. وتعكس تحركات السكان في زمن الفتح العربي عنصر الاستمرارية هذا. وكما كان الحال على الأغلب في البلدان العربية القروسطية، فإن فتح إشبيلية

لم يأت بقوة السلاح بل عن طريق الاتفاقيات. وهذا ما مكن من قيام علاقات حميمة سريعة بين الأقلية العربية الغالبة من جهة وحكام هسبالس الفيزقوطيين من جهة أخرى. وفي الواقع، وعبر تاريخ إشبيلية، نجد أن غالبية القادة في الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية كانوا من سلالة سارة القوطية سليلة الملك الفيزقوطي غيطشة (Witiza) وإحدى قريبات آخر أساقفة المدينة قبل عام 711 م، وزوجها عمير بن سعيد أحد فاتحي إشبيلية العرب والمنحدر من قبيلة لخمىة. أما البنية الاقتصادية والاجتماعية لإشبيلية الإسلامية فقد كانت تقوم - كما كان الحال في إسبانيا الإسلامية كلها وفي باقي العالم الإسلامي في ذلك الوقت - على القبيلة العربية، كما كانت القوة السياسية بيد الأرستقراطية العربية. ولكن يجب القول إن الجزء الأكبر من السكان في القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين، الذين حكمهم الأمراء والخلفاء الأمويون كانوا إما من المولدين الأندلسيين أو ممن اعتنقوا الإسلام واندمجوا في البنية القبلية العربية. وأصبحت المدينة أول عاصمة لإسبانيا الإسلامية أو لذلك الجزء من شبه الجزيرة الأيبيرية الذي كان بيد المسلمين، ولكن سرعان ما انتقلت العاصمة إلى قرطبة لأفضلية موقعها بالنسبة لحكومة شبه الجزيرة كلها. وفي القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وتحت إمرة المرابطين والموحدين استعادت إشبيلية مكانتها كعاصمة حيث كانت الحدود مع المملكة القشتالية قد تراجعت نحو الجنوب في ذلك الوقت نتيجة للغزو المسيحي. تلك كانت الفترة التي أصبحت فيها العلاقات مع المغرب العربي على أفضل حال، وأخذ ميناء إشبيلية يسر تحركاً أوسع للناس والبضائع بين شبه الجزيرة والمغرب، كما كان يتمتع بميزة القرب من مضيق جبل طارق. نتجت هذه الأغلبية الاجتماعية عن مجموعة دقيقة جداً من العوامل التي شملت معتنقي الإسلام عن طريق موثيق الحماية، وهي

عوامل نابعة بشكل رئيسي من التراث العربي، إذ ليس لدينا معلومات تفيد بوجود أي استيطان بربري ذي بال في منطقة إشبيلية. وقد تعزز الفاسخون الذين دخلوا البلاد عام 94 هـ/ 712 م بفرق من جند بلج ابن بشر من بلاد الشام الذين قدموا إلى شبه الجزيرة كي يضربوا ثورات عرب العاربة البربر التي عمت أراضي إسبانيا الإسلامية بأسرها، وكان الذين استقروا من هؤلاء الجند في إشبيلية من المدينة الشامية حمص. وكما كان حال الهجرة العربية اللاحقة (التي كان الحكام الأمويون يؤيدونها) فإن معظم هؤلاء الجند كانوا ينتمون إلى قبائل عربية يمانية، أي أنهم أتوا أصلاً من الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية، بل إن اليمانيين في الحقيقة شكلوا أكثر الجماعات القبلية عدداً وعدة في منطقة إشبيلية وفي غرب البلاد بأسرها، وهذا ما يتمثل في ولاية أول أمير أموي: عبد الرحمن الداخل، وفي الثورات التي انتشرت خلال حكم الأمير عبد الله. وهذه الفترة الأخيرة، أي القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، فترة مهمة في تاريخ إشبيلية المسلمة وإسبانيا الإسلامية بأسرها. أما الأزمة التي أثارها اندماج العناصر الهسبانية مع السكان المسلمين فقد كانت من نوع مختلف جوهرياً عن تلك التي قامت في المشرق، حيث أدى صعود المسلمين الآخرين إلى السلطة السيامية، التي كانت حتى ذلك الوقت حكراً على العرب، في 133 هـ/ 750 م إلى أن يحل العباسيون محل السلالة الأموية في الحكم، لا بل إن سياسة إسبانيا الإسلامية ظهرت إلى الوجود بعد قرن من الزمان ونشأت عن آليات اجتماعية أكثر مرونة وتشابكاً وهكذا استطاعت الأسرة الأموية في إسبانيا الإسلامية بعد فترة من المصاعب الكبيرة ما بين عامي 251 - 330 هـ/ 912 م أن تحتفظ بحكم فعال في شعب إسباني مسلم انصهرت فيه العناصر العربية والهسبانية كما أشرنا سابقاً. غير أنه لم يدن بالإسلام جميع سكان إشبيلية الإسلامية؛ فضمن إطار حضاري عام يمكن

وسمه بالعربي - الأندلسي أو إسبانيا الإسلامية، كان يوجد هناك لزمن طويل - وربما طوال الفترة موضوع البحث - أقليتان إحداهما مسيحية والأخرى يهودية. وهذا الوضع؛ مثله مثل العملية المنسجمة لدخول الناس في الإسلام وترسيخ جماعة الأغلبية التي وصفناها فيما سبق، يعد دلالة على روح التسامح التي تميز بها تاريخ إسبانيا الإسلامية. وحيث لا يوجد لدينا سوى إشارات قليلة جداً للأقلية اليهودية في إسبانيا الإسلامية فإن الصورة تختلف تماماً بالنسبة للمستعربة، أي المسيحيين الهسبانو قوطيين الذين احتفظوا بديانتهم (في 94 هـ/ 712 م شكّل هؤلاء المسيحيون غالبية السكان ولكن العديد منهم اعتنقوا الإسلام فيما بعد. وكانت المدينة مقر رئيس أساقفة إسبانيا الإسلامية، وهو الرئيس المنظور للجماعة المسيحية في إسبانيا الإسلامية ولدينا قائمة بأسماء رؤساء الأساقفة حتى العام 542 هـ/ 1147 م عندما دخل الموحدون شبه الجزيرة، رغم أنه كان من شبه المؤكد وجود جماعات من المستعربة في منطقة إشبيلية بعد هذا التاريخ. وكان للجماعة (المسيحية) أعيادهم الخاصة كعيد أسقف إشبيلية القديس إيزيدور (Isidore)، الذي كان يحتفل به في الرابع من إبريل أما الأسقف ريكاfrd (Reccafred) وهو أحد الذين خلفوه خلال الحقبة العربية، فقد ترأس مجلس قرطبة في عام 237 - 238 هـ/ 852 م الذي وضع حداً لثورات المستعربة في عاصمة الخلافة الأموية وقد ذكر الفونسو العاشر الأسقف دون خوان (Don Juan) الذي ترجم الكتاب المقدس إلى العربية. وهناك رجالان آخران مهمان وكلاهما كان أسقفًا لمدينة إشبيلية وهما عباس ابن المنذر الذي أرسله الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث (الناصر) سفيراً إلى بلاط راميرو الثاني (Ramero II) في أراغون (Aragon) وعبيد الله بن قاسم وكان معاصراً للخليفة الحكم الثاني وقد عاش هذان الأسقفان في فترة تم فيها إلى حد كبير تعريب جماعة المستعربة ضمن حضارة

إسبانيا الإسلامية عامة حيث كان الخليفة في قرطبة هو في الحقيقة «أمير المؤمنين».

وفي القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، خلال الخلافة الأموية ذاتها شهدت إشبيلية فترة مبكرة من التآلق عكست ازدهار الذي تمتعت به البلاد بأسرها في وقت كانت فيه إسبانيا الإسلامية القوة الرئيسية في غربي المتوسط، وكان لها تأثير لا يستهان به في أوروبا المسيحية والمغرب. وكان أبو محمد الزبيدي (314 - 379 هـ / 926 - 989 م) أحد الشخصيات المهمة في إشبيلية في ذلك الزمن، وكان قاضياً شهيراً ولغوياً ومؤيداً خاصاً للخليفة هشام الثاني، وإضافة إلى مؤلفاته في فقه اللغة والتاريخ ومنها كتاب عن العربية المحكية في إسبانيا الإسلامية فقد كان له عدد من القصائد التي كتبت بروح إسبانيا الإسلامية ذات آفاق واسعة ومنفتحة. وقد عاصر الزبيدي قاض آخر لإشبيلية لعب فيما بعد دوراً بارزاً في إسبانيا الإسلامية وهو محمد بن عبد الله بن أبي عامر، الذي دعى المنصور فيما بعد، وكان حاكم البلاد الحقيقي المؤثر في عهد هشام الثاني. ورغم تولي المنصور عدداً متزايداً من المناصب في بلاط الخليفة فقد احتفظ بمنصبه قاضياً لإشبيلية حتى أواخر أيامه تقريباً. ونظراً لأهمية هذا المنصب الاقتصادية فقد كان يدير الأوقاف، أي ممتلكات المؤسسات الدينية. وهناك ما يدعو إلى الظن أنه، في منطقة إشبيلية على الأقل، كان من الممكن الالتفاف حول نظام الوراثة في الشريعة الإسلامية (حيث تقسم الأملاك بين جميع ورثة المتوفي) باستخدام نظام الوقف، وكان من نتيجة ذلك أن أماكن حصر أملاك الأسرة كلها في يد شخص واحد. وهذا يمكن أن يفسر استمرار الملكية الواسعة للأراضي من الحقبة القوطية القديمة وحتى العصور المسيحية المتأخرة. بالنظر إلى ما تقدم، ليس من المستغرب أن يستولي القاضي محمد بن عباد على السلطة في إشبيلية وفي

غرب إسبانيا الإسلامية عند سقوط الخلافة الأموية في قرطبة. ويبدأ بحكمه في 414 هـ/ 1023 م عهد في تاريخ إسبانيا الإسلامية، وهو ما عرف بعهد ممالك الطوائف الذي تجزأ فيه كيان إسبانيا الإسلامية الثقافي والاقتصادي إلى دويلات. وربما كان القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي من أكثر الحقب أهمية في العصور الوسطى، فهو يمثل إسبانيا في عهد رودريغو دياز بيبار، السيد (Rodrigo Diaz de Vivar, El Cid). وقد أقامت الممالك المسلمة والمسيحية المختلفة التي شكلت البنية السياسية لشبه الجزيرة الأيبيرية شبكة غنية ومتداخلة من العلاقات في ما بينها. وكانت ممالك إسبانيا الإسلامية تشهد فترة من الازدهار الحضاري وازدهار ضعف عسكري وسياسي في مواجهة الدول المسيحية، الأمر الذي جعل قدوم المرابطين أمراً محتتماً في النهاية. وشيئاً فشيئاً ضمت إشبيلية المناطق المجاورة (قرمونة Carmona) قرطبة، إسيجية (Ecija)، مورون (Moron)، الجزيرة الخضراء (Algeciras) لبله (Niebla)، ... إلخ فتتج عن ذلك توسع المساحة الجغرافية للمدينة بعد أن كانت محصورة في حدودها الاقتصادية والاجتماعية وحسب. ونلاحظ في ذلك الوقت تحول إشبيلية إلى مركز علمي وأدبي من الطراز الأول، حيث أخذ الفلكيون والشعراء والفلاسفة يؤمنونها من جميع أطراف إسبانيا الإسلامية طلباً للدعم من البلاط العبادي تحت رعاية الملكين المعتضد والمعتد. وعند النظر في هذه الفترة، كما هو الحال في تاريخ إشبيلية برمتها فإن الذهن يقفز في الحال إلى الشعراء، غير أن المدينة الآن اجتذبت كذلك الباحثين من جميع الأصناف كما حدث فيما بعد، أيام الموحدين. ويبدو أحياناً كأن أعمال ابن عمار من أهل شلبه (Silves) أو ابن زيدون أو ابن حزم أو أبيات المعتد نفسه هي وحدها التي تناقلتها الأجيال اللاحقة. وفي عام 488 هـ/ 1095 م كان مقدراً للمعتد أن يتوفى في أغمات (قرب فاس في المغرب اليوم). وكان المرابطون قبل ذلك

بأربعة أعوام وبعد غزوهم المغرب العربي قد دخلوا إسبانيا الإسلامية بطلب من ملوك الطوائف (حيث إنهم وحدهم كانوا القادرين على احتواء التقدم المسيحي). وكما حدث مع الموحدين، أي البربر من بني مصمودة الذين استولوا على المناطق الإسلامية في شبه الجزيرة عام 542 هـ / 1147 م فإن وجودهم قد زاد من عنصر المغرب العربي في حضارة إسبانيا الإسلامية. وربما يكون أكثر دقة أن نقول إن تراث إسبانيا الإسلامية المتراكم استطاع بطريقة ما أن يجعل اندماج المرابطين والموحدين فيه ممكناً، فالخلفاء، من كلتا السلالتين، الذين اختاروا إشبيلية عاصمة إسبانيا الإسلامية لهم وعكفوا في النهاية من هضم الأوجه الحضارية في إسبانيا الإسلامية. وبالرغم من جميع الاعتراضات التي كان يطلقها علماء المرابطين فإن الشعور لم يختف في القرن الهجري الخامس/ الحادي عشر الميلادي وهؤلاء العلماء أنفسهم، الذين أدانوا الموسيقى الناشئة في إشبيلية على أنها معادية للإسلام، شهدوا في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي تطوراً نهائياً بصيغة انتقلت بها عن طريق غرناطة في عهد بني نصر إلى المغرب العربي حيث ما زالت تعرف حتى يومنا هذا بالموسيقى الإسبانية الإسلامية وهكذا تم اندماج هذه القبائل من المغرب العربي في حضارة إسبانيا الإسلامية العربية الإسلامية الوسيطة. وفي الحقيقة شكّلت إسبانيا الإسلامية والمغرب جزءاً من منطقة حضارية واحدة منذ القرن الهجري الثاني/ الثامن الميلادي وكان هناك اتصال كثيف بين المنطقتين إلا أن العلاقات خلال هذه الفترة اتسعت كثيراً. بحيث لم يكن هناك فرق بين أن ينصرف الدارسون إلى أبحاثهم في غرناطة أو فاس، في الرباط أو قرطبة. كما حكم الخلفاء إمبراطوريتهم الشاملة إما من مراكش أو من إشبيلية. أما التجار فقد سيروا أعمالهم على جانبي مضيق جبل طارق، سواءً بسواء.

تمثل مرحلة المرابطين - الموحدين التشكيل النهائي لإشبيلية في الحقبة العربية؛ فلم تتوسع حدود المدينة المتوارثة منذ القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي حتى الأزمنة الحديثة. وقد أضفى الخليفة أبو يعقوب يوسف الشاهد وأبو يوسف يعقوب المنصور على إشبيلية الخطوط الرئيسية لتطورها المدني العام إضافة إلى أهم مبانيها. ثم أصبحت موطن ابن رشد، وأسرة ابن زهر والمتصوفة من إقليم الشرف (Aljarafe) الذين كانت حياتهم وخبراتهم تجسداً بارزاً للثروة الروحية الإسلامية. وكان أبو بكر محمد بن العربي (467 - 543 هـ/ 1075 - 1148 م) وهو أحد أبرز شخصيات إشبيلية مسئولاً عن بناء أسوارها، ويذكره ابن خلدون نفسه كشخصية رئيسية في تاريخ التربية الإسلامية. ويكشف منهاجه الدراسي بوضوح عن الرقي الثقافي الذي بلغته حضارة إسبانيا الإسلامية. «وقد كان من حسن حظي أن الله قيض لوالدي، في طفولتي وفتوتي وشبابي، أن يختار لي مؤدبين يعلمونني القرآن حتى حفظته وأنا ابن تسع سنين. ثم هباً لي ثلاثة مؤدبين: أولهم ليكمل معرفتي بالقرآن؛ والثاني ليعلمني اللغة؛ والثالث ليعلمني الحساب. فلما بلغت السادسة عشرة غدت عالماً بعشر من القراءات من إدغام وإظهار وتجويد وتنغيم ووقف وقصر. ثم تعلمت وجوه اللغة المتعددة، وقرأت أشعار المتقدمين والمتأخرين من العرب. واستمعت إلى تفاسير التراث والحديث. ثم تلقيت دروساً في الجبر إلى جانب كتاب إقليدس وغيره من كتب الهندسة. وتعلمت الجداول الفلكية الثلاثة وطريقة استعمال الأسطرلاب. وقد سمح لي المؤدبون الثلاثة أن أستريح من العصر حتى صبيحة اليوم الثاني؛ لكنني لم أمتنع نفسي راحة بل واصلت القراءة وتسجيل الملاحظات. وكان ذلك كله في أول شبابي⁽¹⁾.

(1) رفائيل بالثيا - إشبيلية الإصلاحية - الحضارة العربية الإسلامية ص 224.

العمارة

لا شك في أن فن العمارة يشكل أحد أبرز سمات إشبيلية العربية التي ورثتها إشبيلية المعاصرة من العصور الوسيطة المتقدمة. وكان الجامع أو المسجد يمثل المركز الرئيسي في المدينة الإسلامية حيث كانت تقام صلاة الجمعة. وقد بني أول جامع في الموقع الذي تقوم فيه اليوم كنيسة السلفادور في منطقة من المدينة القديمة ما زالت تجارية حتى يومنا هذا كما كانت في أيام العرب. ويرجع تاريخ إنشاء هذا الجامع إلى العام 214 هـ/ 829 م إبان حكم عبد الرحمن الثاني، وكان يضم أحد عشر صحنًا صممت متعامدة مع حائط القبلة، الذي كان يواجه الجنوب كما هو الحال في جميع المساجد الأندلسية. وكان مستطيل الشكل وله، كما يصفه الكتاب المعاصرون، أعمدة من المرمر تستند عليها أقواس من القرميد، أما منارته المحفوظة حتى يومنا هذا داخل برج الكنيسة فهي ذات تصميم مربع يبلغ طول ضلعه حوالي ستة أمتار، وقد استعمل في بنائها الأصلي، كما كان الحال غالبًا في إشبيلية، الحجارة المربعة التي تعود إلى العصور الرومية، وهناك في داخل المنارة سلم لولبي، مما لا نراه في المشرق حتى القرن الخامس/ الحادي عشر الميلادي، يلتف حول عمود اسطوانتي متين في المركز. وفي كل واحدة من زوايا المنارة، حسب وصف العذري، تقوم ثلاثة أعمدة من المرمر. تصل حتى القمة، ربما تمت إضافتها على يد المعتمد الذي رمم المنارة بعد زلزال عام 472 هـ/ 1079 م (المشار إليه على الحجر التذكاري الذي ما زال محفوظًا في الموقع ويمكننا اليوم أن نرى كذلك صحن هذا الجامع الأصلي الذي لا بد وأنه كان على مستوى أكثر انخفاضًا من فناء الكنيسة الحالي: كما أضيفت إلى الأقواس الأجرية العائدة

إلى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي الترميمات التي أدخلت على هذا البناء التذكاري خلال فترة الموحدين، وفي القرن الثامن عشر الميلادي.

وعندما لاحظ الخليفة أبو يعقوب يوسف أن هذا الجامع الذي كان يدعى بجامع ابن عدبس كان من الصغر بحيث لا يكفي لإقامة خطبة الجمعة في حشود بحجم سكان إشبيلية في ذلك الوقت، قام بتشييد جامع أكبر منه في موقع الكاتدرائية الحالية. وكان في بنائه وأبعاده الكبيرة يتبع خطوط المرابطين: أعمدة آجرية وأقواس على شكل حدوة الحصان المدببة وصحون عمودية على جدار القبلة الذي يمثل في قاعة الخطبة وجهة الصلاة للمسلمين. ويمكن اليوم رؤية بقايا هذا المسجد الذي شيد في عهد الموحدين وبقايا زيتته المترفة في «ساحة البرتقال» (Patio de los Naranjos) كما توجد هناك منارته «الخيزالدا» وهي الجزء الوحيد الذي بقي منه بأكمله. وأكمل بناء بهو الخطبة في 751 هـ/ 1176 م ولكن توسيع الصحن قد تم في تاريخ متأخر. وأما الخيزالدا نفسها فقد أمر الخليفة الموحد نفسه بتشييدها في 13 صفر من عام 580 هـ/ 26 مايو 1184 م على الحائط المواجه للشرق حيث يلتقي فناء المسجد بقاعة الصلاة. وقد استعملت الحجارة المربعة الرومية في بناء الأسس أما في المستويات العليا فقد استبدلت الحجارة بالآجر المنحوت. وأقيم على موشور سباعي مركزي موشور آخر بأبعاد أكبر كما أقيم بحر منحدر مقنطر يصل بينهما. وزينت المنارة من الخارج بمساحات من الآجر المزخرف وهذا ما استعمل كذلك في تأطير كوي الإنارة في جدران السالام الموصلة. وفي هذا الشكل الأصلي قبل أن يضفي عليها هيرنان رويث (Hernan Ruiz) مظهرها المميز في القرن السادس عشر الميلادي توج الخيزالدا «جامور» [لب النخل] عليه أربع كرات مذهبة مرصوفة على قضيب حديد في نظام متناقص الحجم. ويورد مؤرخ الموحدين أبو مروان بن صاحب الصلاة (ت 594 هـ/ 1198 م) هذا الوصف للبرج،

وهو أبرز ما يميز المدينة في العالم أجمع: «هذه المنارة هي أعظم من جميع المنائر الأخرى في الأندلس قاطبة، في ارتفاعها وفن بنائها الفائق. وعند النظر إليها من بعيد يبدو وكأن جميع نجوم السماء قد توقفت في قلب إشبيلية.

وكانت إشبيلية الإسلامية تزدهر بآماكن أخرى للعبادة بعضها في الهواء الطلق وكان يستخدم في الاحتفالات المهمة. وكان أحد هذه الأمكنة المصلى في الجهة الجنوبية من «القصور» (Alcazares) عند «باب النخيل»، ويشغل هذا الموقع اليوم بناء الجامعة الرئيسي. كما كان هناك عدد كبير من الجوامع المحلية في إشبيلية، نجد قائمة طويلة بأسمائها محفوظة في النصوص العربية وفي النصوص المسيحية المبكرة كذلك، حيث تحول بعضها إلى كنائس مسيحية بعد عام 646 هـ/ 1248 م. وكان هذا التحول في أماكن العبادة ظاهرة عامة في المدينة، وكنيسة السلفادور التي ذكرناها سابقاً. مثال على ذلك: إذ كانت في البداية بناية رومية تستخدم في مناسبات دنيوية، ثم أصبحت كنيسة في الفترة الفيزقوطية، ثم تحولت إلى أول جامع في المدينة، وبعد الغزو القشتالي تحولت ثانية إلى كنيسة. ويستفاد من نصوص هذه الفترة أن مدينة إشبيلية كانت مقسمة إلى أحياء منفصلة تأخذ أسماءها من الجامع المحلي الرئيسي فيها على غرار ما حدث مباشرة بعد عام 646 هـ/ 1248 م، وقام بجوار الكثير من تلك المساجد نمط من الأبنية تميز به تخطيط المدن المسلمة، وأعني بذلك الحمامات العامة وبعضها ما زال محفوظاً حتى يومنا هذا ولكنه يستخدم لأغراض مختلفة تماماً عن الأغراض الأصلية له. وعرفت كذلك نماذج أخرى من الأبنية كالقصور التي شيدت في زمن بني عباد، وخلال فترة الموحدين. وما زال بعض هذه القصور باقياً حتى يومنا هذا ولو أن حالها تبدل إلى حد كبير. وعلى سبيل المثال كان قصر المبارك وقصر المكرم مكانين تزخر فيهما حياة البلاط بالموسيقين والشعراء إبان القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر

الميلادي، وقد شيد أولهما على الطرف الجنوبي للمدينة المسورة فوق أبنية سابقة له مثل دار العمارة الخاصة بعبد الرحمن الثالث. وقد خصصت تلك المنطقة من المدينة خلال الفترة الإسلامية عموماً لتصرف أعمال الحكومة وهناك كان يتم اتخاذ القرارات بشأن مصير المدينة والمناطق التابعة لها. وقد قام المعتمد بزخرفة القصر بالأعمدة والمواد المجلوبة من مدينة الزهراء كما ألحقت به قلعتان من عهد الموحيدين في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. وبعد احتلال المسيحيين للعاصمة كان ملوك قشتالة وعلى الأخص منهم بيدور الأول (Pedro) هم الذين أضفوا على قصور إشبيلية الشكل الذي تبدو عليه في يومنا هذا. كما أنه تم حفظ الطابع الإسلامي لهذه الأبنية الأثرية على أيدي معماريين جلبوا من طليطلة أو من مملكة بني نصر في غرناطة، وفي جو من التعريب الملحوظ على المستوى الحضاري كان مقدراً لآلفونسو العاشر (الحكيم) (Alfonso X) وبيدور الأول أن يصرفا شؤون الحكم من هنا. ويجدر بنا أن نذكر المجتمعات التي أنشئت حول البحيرة أو (Huerta del Rey) وهي مجموعة الإنشاءات (القصور، البركة الكبيرة، وغيرها) العائدة إلى القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، والمزارع التابعة لها والتي كانت تضم بعض حدائق العباديين، هذه الحدائق التي تمت المحافظة عليها بحالة جيدة لمدة عشرة قرون ولكنها أزيلت من الوجود مؤخراً عند التحضير لاحتفالات الذكرى الخمسمائة لاكتشاف أميركا. وكانت هذه الأبنية جميعاً محاطة بأسوار المدينة الإسلامية المختلفة، وأولها سور تعود آثاره إلى عهد الإمبراطورية الرومية بشكل مباشر. وبناء على ما يورده كتاب تلك الفترة، فإن ذلك السور كان ما يزال قائماً في المدينة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. وكانت حدود إشبيلية تشمل الجزء الجنوبي الشرقي الحالي من مركز المدينة القديم، كما أن بعض الأبواب «مثل

قرمونة» (Puerta de Camona) و«باب اللحم» (Puerta de la Carne) ما تزال آثارها ماثلة في المدينة، بينما استوعبت المنازل أبواباً أخرى مثل باب العطارين (Puert de la Perfumistas). لكن روعة القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي لم تشهد أسواراً جديدة في المدينة - ولو أن البيوت والقصور المذكورة سابقاً قد امتدت إلى ما خلف أسوار المدينة القديمة - بل كان المرابطون، بفضل القاضي أبو بكر بن العربي هم الذين بنوا السور الثاني، الذي أحاط بمركز المدينة القديم حتى بدايات القرن الحالي، عندما هدم باسم التقدم المزعوم، ولو أن طبيعته ما تزال ماثلة في ما تبقى من امتدادات منطقة الفخر (Macarena) و«حديقة الوادي» (Jardin del Velle) وفي داخل البيوت في مناطق سكنية أخرى. وقد جرت تقوية هذا السور الثاني في عهد الموحدين، الذين أضافوا سلسلة من المداخل ذات الزوايا، لغرض تحسين قدرة المدينة الدفاعية، وكان السور محاطاً بخندق إلا من جهته الشرقية، حيث كان نهر الوادي الكبير يشكل حاجزاً طبيعياً. وفي عام 617 هـ/ 1220 م تمت أعمال التقوية ببناء برج الذهب (Torre del Oro) الذي كان يسد مدخل ميناء إشبيلية الجنوبي، وفي شمال منطقة الميناء جرت أعمال تقوية إضافية للسور عند باب السفينة (Puerta de Barqeta)، الذي يشكل الآن معبراً للمشاة إلى مكان «معرض 92». وكانت امتدادات السور عند ضفاف النهر تعاني من الفيضانات حتى وقت قريب، عندما يفيض نهر الوادي الكبير عن ضفتيه، ويحيل مركز المدينة إلى جزيرة. وقد استحوطت أبواب السور إلى أشكال مختلفة تماماً: لمجد «باب قرطبة» تحيط به كنيسة سان إرمينغيلدو (San Hemenegildo)، وباب المؤذن (Puert del Almuedano) الذي غدا يدعى الباب الملكي (Puert Real) وباب تريانا (Triana) صار يؤدي إلى المنطقة في الجانب الآخر من النهر التي ما زالت تدعى جسر الجناثب (Puerta de Barcas)، وهكذا. أما الحياة

الاجتماعية في إشبيلية خلال العصور الوسطى المتقدمة وفي الفترات التالية لها فقد برزت فيها الفعاليات التي تنشط الموانئ عادة، حيث كان الجزء الأكبر من التجارة البحرية مع المغرب العربي وحوض البحر الأبيض المتوسط يمر عبر المدينة، وفي هذا المجال كانت إشبيلية أيام الموحدين بمثابة نواة للحاضرة التي أصبحت لاحقاً وساطة للتجارة مع «العالم الجديد». فكانت المنتجات الزراعية تنقل عبرها من غرب الأندلس إلى الشرق منه، بينما كان يفرغ على أرصفة مينائها جميع ما كان يحمل من بضائع بكل أنواعها من أطراف الدنيا الأربعة. وأحد أمثلة هذه الفعاليات الكبرى كان بناء السفن الذي نشط منذ القرن الهجري الثالث/ التاسع الميلادي، حيث نجد أن الأمير عبد الرحمن الثاني أمر بإنشاء «دار الصناعة» الأولى أو «حوض السفن» ردًا على الهجوم النورمندي عام 230 هـ/ 844 م. وفيما بعد شيد الخليفة الموحد أبو يعقوب يوسف مرافق جديدة للغرض نفسه في موقع آخر من منطقة الميناء، ويعتقد أن هذه المرافق كانت في المكان الذي شيد فيه ألفونسو العاشر بالاتفاق مع الملك القشتالي مرافق مشابهة عام 1252 م وذلك بالنظر إلى تاريخ بناء الأحواض في عهد الموحدين، كما يعتقد أنه اكتفى بتجديد المباني أو إعادة إنشائها. وما تزال آثار الموحدين ماثلة للعيان في وقتنا الحاضر في المبنى الكبير الذي يضم مستشفى الإحسان (Hospital de la Caridad). ولا يتسع المجال هنا لحصر كامل للفنون والمهارات المختلفة في إشبيلية الإسلامية. وفي بعض الأحوال، كما في صناعتي الخزف والفخار، ما زالت بعض نماذج منهما ماثلة للعيان، فالخزف الإشبيلي المزجج والذهب هو تراثنا من تلك الفترة، ويمكن تلمس آثاره في بيوت المدينة وقصورها. وقد استعمل الفنانون أيام المدجنين أساليب ومواضيع الخزف العربي كما أنها نقلت إلى أميركا. وتمت المحافظة على أعمال ذات أصالة كبيرة في حقل النحت في الحج مثل إطار الباب الذي تعلوه منحوتة

رأس بشري ويعود تاريخه بحسب ما نقش عليه إلى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. أما الأعمال المعدنية فهناك مجموعة كبيرة من أدوات الاستعمال اليومي التي ما تزال باقية حتى يومنا هذا، كما أن مفاتيح المدينة العربية المحفوظة حاليًا في كاتدرائية إشبيلية ما تزال مبعث إعجاب كبير لناظرها. ويجدر الاهتمام هنا بتحفة فريدة حقًا ألا وهي ورقتان كبيرتان من البرونز تزنان الباب الحالي المسمى باب الغفران (Puert del Perdon) في باحة البرتقال (Patio de los Naranjos) للجامع يعود إلى عهد الموحدين. وكانت هاتان الورقتان بما حفر فيهما من رخارف ونقوش تغطيان البوابة الرئيسية للجامع، أما مطرقتا الباب الكبيرتان والمصنوعتان من البرونز فهما تمثالان الزخرف في إسبانيا الإسلامية الغني التقليدي الذي يختلف عن الزخرفة المعتدلة التي عرفت في شمال إفريقيا في تلك الأيام. وهذا العمل الفني مثال آخر يبين كيف تأقلم ملوك الموحدين مع الحياة الإسبانية الإسلامية.

لم يبرز كل هذا الإنتاج الفني وسط صحاري أو فيافٍ مقفرة، بل كان وراءه شعب تشهد به المصادر التاريخية. وقد أتينا على ذكر بعض الشخصيات المهمة في إشبيلية الإسلامية مثل: الزبيدي وأبو بكر بن العربي والأسقف عبيد الله بن قاسم والمعتمد وهناك كثير من غيرهم من أهالي إشبيلية ممن أسهموا في حياة المدينة ولكن أسماءهم غير معروفة الآن. ففي رسالة ابن عبدون على سبيل المثال هناك ذكر لمجموعة كبيرة من هذه الشخصيات، كتجار الأسواق وتجار الزيت من «إقليم الشرف» والغسالات على ضفاف نهر الوادي الكبير والبحارة ومقرئي القرآن ومعلمي المدارس الابتدائية وباعة الجبن في مناطق المستنقعات والمؤذنين والقسس المسيحيين والباعة المتجولين والبنائين بالحجر والأجر... إلخ ويمكننا من خلال صفحات هذا الكتاب أن نحس بإيقاع

إشبيلية وضجيجها في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بكل أنشطتها المتنوعة. وقد قام هؤلاء الناس كل بدوره في صنع حضارة العاصمة، وبينهم العديد من الأفراد بل الأسر أو الجماعات المميزة ممن يستحقون الذكر: شعراء البلاط العبادي، مهرة الصنائع الذين أنشأوا أحواض الملاحة أو الخيرالدا، أو التجار القادمين من جنوا أو المشرق. وسنعرض هنا لثالين وحسب: الأول أسرة ابن زهر من الأطباء التي انتقلت إلى إشبيلية من طلبيرة (Talavera) في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وقد بلغت هذه الأسرة مكانة عالية شأن أسر العلماء الكبرى في العصور الوسطى العربية، وبرز من بين أفرادها أبو العلاء زهر (ت 525 هـ/ 1131 م) وأبو مروان عبد الملك (487 - 557 هـ/ 1094 - 1162 م) اللذان مارسا الطب في إسبانيا الإسلامية والمغرب. أما المثال الثاني فيتعلق بفاعلية ذات أهمية خاصة في إسبانيا الإسلامية، وأعني بذلك الدراسات الزراعية حيث كانت منطقة إشبيلية منذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، موطنًا لكتاب بارزين في هذا الحقل مثل: أبو الخير وابن حجاج. كما يجب أن نخص بالذكر كتابًا يحمل عنوان عالم النبات المجهول وهو من أعمال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وفيه تصنيف للنباتات بطريقة علمية منتظمة تذكرنا أحيانًا بالعالم لينايوس (Linnaeus)، وهو أول كتاب في هذا المجال يظهر بعد أرسطو أو ثيوفراستس (Theophrastus) أو ديوسقوريدس (Dioscorides)، كما يسبق سيسالينوس (Cesalpinus) بخمسة قرون. وكان آخر وأبرز من كتب في الزراعة من أهل إشبيلية ابن العوام الذي بحث في كتاب الفلاحة جميع جوانب الموضوع: طرق الفلاحة وأقلمة الأجناس القائم على الموروث اللاتيني ولكنه يفوقها غني بالتجارب التي جرت عبر تاريخ الأندلس برمته. وقام جميع هؤلاء الناس بدورهم في خلق روح المدينة، تلك الروح

التي غيرت الطبيعة الأساس لأهل إشبيلية: إذ لدى قراءة ما كتب في تلك الفترة يلاحظ المرء أوجه الشبه العديدة بين أهل إشبيلية في العصور المتوسطة المتقدمة كما تصورهم الكتب الكلاسيكية في القرن السابع عشر الميلادي وسكان المدينة في الوقت الحاضر. ولإيضاح هذه النقطة أسوق هنا مثالا من أحد الكتاب في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، يرسم فيه صورة لأهل إشبيلية في زمنه شبيهة بالصورة الحديثة التقليدية لهم: «وأهل ذلك الوادي .. أخف الناس أرواحًا، وأطبعهم نوادر، وأحملهم لمزاح بأقبح ما يكن من السب، قد مرنوا على ذلك فصار لهم ديدنا حتى صار عندهم من لا يتبدل فيه ولا يتلاعن بمقوّنًا ثقيلًا». ويبقى هنالك بعد عام 646 هـ/ 1248 م من الفترة المتألفة لإشبيلية الإسلامية ما هو أكثر من المباني التذكارية مثل الخيّر الداو أو برج الذهب أو أسوار المدينة أو الميناء المعد للتجارة الخارجية. ويجب ألا ننخدع بالصورة التي رسمها الحميري في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي إذ يصف المدينة بأنها كانت مهجورة لثلاثة أيام عندما دخلتها القوات القشتالية، ونعلم اليوم أن عددًا من المسلمين - مثل أبو الحسن المتوفي عام 646 هـ/ 1249 م - قد بقي في إشبيلية المسيحية. وقد روى كاتب معاصر لتلك الفترة أنه «حين دخول المسيحيين إشبيلية، هاله ما سمع من أصوات النواقيس، فأصابه الحزن لعدم سماعه أصوات المؤذنين يدعون المسلمين للصلاة فغلبه لذلك حزن عميق وآلم ما برح يلازمه حتى وافته المنية، ويرد ذكر هذه الجماعات المسلمة في القوانين البلدية (Ordenanzas) التي شرعها فرناندو الثالث ملك قشتالة وبموجبها تحول أفرادها إلى المسيحية تدريجيًا بطريقة معاكسة ولكن موازية لما جرى في القرن الهجري الثاني/ الثامن الميلادي، ولكن عاداتهم وطريقة حياتهم استمرت عند أهل إشبيلية الجدد. أما الذوق الجمالي البادي في المدينة إبان حكم ألفونسو العاشر فإنه

يعكس إلى حد ما تأثير إشبيلية في العصر الوسيط المتقدم ليس فقط في فن المدجنين ولكن في الميول الأدبية التي شاعت في أواخر القرن السابع عشر الميلادي، وفي الشعور بالتقارب الذي جعل بيدرو الأول ملك قشتالة يعرض على ابن خلدون أحد سفراء ملك غرناطة النصاري، إمكانية السكنى في المدينة حيث عاش أسلافه طوال قرون خلت⁽¹⁾.

(1) رفائيل بالثيا - نفس المرجع السابق ص 231.

مجتمع غرناطة

صنف المجتمع الإسباني الإسلامي في كل الكتابات ضمن المجتمعات التي تميزت بديناميتها وحيويتها، كما صنف أيضاً تصنيفاً داخلياً، أفرز لنا أربع فئات داخل هذا المجتمع، فئة تتضمن الموظفين والطامحين إلى السلطة، وفئة ثانية تضم جمهور الأمة وفقهائها وخواصها، وفئة ثالثة أشد الفئات تواضعاً وبؤساً وفئة أخيرة تفرغت للعمل الأخرى. هذا يدل على أن مجتمع غرناطة كان يعرف تناقضاً رهيباً في توزيع الثروات، فهناك فئة أرستقراطية تعيش حياةترف ونعيم، وثانية تعيش في بؤس دائم، وأخرى تعيش وسطاً بين الاثنين وتولد عن هذه الطبقات الثلاث نتيجة الهجرات المتتالية طبقات اجتماعية أخرى اختلفت في وضعها الاجتماعي والمالي. وقبل الحديث عن مختلف هذه الطبقات المكونة لمجتمع غرناطة لابد أن نشير إلى التقسيم الاجتماعي الذي قدمه ابن الخطيب وزير غرناطة وشاعرها وأديبها والذي ينطبق على المجتمع الأندلسي في كل بقاع الأندلس وفي كل العصور الأندلسية إذ قال: وكان الناس يومئذٍ - أي عهد هشام المؤيد آخر خلفاء بني أمية - بل وفي كل زمان - أصنافاً: فصنف همه الدنيا التي ينالها بسبب الولد، هبه بالغاً، أو مراهقاً، أو طفلاً في المهد، أو جنيئاً في المشيمة، وهم صنائع الحكم وخدامه وعماله وفتيانه ورجاله، وصنف مرتب في الديوان مشهور العناية، والمكان، أو مجهول الشأن، راض بحظه من الزمان، لا يتشوق إلى المزيد ولا يحذر من النقصان، قد تساوت في الدول أحواله، وسكنت إلى الرزق والمفروض أماله فهو هادئ ساكن، وإلى فئة العافية راكن وصنف، يؤمل أمراً، ويشب إذا قدر جمرًا مستوحش يبخس حقه، وجحد سبقه، وهذا الصنف المتنازع المنافس بين أن يصمت فيموت بدائه، أو يجهرس بالمتازعة، فينتهي إلى قدر الله

وقضائه، وكان في ذلك الوقت أضعف الأصناف، وصنف، من أهل الدنيا والآخرة، قلدوا أهل الحل والعقد، والقبول والرد اجتهدهم، وسألوا الله توفيقهم وسدادهم وهم أشرف أوطاناً، وأعظم سلطناً وهم جمهور الناس من الفقهاء والعلماء، والخاصة، والدهماء. وصنف، غارم، لاهم له إلا فيمن يخفف إصره، أو يدبل باليسر عسره، وأما هؤلاء فأوباش أسواق، وحمقى، ما لهم من أخلاق، وصنف همه الآخرة، بعيد من تعريج على شيء من الدنيا. إنما هو مشغول بربه خاصة. وهذا جيل قليل وإنما ذكر مراعاة للتقسيم ولا تخلو الأقطار منهم، فهم بركات الله بين عباده وأوليائهم منهم. تعتبر هذه الطبقة أغنى طبقات المجتمع الغرناطي وأكثرها ثراءً، وتتكون من أفراد الأسرة الحاكمة، وكبار الملاكين وكبار الأغنياء الذين استأثروا بأجود أراضي غرناطة وسيطروا على معظمها. وكان أفراد هذه الطبقة يميلون إلى الترف والدعة والاسترخاء واللهو، وينغمسون في ملذات الحياة متجاوزين الضروري منها، يفتخرون بذلك ويتفاخرون، يأكلون أطيب المأكولات، ويلبسون أبهى الحلل، يبنون القصور ويكثرون من الرياض، ويؤثرون الراحة على المتاعب، فكانت حياتهم مليئة بجلسات السمر، وحفلات الفروسية، ومواسم الصيد؛ اعتماداً على ما ورد في بعض الكتب التاريخية التي تناولت دراسة الحياة الخاصة لهذه الفئة من مجتمع إسبانيا الإسلامية تتجلى لنا مظاهر عديدة لحياتها التي غلب عليها الترف والرفاهة وذلك استناداً إلى معايير عديدة منها قول المقرئ: مع كون أهل إسبانيا الإسلامية سباق حلبة الجهاد، مهطعين إلى داعية من الجبال والوهاد، فكان لهم في الترف والنعم والمجون ومداواة الشعراء خوف الهجاء محل وثير المهاد. فرغم الحياة المريرة التي كان يعيشها أهل الأندلس بجوار الدول المسيحية، ومواجهاتهم التي كانوا يعيشونها إلا أن هذا لم يمنعهم من حب الحياة والتمتع بمباهجها.

أشار لسان الدين بن الخطيب أكثر من مرة في كتابه: «الإحاطة»، إلى العظمة والتقدم اللذين بلغتهما مملكة غرناطة، فأعطانا صورة واضحة عن عصره، انطبعت مظاهرها على حياة أهلها وطرق معيشتهم في جميع النواحي السياسية والحربية والدينية والثقافية. وكان الرخاء والثراء محور هذه الحياة التي بلغت في البذخ حدًا بعيدًا؛ فذكر أن أهل غرناطة كانوا يميلون إلى الأناقة في اللباس ويكثرون الابتذال فيه وكان نساء الطبقة الأرستقراطية يتزين بالملابس الموشاة بخيوط الذهب، وبالقلائد والدمالج والأقراط المصنوعة من الذهب الخالص، أما الملوك فكانوا يلبسون ملابس ملوكية مطرزة، يرمز تطريزها إلى شعار الملك أو شارة من شارات الأسرة الحاكمة، وقد أخذ بني نصر هذه العادة من الملوك الذين سبقوهم، خاصة ملوك الطوائف وتحلى ترف الأسر الحاكمة في كثرة الجواري بقصورهم، والميل إلى حياة اللهو والمجون كالسلطان أبي الحسن النصري، الذي انهمك في الشهوات والملذات والتمتع بالجواري، إلى أن انتهى به الأمر إلى الاستسلام إلى حب جاريته الرومية ثريا ولا ينبغي أن تغفل البناء والعمران الذي شكل مظهرًا من مظاهر الترف لهذه الطبقة، فقد تعددت قصورها التي امتازت بجمالها ورونقها، وبلغت حدًا بعيدًا في نقوشها وزخارفها، واتساع أبنائها. وإلى جانب الطبقة الحاكمة كان بغرناطة فئة الملاكين الكبار التي سيطرت على زمام الاقتصاد، وفئة التجار الكبار وكبار الموظفين. ورجال العلم والدين كانوا يمثلون طبقة أعيان المملكة المتقدمة نفوذًا أو مكانة. وكونت هذه الفئات مع الأسرة الحاكمة فئة من الأثرياء التي استأثرت باقتصاد البلاد، وقد استوجب هذا النوع من الحياة المترفة الرفيعة طابعًا خاصًا ميز حياة هذه الطبقة الأرستقراطية التي طغى عليها التعاطف والعنف والتسفاخر بالنسب، لكن رغم ميلها إلى هذا النوع من الحياة، إلا أنها أبانت عن كفاءتها وحنكها في تدبير شؤون الدولة. ونظمها الإدارية المتعددة المهام وهذا ما سنحاول توضيحه.

تعتبر الدولة النصرية مملكة إسلامية مستقلة، ويبدو أن ملوكها ظلوا محافظين على التقاليد الشرقية، ونهجوا سبل من سبقهم من أمراء المؤمنين في دمشق وبغداد في عوائدهم وأحوالهم، واستأثروا بكل ثمرات الملك؛ فأخذوا بمبدأ الحكم المطلق، واتخذوا الألقاب المقدسة التي تدل على التشبث بأهداب الشريعة، إلا أن الحكم المطلق لم يكن يعني استبداد الملوك وانفرادهم بإدارة شؤون المملكة، بل كانت للسلطان حاشية من القادة، وزعماء الأقاليم، ونخبة من العلماء والفقهاء الذين كانوا يقومون بأعباء الدولة نيابة عن الملك. ولعل اقتسام هذه المهام يرجع أساساً إلى الظروف السياسية التي كانت تعيشها إسبانيا الإسلامية بصفة عامة وغرناطة بصفة خاصة.

أزياء أهل غرناطة،

لقد جاءت كتابات ابن الخطيب غنية بما بلغته غرناطة من العظمة والتقدم، فأعطى صورة صادقة لعصره انطبعت مظاهرها على حياة أهل إسبانيا الإسلامية وطرق معيشتهم وملابسهم، فذكر أن لباسهم الغالب في الشتاء هو الملف المصبوغ المنسوج من الصوف، أما في الصيف فكانوا يرتدون الكتان والحريير والقطن والأردية الأفريقية والمقاطع التونسية، والمآزر والمرعزي المستخلص من شعر العنز، كما كانوا يلبسون غفائر الصوف حمراء وخضراء، أما الصفر فكانت مخصصة لليهود. والألوان في العصور الوسطى كانت نادرة ومحدودة، لا تكاد تتجاوز اللون الأزرق الذي كان يستخرج من نبات النيلة، والأحمر كان يؤخذ من نبات الفوة أو حشرة القرمز التي كانت تعيش في أشجار البلوط، وكان هذا النوع من الأشجار موجوداً بكثرة في المناطق المطلة على البحر الأبيض المتوسط. والمعروف أن اللون الأبيض كان لون الحداد عند الأمويين. أما بنو الأحمر فقد اختاروا اللون الأسود في لباس الحداد، بينما

كانوا يلبسون اللون الأبيض في المناسبات السعيدة. وبخصوص الاستقبال الذي خصه أهل غرناطة للسلطان أبي الحجاج يوسف الأول بوادي آش شمال شرق غرناطة ذكر ابن الخطيب أن الأهالي استقبلوه بملبس بيضاء: واستقبلتنا البلدة - حرسها الله - في تبريز سلب الأعياد احتفالها وخصها حسنها وجمالها، نادى بأهل المدينة موعدكم يوم الزينة، فسمحت الحجال برياتها، والقلوب بحياتها، والمقاصر بجوارها والمنازل بدورها، فرأينا تراحم الكواكب بالمتاكب، وتدافع البدور بالصدور بيضاء كأسراب الحمام، متلفعات بمروطهن تلغ الأزهار بالكمائم. ولعل اللباس الأبيض الذي تحدث عنه ابن الخطيب يقصد به «الملحفة» التي كانت تستعمل في المغرب كما في إسبانيا، ويعني به الخمار، أو المعطف الذي تحتجب به المرأة خارج البيت. ويذكر المؤرخ دييغور دي توريس أن اللباس المسمى «الإزار» في المغرب يسمى بالملحفة في الأندلس، والشيء ذاته أكدته كذلك مارمول. تميزت نساء غرناطة بالجمال والاناقة، وبهذا الشأن يقول ابن الخطيب في وصفهن: حريمهم حريم جميل، موصوف بالسحر وتنعم الجسوم، واسترسال الشعور، ونقاء الثغور، وطيب النثر، وخفة الحركات ونبل الكلام، وحسن المحاورة، إلا أن الطول ينذر فيهن، وقد بلغن في التفنن في الزينة لهذا العهد والمظاهرة بين المصنفات والتنفيس بالذهبيات والديبايجيات والتماجن في أشكال الحلي. واستعملت النساء الطيوب والمراهم والعطور، والمعروف أن العطور كانت تستخرج من الليمون والأزهار والحشائش، كما كان يستعمل الملح والصابون لتنظيف الأسنان. وكانت بعض هذه العطور تستورد من الخارج: وأصول الطيب خمسة أصناف: المسك والكافور والعود، والعنبر والزعفران، وكلها من أرض الهند، إلا الزعفران والعنبر فموجودان بأرض الأندلس. واستعمل الكحل للعين، ووظفت الحناء في الأظافر، ودرجت بين الرجال والنساء عادة صبغ

الشعر بالحناء، فالقاضي خالد البلادي الذي عاصر ابن الخطيب كان يصبغ لحيته بالحناء والقرطم والمعصفّر. وبشأن لباس أهل إسبانيا الإسلامية يقول العمري: وأهل الأندلس لا يتعممون بل يتعهدون شعورهم بالتنظيف والحناء ما لم يغلب الشيب، ويتطيلسون إلا العامة فيلقون الطيلسان على الكتف أو الكتفين مطويًا طيًا ظريفاً، ويلبسون الثياب الرفيعة الملونة من الصوف والكتان، ونحو ذلك وأكثر لباسهم في الشتاء الجوخ وفي الصيف البياض، والمتعمم فيهم قليل. لم يغفل ابن الخطيب في كتابه وصف لباس الرجال من سكان غرناطة، سلاطين كانوا أم علماء أم قضاة أم جنوداً، فذكر أن السلطان الغالب بالله محمد الأول مؤسس الدولة النصرية، دخل غرناطة: وعليه شاية ملف مضلعة، أكتافها ممزقة. ويبدو أن الزي النصري تأثر بالمحيط الذي انتمى إليه. فالشاية هي معطف قصير من الصوف كان يرتديه السرعة في المناطق الجبلية بقشتالة، وشمال إسبانيا وكانت الأردية متعددة الأشكال والأجناس بحسب تعدد المناطق، يقول ابن الخطيب: وأردية المغرب العربي والمقاطع التونسية، والمآزر المشفوعة فتبصرهم في المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة في البطاح الكريمة تحت الأهوية المعتدلة. وفي مجال الحديث عن ترك مسيحي إسبانيا لبس العمامة، وتأثرهم بزي جيرانهم، نستدل بما جاء على لسان ابن سعيد الذي شهد قيام الدولة النصرية: أما أهل إسبانيا الإسلامية فالغالب عليهم ترك العمامة، لا سيما في شرق الأندلس. وإن أهل غربها تكاد لا ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً مشاركاً إليه إلا وهو بعمامة، فابن هود الذي ملك إسبانيا الإسلامية في عصره لم يلبس عمامة، وكذلك بنو الأحمر كثيراً ما تزيّاً سلاطينهم وأجنادهم بزي النصاري المجاورين لهم؛ إذ حلت القلنسوة مكان العمامة. ففي متحف «جنة العريف» بغرناطة نجد صورة لأبي عبد الله آخر سلاطين بني نصر، يظهر فيها بقلنسوة عالية شبيهة بما كان رائجاً عند القشتاليين.

أما الطيلسان فلا نجد في خواص إسبانيا الإسلامية وأكثر عوامهم من يشي دونه، إلا أنه لا يضعه على رأسه منهم إلا الأشياء. والذوابة لا يرخيها إلا العالم، ولا يسدلونها بين الاكتاف، وإنما يسدلونها من تحت الأذن اليسرى. وهذه الأوضاع التي بالشرق في العمائم لا يعرفها أهل إسبانيا الإسلامية، حتى إنهم إذا رأوا على رأس مشرقى قدم إلى بلادهم شكلا منها، أظهروا التعجب والاستظراف، ولا يأخذون أنفسهم بتعليمها؛ لأنهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غير أوضاعهم، وكذلك في تفضيل الثياب. أما الجبة فقد كانت من لباس الخاصة، لبسها الأغنياء من رجال ونساء. أما العامة فكانت الجبة عندهم من القطن أو الصوف، بيضا البرنس المغربي المصنوع من القماش الفاخر كان على ما يبدو لباس السفر اتخذ مسيحي إسبانيا لهم منذ العهد الأموي، وفيما بعد انتقل إلى المناطق النصرانية، فلبسه الرجال والنساء مدة طويلة، وأخذوا يرتدونه في أوقات الشتاء. وفيما يخص غطاء القدم نشير إلى أن الرجال والنساء في هذه الفترة كانوا يتعلون أخفافاً سوداء، طرفها الأمامي مستطيل ومعقوف، أما داخل البيت فقد انتعلوا الصندل الجلدي، والقباب الخشبي وتذكر بعض الوثائق أن السيدات بغرناطة كن يرتدين في أرجلهن خفًا غليظًا من الجلد يلبس فوق خف أدق يدعى الموق. وقوي اهتمام مسيحي إسبانيا بالجوهر والحلي أيام بني نصر، وأشار ابن الخطيب إلى أن يوسف الأول كانت لديه مجموعة من الجواهر الثمينة⁽¹⁾.

الأطعمة والأشربة؛

تميزت أراضي غرناطة بخصبها وكثرة مياهها، فعلى حد قول ابن الخطيب: «لا تعدم بها زريعة ولا رعيًا طوال العام، فقد خصها الله بجريان

(1) د. أحمد ثاني الديسري، ص 141.

الأنهار ودرور الماء، والتفاف الأشجار، والأدواح وتعددت الجئات والبساتين، وتركب ما ارتفع منها من جهاتها الثلاث الكروم البديعة طوقاً مرموقاً وكان القمح الغذاء الرئيسي في غرناطة، أما الفقراء وأهل البادية فكانت الذرة أساس قوتهم خاصة في فصل الشتاء، «وربما اقتات في فصل الشتاء الضعفة والبوادي، والفعلة في الفلاحة الذرة العربية». أما الأرز فقد كان أهل إسبانيا الإسلامية يفصلونه مطهواً باللبن. وكانت الفواكه الطيبة متوافرة في بلاد إسبانيا الإسلامية، حيث تخص بها دكاكينها كالعنب والتين والتفاح والخوخ والقراصيا البعلبكية التي تشبه طعم العسل وقصب السكر ثم غابات الزيتون التي كانت تمتد على مد البصر. وقد كان أهل غرناطة يتناولون الفاكهة والخضراوات بكميات كثيرة. وتذكر بعض المصادر أن أثمانها كانت رخيصة فيها. أما الفواكه الجافة فكانت متوافرة طيلة العام، فهم يسخرون العنب سليماً من الفساد إلى غير ذلك من التين والزبيب والتفاح والرمال والقسطل والبلوط والجوز واللوز إلى غير ذلك مما لا ينقد ولا ينقطع، إلا في الفصل الذي يزهد فيه استعماله. ولتعدد هذه الخيرات الزراعية. فقد اشتهر مطبخ إسبانيا الإسلامية بأصناف متنوعة من المأكولات التي تشهد على الحضارة الغنية التي عرفتها شبه الجزيرة الأيبيرية في عهد المسلمين الذين برعوا في فنون الطبخ، إذ تميزت مائدتهم بالتنوع بمختلف المأكولات والمشروبات ومن أشهر المأكولات عندهم المركاس والقلايا ذات الأصل الفارسي، ثم اللحم المسلوق أو المدقوق، والقديد وغيرها، كما تنوعت أطعمتهم من السمك خاصة نوع الأضداف والسردين والشابل. واشتهر أهل إسبانيا الإسلامية بصنع المجبنات أيضاً.

كما اشتهروا بصنع الإسفنج خاصة في أسابيع الموالييد، ثم الثريد، والرغائف والتردة. واتخذوا من الحبوب أكلات تسمى بالهريس، وهو الحب

المطبوخ من البُرْثَم الزرياب هي أكلة منسوبة إلى زرياب المغربي، ويقال: إنه أول من اتخذها، وهي الفول المقلي المثلج والكشكشار، وهو الخبز الأسمر غير النقي أصله فارسي والخبز المحمص إضافة إلى مأكولات أخرى كالزلاية والكعك والثومات. والبسطة والكسباج، والزبزين، وغيرها من الأطعمة الأخرى المشهورة في إسبانيا الإسلامية، والتي لا تزال رائجة إلى اليوم في بلاد الغرب الإسلامي. وكان بهذه المنطقة كثير من النباتات والأفاويه التي كان مسيحي إسبانيا يستخدمونها في تحضير وتعطير مختلف الأطعمة، مثل الفلفل والكزبرة الخضراء والكزبرة اليابسة والنعناع والقرنفل، والقرفة والكرويا والزنجبيل والسمسم والينسون والزعر والجلجلان والزعفران والثوم والكمون والمقدونس. أما عن المشروبات فكان أهل غرناطة يتناولون اللبن والماء المعطر، وخلاصة زهر الورد، أو البرتقال، وشراب السفرجل والتفاح والتمر الهندي والجزر وغيرها من المشروبات. إن موقع غرناطة بين دول مسيحية كقشتالة وأراغون والبرتغال، جعلها باستمرار في حالة حرب أو استعداد للحرب مع تلك الدول، لكن رغم هذه الحياة القاسية فقد كان أهلها يخفون وراءها حياة أخرى تتسم بطابع المرح والبهجة وحب الحياة. تجلّى ذلك واضحاً في أعيادهم التي كانوا يحتفلون بها في مناسبات عديدة. كان الشعب الغرناطي يعشق الحياة ومباهجها، وكانت الحياة لديه سلسلة من الأعياد المتصلة التي يتم الاحتفال بها بطرق شتى، تتخذ أحياناً شكل مهرجانات شعبية، يستمتع في أثنائها الحاضرون بالعباب الفروسية ومصارعة الثيران وحفلات الصيد، إضافة إلى ليالي الغناء والرقص والموسيقا، والاستمتاع بالطبيعة.

الخروج إلى المتنزهات:

كان الخروج إلى الحدائق والمتنزهات عند أهل غرناطة مظهرًا من مظاهر الاحتفال بالأعياد، ووسيلة من وسائل التسلية، للتمتع بالطبيعة الخلابة التي

تشرف على المدينة بمروجها الخضراء، وأغضان أشجارها الملتفة، ومياه أنهارها المتدفقة. وكان في غرناطة عدد من المتنزهات من بينها موقع جميل يقال له: «عين الدمع» Ainadamar المطل على سفح جبل الفخار الذي يتمتع باعتدال هوائه، وخضرة بساتينه وعذوبة مياهه، حتى غدا هدفاً للتنزه الشائقة أيام الربيع وليالي الصيف. وقد تغنى به عدد من الكتاب والشعراء كالشيخ أبي البركات. وظل هذا المتنزه بعد سقوط غرناطة أيام الموريسكيين يحتفظ بجماله وخضرته، ولم يبق الآن من بساتنه الخضراء اليناعة إلا القليل تتخللها الرقاع الجرداء. وكان هناك متنزه آخر بنهر شنيل، وقد ولع أهل غرناطة بالجلوس على ضفافه، يقصدونه في فترات أنس وسمر أيام الربيع والصيف تغنى به الشعراء، وغالوا في مدحه ووصفه. ولا يزال هذا المكان حتى الآن يعد من أخصب المناطق بإسبانيا الإسلامية. ومن متنزهات غرناطة المشهورة أيضاً حور مؤمل الذي كان من أجمل متنزهاتها وأظرفها. وقد أكثر الشعراء من ذكره، منهم أبو جعفر بن أبي مروان بن سعيد الذي قال فيه:

عَرَّجْ عَلَى الْحُورِ وَخَيَّمْ بِهِ حَيْثُ الْأَمَانِي ضَافِيَاتُ الْجَنَاحِ

وهناك متنزه نجد المطل على بسط غرناطة ومتنزه السبيكة الموجود خارج المدينة. ومن المتنزهات كذلك عين القبلية والمشايخ، واللشنة، والزاوية.

كانت ألعاب الفروسية تقام في مناسبات مختلفة، يتمتع فيها الحاضرون بمشاهد صراع الحيوانات بعضها مع بعض، أو صراعها مع الإنسان، وتنظم عادة في ساحات فسيحة، كساحة باب الرملة التي تسمى بالإسبانية "Plaza Bibramla"، وتعد من أعظم ميادين غرناطة، تعقد بها الحفلات القرومية خاصة حفلات الفروسية. ثم ميدان النصر المسمى بالإسبانية "Paseo de Tri-unfo"، وميدان الأجياب "Plaza de Aljibes"، وقد ذكرهما عنان دون أن

يشير إليهما بشيء، وميدان التوابين الموجود داخل الحمراء، والذي يذكر في بعض المصادر باسم ميدان الطوابين. وذكر ابن الخطيب أنه في الساحة كانت تقام دائرة خشبية تدعى الطبلية "Tabla" يقوم الفرسان في وسطها بقذف الوحوش برماحهم أثناء ركضهم بخيولهم. كانت تنظم في غرناطة حفلات المبارزة الفردية أو الجماعية، يستمتع خلالها الناظر بمشاهدة حركات بطولية لبعض الفرسان فيما بينهم، كما لو كانت حرباً حقيقية، قد يصاب فيها بعض المشاركين بجروح. وفي هذه الميادين أيضاً كان استعراض قوات الجيش والفرسان أمام السلطان وضيوفه، سواء كانوا من دول إسلامية أو مسيحية. وقد ورد في بعض المصادر حادثة السيل التي وقعت في أحد ميادين غرناطة أثناء استعراض الجيوش في عهد السلطان أبي الحسن علي بن سعد النصري. (868هـ/ 1643 م - 887هـ/ 1472 م) فبينما كان الناس في هذا الاحتفال بمنطقة السيكة جاء مطر عظيم، اجتاحت فيه سيول وادي حدره المنطقة، وعابن الناس في هذا الاحتفال الهلاك المين. وذكر المقرئ هذا الحادث بقوله: «وهو يوم ختام العرض وكان معظم المتزهين والمتفرجين بالسيكة، وما قارب ذلك، فبعث الله سيلاً عارماً على وادي حدره، بحجارة وماء غزير كأفواه القرب واحتمل الوادي على حافتيه من المدينة من حوانيت ودور ومعامل وفنادق وأسواق وقناطر وحدائق، وبلغ تيار السيل رحبه الجامع الأعظم.

اختلفت آراء بعض المؤرخين حول أصل هذه اللعبة وظهورها بإسبانيا، فقد رأى بعضهم أنها من أصل روماني، وبعضهم الآخر نسبها إلى أصل قرطاجي، بل منهم من قال إنها دخلت إسبانيا على يد العرب، وأجمع بعضهم أن صراع الثيران ظهر بهذا البلد في القرن التاسع الميلادي، ويدخل ضمن أنواع القروسية، التي تظهر فيها بطولة وقوة المصارع بإسبانيا وابن الخطيب الذي عاش في القرن الرابع عشر الميلادي ذكر أن هذا النوع من

المصارعة كان في غرناطة عاصمة بني الأحمر وكانت في عهده تقام بطريقتين: الأولى يتم فيها الصراع بين الثور والأسد، وقد حضر ابن الخطيب هذا الصراع الذي انتهى بانتصار الثور وبإصابة الأسد بجروح، بعدها ظهرت جماعة من الرجال مسلحين، أخذوا يناوشون الأسد المجروح، إلى أن تم قتله في النهاية بعد أن افترس بعضهم، أما الثانية فتم بين الثور والإنسان: في البداية يطلق الثور ويطلق خلفه كلاب «اللان» المتوحشة التي تأخذ في نهش جسمه وأذنيه. وتسليط الكلاب عادة جارية في هذا النوع من الصراع إذ هي عملية تمهيدية، بعدها يأتي الفارس ليجد قوة الثور قد انهارت، فيتقدم لمصارعته والقضاء عليه أمام الحاضرين في الاحتفال. أما في حالة انتصار الثور، فيهرع بعض المتفرجين إلى مكان الصراع بخناجرهم يقضون عليه ويقع صريعاً. وقد حضر ابن الخطيب صراعاً بين الثور والأسد، لكن هذه المرة بمدينة فاس عندما كان سفيراً لدولته بالمغرب، كما حضره أيضاً الأمير أو الوليد إسماعيل بن الأحمر الذي كان لاجئاً، إذ أبعده أسرته عن الأندلس، فحضره ابن الخطيب بصحبة هذا الأمير وبصحبة السلطان أبي عنان المريني، وانتهى الصراع بانتصار الثور. كان من بين مظاهر الاحتفال بالأعياد في مملكة غرناطة الخروج في رحلات للصيد، فغرناطة محاطة بجبال تغطيها غابات كثيفة خاصة التل الواقع على حافة وادي حدره، الذي كان مرتعاً للحيوانات البرية ومنبتاً لأنواع الأشجار والزهور، ومنبعاً لداول المياه المنحدرة من أعالي الجبال. كان السلاطين يخرجون إلى هذه الغابة مع حاشيتهم قصد الاصطياد خاصة نوع «الأيل» الذي كان موجوداً بكثرة في ذلك المكان. وسجل ابن الخطيب أن سلطان غرناطة أبا سعيد بن محمد بن نصر حينما كان ولياً للعهد خرج يوماً للصيد فقابلته خنزير جبلي، فطرح نفسه عليه، فكبا به فرسه واقترب الخنزير منه، فشهّر الأمير سيفه وقضى عليه بضربة تحت عينيه أبانت

فكيه، فعلم بذلك والده محمد الثاني (الفقيه) فسر سروراً عظيماً. كما اعتاد أهل غرناطة اصطيد طير «الباز» - وهو نوع من الصقور - أثناء خروجهم للصيد، بل اهتموا بتربيته، وإلى هذا النوع من الطيور يعود اسم أعظم الأحياء بغرناطة المعروف بحي البيازين. كان الخروج للصيد من أجمل وسائل اللهو والتسلية لدى السلاطين. وذكر ابن الخطيب أن السلطان محمداً الرابع كان «أفرس من جال على صهوة، لا تقع العين على أدرى بركض الجياد منه، مغرماً بالصيد، عارقاً بسمات الشفار وثبات الخيل»⁽¹⁾.

الغناء والطرب والموسيقى،

إلى جانب الخروج للمتزهات والتمتع بمشاهدة ألعاب الفروسية ومصارعة الثيران، كان الغناء والطرب يمثلان عنصراً مهماً في الاحتفال بالأعياد في غرناطة، ووسيلة من وسائل المرح والتسلية، فقد أشار ابن الخطيب إلى أن الغناء كان منتشرراً بمدىتهم وبدكاكينها. فمن صفات مسلمي إسبانيا شغفهم بسماع الغناء حتى ليفضلون الضروري من العيش مع السماع على العيش المترف مع الحرمان من سماع الغناء. واشتهر في إسبانيا الإسلامية كثيرون ممن اهتموا صناعة الحان الغناء والتأليف فيه، كأبي بكر بن باجة الذي ينسب إليه كتاب «الألحان المطربة في الأندلس»، ويحيى المرسى صاحب كتاب «الأغاني في إسبانيا الإسلامية». ولم يخل عصر من عصور إسبانيا الإسلامية من مغنيات أندلسيات وموسيقيات وراقصات؛ إذ كثرت مجالس الغناء في كل مكان، وتعددت مراكزها، فشغف أهل إسبانيا الإسلامية كثيراً بالغناء، ما يدل على رقة عواطفهم ورهافة أحاسيسهم فبرعوا في العزف على كثير من الآلات الموسيقية كآلة العود والرباب والقانون والدف والطار والقيثارة، إذ تتخلل هذه

(1) د. أحمد ثاني الديسري - نفس المرجع ص 152.

الأنغام الآلية الحان وأصوات جميلة ورقصات يتلوى فيها البطن، وتهتز الأرداف وتميل الأعناق وفي المقدمة لابن خلدون أسماء لبعض الآلات الموسيقية في هذه الفترة، ويصفها لنا بقوله: منها ما يسمونه «الشبابة» وهي قصبة جوفاء بأبخاش في جوانبها معدودة ينفخ فيها فتصوت فيخرج الصوت من جوفها في سداه من تلك الأبخاش. ويقطع الصوت بوضع الأصابع من اليدين جميعاً على تلك الأبخاش وضعاً متعارفاً، حتى تحدث النسب بين الأصوات فيه. ثم هناك البوق، وهو آلة من نحاس أجوف في مقدار الذراع، يتسع إلى أن يكون انفراج مخرجه في مقدار دور الكف في شكل بري القلم وينفخ فيه بقصبة صغيرة تؤدي الريح من الفم إليه فيخرج الصوت ثخيناً مدوياً. وكذلك الآلات الوترية وهي كلها جوفاء إما على شكل الكرة كالبربط أو الرباب أو على شكل مربع كالقانون. وكانت الفرقة الموسيقية عادة تتكون من المغني تصحبه فرقة فيها عود أو رامر وطبلة صغيرة وصاجات يأخذ المغني في الغناء ويردد بعده الحاضرون. وهذه الحفلة الموسيقية كانت تسمى رمة "Zambra"، تقام عادة في الأعياد في حمى الحريم. شاع الغناء في إسبانيا الإسلامية على يد المغني «زريباب» الذي أتى من المشرق في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط، وعلى يده وضعت الأسس الأولى للموسيقا وتناقلها بعده تلاميذه الذين سلكوا سبيله. ونبع من تلاميذه أبنائهم الثمانية الذكور وبناته عليه وحمدونة، وكلهم مارسوا الغناء. واستمر أهل إسبانيا الإسلامية يغنون القصائد الشعرية حتى ظهرت الموشحات الإسبانية الإسلامية التي أصبحت تغنى مصحوبة بنغمات موسيقية. كان الأمراء الأمويون كغيرهم مشغوفين بالموسيقا والطرب خاصة على عهد الحكم الثاني الذي جمع في عهده ما يزيد على الأربعمائة ألف مجلد من مختلف العلوم والفنون، إلا أن كتب الموسيقا حظيت بالنصيب الأكبر. وقد نبغ أهل إسبانيا الإسلامية في الغناء والتأليف

الموسيقية، وابتكروا الجديد منها وفي آلاتها التي ابتدعوا فيها أصول وقواعد جديدة، فخلقوا النوبة الإسبانية الإسلامية والعزف الجماعي وهما أهم أنواع الموسيقى في إسبانيا الإسلامية، كما ألفوا النوبة في بداية الأمر من أربع قطع، تتميز الواحدة عن الأخرى باسم خاص، ثم زادوها بعد ذلك إلى خمس قطع، كما ابتدعوا الزجل والموشحات اللذين ستعرض إليهما أثناء الحديث عن الحركة الأدبية. وقد انتقل هذا النوع من الفنون الذي كان سائداً بلاد الأندلس إلى البلاد العربية في الشرق وبلاد المغرب ومصر، وبذل المهتمون به كل جهودهم للحفاظ على مقوماته، واستمر في رقيه حتى قرب سقوط إسبانيا الإسلامية، كما كان له بالغ الأثر في تطور الموسيقى الإسبانية، إذ أبدى النصارى ارتياحهم للموسيقى الإسبانية الإسلامية، وزاد شغفهم في كل أنحاء الجزيرة؛ فلمع عدد من أهل الغناء والرقص والطرب في قصور الملوك بكاستيل بعد سقوط غرناطة، حيث كان يعمل بعضهم على تسلية أبناء إسبانيا والبرتغال. مثال ذلك الملك بيدرو الرابع Pedro IV ملك أراغون الذي طلب عام 1337 م عازف الربابة من شاطبه، والملك دون خايمي الثاني Don Jaime II بعث عام 1389 م إلى بلنسية في طلب أسرة مسلمة اشتهرت بالغناء، فاصطحب رئيسها المدعو Mazot زوجته وأمه وبعض المنشدات، وبعد تسليتهم للملك عدة أيام دفع إليهم مبلغاً عظيماً من المال وإذا كان الطرب والغناء والرقص وسيلة من وسائل الاحتفالات بالأعياد بغرناطة، فقد كان شرب الخمر في هذا الجو المرح الصاخب وسيلة من وسائل المشاركة في هذه الأعياد أيضاً. وقد أشارت كثير من المصادر إلى انتشار آفة بغرناطة وهي تعاطي الخشيش الذي بدأ انتشاره في المشرق، ثم انتقل بعد ذلك إلى المغرب. وتشير النصوص والأشعار إلى انتشار هذه الظاهرة في غرناطة، وغالبيتها تعود إلى القرن الثامن الهجري مما يدل على انتشارها في هذه الفترة. ولاشك أن انتشار

هذه الآفة راجع إلى الاضطراب والحمول اللذين كانت تعانيهما غرناطة في ذلك العهد وقد ندد العديد من المفكرين والقضاة بانتشار هذه الآفة في المجتمع الغرناطي.

الأعياد الدينية والاحتفالات العامة:

كانت الأعياد بمملكة غرناطة متعددة ومتنوعة، وكان احتفال الغرناطين بها عظيمًا لكن في حدود الاعتدال كعيد الفطر والأضحى وعيد المولد النبوي الشريف، وموسم عاشوراء، إضافة إلى عيد العصير والأعياد التي كانت تقام بمناسبة الانتصارات الحربية، أو بمناسبة إعدام أبناء السلاطين أو رواجهم. وكان أهل غرناطة يشاركون المسيحيين في احتفالهم بعيد السيد المسيح، وعيد النصر. أما عيد العصير فكان الاحتفال به في غرناطة في فترة جني محصول العنب وعصره، حيث كان السكان يتوجهون إلى البساتين المختصة في زراعته، فتقام أيام مميزة لجنيه في وجود يسوده المرح والغناء والرقص. ويذكر ابن الخطيب أن هؤلاء كانوا يحملون معهم أسلحتهم لمجاورة أراضيهم بأرض العدو إذ قال: وعادة أهل هذه المدينة الانتقال إلى حقل العصير أو أن إدراكه، مما يشتمل عليه بدورهم، والبروز على الفحوص بأولادهم، معولين في ذلك على شهادتهم وأسلحتهم وعلى كتب دورهم، واتصال أمصارهم بحدود أرضه، بينما عيد المولد النبوي كان يحتفل به في الثاني عشر من ربيع الأول. واتخذ الاحتفال بهذا العيد طابعاً رسمياً سواء في المغرب أو إسبانيا الإسلامية خصوصاً منذ القرن الثامن الهجري.

بدأ الاحتفال بهذا العيد في المغرب في أواخر الدولة الموحدية وبداية عهد الدولة المرينية على يد أبي العباس أحمد وابنه أبي القاسم العزفي من خلال كتاب «الدر المنظم في مولد النبي المعظم» الذي ألف حول هذه المناسبة

الدينية، يدعو فيه إلى التمسك بالدين الإسلامي والتعلق بمولد الرسول عليه الصلاة والسلام، والتراجع عما كان عليه أهل زمانه من مشاركة النصارى أعيادهم وعوائدهم. وكان من الطبيعي، أن تولي الدولة المرينية عيد المولد النبوي اهتماماً ودعماً لنفوذها، وخدمة لأيدولوجيتها وهي في بداية عهدها. وكان أول ملك اهتم بهذه المناسبة يعقوب بن عبد الحق المريني أول ملوك بنو مرين، ثم ابنه يوسف من بعده الذي عمم الاحتفال بهذا العيد في كل جهات المغرب. لكن العناية اكتملت بشأنه على عهد أبي الحسن المريني فأصبح يشارك فيه جميع شرائح المجتمع، ويستعد له بتهيئة مختلف أنواع الطعام والحلويات وأصناف الطيب والبخور. وبمدينة فاس كانت تخصص هذه المناسبة لإعذار الأطفال، ودخول الصبيان الكتاتيب القرآنية، التي كانت تضاء أركانها بالشموع، ويتم فيها تجويد القرآن الكريم وإنشاد القصائد الدينية. ومنذئذ انتقلت عادة الاحتفال بعيد المولد إلى بلاطات تونس وقصور غرناطة خاصة على عهد السلطان أبي الحجاج يوسف الأول إذ أصبح الاحتفال يتخذ طابعاً رسمياً تنظمه الدولة وتشارك فيه حكومتها التي توليه عناية فائقة تليق بمقامه العظيم. وعن اقتداء هذه الدول بالمرينيين يقول ابن مرزوق: هذه مكرمة خص الله بها هذه المملكة الشامخة والسلطة المرينية أن حكاها غيرهم فما أشبه ولا قرب آثار الفقيه العزفي صيدها فصادوه ونبه على الخير فمضوا عليه واعتادوه. وهكذا أصبح ملوك بني نصر يحتفلون بعيد المولد النبوي منذ عهد أبي الحجاج اقتداءً بملوك المغرب إذ أصبحت تقام في المساجد والزوايا وقصر الحمراء ليالي دينية تقام فيها الصلوات وتلى آيات القرآن الكريم، وتنشد قصائد الشعر النبوية في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام تسمى بالعيديات أو «المولديات». امتزج المظهر الديني بمملكة غرناطة بالمظهر الأدبي أثناء الاحتفال بالمولد النبوي إذ كانت تقام في أثنائه مجالس أدبية يحضرها أقطاب

الحركة الفكرية تخليداً لهذه الذكرى العظيمة، فكان الشعراء ينظمون قصائد شعرية في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان ملوك بني مرين يخصصون بعض الهدايا والعطايا بهذا الشأن؛ فأبو الحسن المريني كان يخصص مائة ألف دينار للفقهاء والأشرف والطلبة الذين يحضرون الحفل لتخليد هذه الذكرى. أما ملوك غرناطة فقد اهتموا بدورهم بمدح الرسول عليه الصلاة والسلام خاصة في عهد أبي الحجاج يوسف وابنه الغني بالله الذي نظم الشاعر ابن زمرك بين يديه أبياتاً بمناسبة عيد المولد النبوي قال فيها:

وبليلة الميلاد كم من رحمة	نشر الإله بها ومن نعماء
قد بشر الرسل الكرام ببعثه	وتقدم الكهسان بالأنبياء
أكرم بها بشرى على قدر سرت	في الكون كالأرواح في الأعضاء
أمسى بها الإسلام بشرق نوره	والكفر أصبح فاحم الأرجاء
هو آية الله التي أنوارها	تجلو ظلام الشك أي جلاء

ومن بديع ما نظمه ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب في مدح المصطفى عليه الصلاة والسلام قصيدة مطلعها:

يا أكرم الخلق من عرب ومن عجم	وأحسن الناس من حسن وتزين
إني أتيتك فاقبلني وخذ بيدي	ومن لهيب تعي جرنبي وسجين
وقد مدحتك فارحمني وجد فعسى	من هول يوم اللقا والحشر تنجيني
وكن شفيعي من النيران يا ألمي	لعلي أحظى بأجر غير ممنون

احتفل أهل غرناطة بعيدي الفطر والأضحى أيضاً وعيد عاشوراء الذي يحتفل به في العاشر من شهر محرم. ويفهم من بعض القصائد أن ملوك غرناطة كانوا يقدمون فيه الهدايا لبعض الفقهاء والشعراء. فأبن زمرك أنشد

قصيدة يشكر فيها السلطان محمداً الخامس النصري الذي أهده خلة بهذه المناسبة فقال :

يا بدر تم في سماء خلافة حفت نجوم السعد هالة قصره
ألبت عبدك من ثيابك ملبساً قد قصرت عنه مدارك شكره

ويتجلى لنا اهتمام ملوك بني الأحمر بالأعياد بوضوح في الأمر الذي أصدره السلطان أبو الحجاج يوسف الأول بعد موقعة طريف، إذ ذكر في المجال الاجتماعي ارتداء أبهى الملابس والحلل في الأعياد، والاهتمام بالفقراء وإعالتهم، وأكد عدم الإخلال بأمن المملكة أثناء الاحتفال بها، كما أكد كذلك مؤاخذه كل من أخل بهذا القانون. وبهذا تكون الحياة الاجتماعية لأهل غرناطة حياة متناقضة تعكس صوراً متعددة، يعكس بعضها حياة بذل وجد وأخرى حياة مرح ولهو، وغيرها حياة زهد وتصوف. اعتنى مسلمو إسبانيا اعتناءً خاصاً بنظافتهم، وشهد لهم بذلك عدد من المؤرخين، من بينهم المقرئ الذي ذكرهم في هذا الباب بقوله: وأهل إسبانيا الإسلامية أشد خلق الله عناية بنظافة ما يلبسون وما يفرشون وغير ذلك مما يتعلق بهم، وفيهم من لا يكون عنده ما يقوت يومه فيطويه صائماً، ويتنازع صابوناً يغسل به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها. ومن مظاهر اهتمام مسلمي إسبانيا بنظافتهم وأناقتهم اعتناء أهلهم وملوكهم بإنشاء الحمامات سواء الخاصة أو العامة، والتي كانت تنتشر في أغلب المدن والقرى بإسبانيا الإسلامية، والتي اعتنى بها عناية خاصة من حيث الصيانة والنظافة وتأمين الراحة للمستحمين. وقد أشرنا في المحور الخاص ببناء الحمامات، إلى الشكل الذي اتخذته هذه الأخيرة في بنائها، والتي كانت روعة في الزخرفة والجمال بصهاريجها الملونة، وقببها المضيئة، وروائحها العطرة، ونقوشها الرائعة، تبهـر

الناظر بما لا يمكن وصفه. ولعل اهتمام مسلمي إسبانيا بالذهاب إلى الحمامات راجع في المقام الأول إلى أهميتها في حياتهم الاجتماعية؛ فعادة الاستحمام عندهم هي عادة مرتبطة ومتصلة بالإسلام الذي يدعو إلى النظافة والتطهر؛ لذا كانت الحمامات عادة ما تكون بالقرب من المساجد حتى ييسر للمسلمين التطهر قبل الدخول إلى المسجد للصلاة، إضافة إلى أن الحمام يولد إحساساً بالراحة، ويحدث لدى المستحم انتعاشاً بدنياً وروحياً. إن الحديث عن النظافة والحمامات يحملنا على ذكر ما يتعلق بالصحة العامة في العهد النصري. ولا بد من الإشارة في هذا الباب إلى ما حل بالعالم من كوارث، كوباء الطاعون الذي اكتسح الشرق والغرب في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي (الثامن للهجرة). وإذا كان المؤرخون الأندلسيون اقتصرُوا في الحديث على الوضع الصحي لمملكة بني نصر، فإنهم لم يغفلوا ذكر الكارثة التي اجتاحت مملكة بني الأحمر والطاعون الأسود الذي ترسخ في أذهان أهلها. والطاعون الكبير، أو الطاعون الأسود كما كان يسميه المؤرخون، انطلق من آسيا الصغرى عام 735 هـ / 1324 م، ووصل إلى أوروبا فاجتاح مناطق كاملة من فرنسا وإيطاليا وشبه الجزيرة الأيبيرية. وفي عام 749 هـ / 1348 م بدأت البوادر الأولى من هذا الوباء في برشلونة "Barcelona" إذ أودى بحياة العديد من السكان. وفي السنة ذاتها أصاب مدينة ميورقة "Mayorque"، كما ظهر في ألمرية Almeria عام 749 هـ / 1348 م. وانتقل عام 1349 م إلى مدينة مالقة التي كان يموت فيها كل يوم أكثر من مائة مصاب، ما زرع الرعب في قلوب السكان الذين فروا إلى المناطق البعيدة خوفاً من هذا الوباء. ولقد عدد المؤرخون - سواء العرب أو الإسبان - بعض المدن التي اشتد فيها الوباء أكثر من غيرها كألmería ومالقة وغرناطة وبلش، وأصاب خاصة الضواحي الفقيرة، حيث كان السكان يعانون نقصاً في التغذية منذ مجاعة 1329 م ولقد أودى

هذا المرض بحياة العديد من سكان غرناطة والعديد من رجالاتها البارزين من الخبراء والعلماء كابن الجياب. وأورد لنا ابن الخطيب هذه المحنة التي عايش روعها وفتكها بأهل بلده في رسالة عنوانها: «متقد السائل في المرض الهائل». إلى جانب الطاعون عرف المجتمع الأندلسي أيام بني نصر أمراضاً عديدة كانت على عهدهم غير قابلة للشفاء، كمرض الجذام ومرض البرص الذي كان نادراً أو محصوراً. وفي عام 1348 م انتشر مرض التهاب الرئة.

ارتاع مسلمي إسبانيا من المرض الذي لا شفاء منه وكان يطلق عليه اسم "Marad" كمرض الجنون أو الصرع، وكان المصابون بهذا الداء يتركون أحراراً، إلا إذا كان المصاب يشكل خطراً على المجتمع، إذ يتم جمعهم أحياناً بأمر المحتسب في دور شبيهة بدور العجزة، ويؤمن لهم الغذاء والراحة، وتقام عليهم حراسة دائمة اعتنى سلاطين الدولة النصرية بالصحة العامة لأهل غرناطة، وتطور الطب في عهدهم، ولا يزال متحف الحمراء يحتفظ بلوحة حجرية نقش عليها تاريخ إنشاء «المارستان» الذي بناه محمد الخامس في فترة حكمه الثانية عام 767 هـ/ 1368 م. وقد ورد عن هذا المارستان في كتاب ابن الخطيب «الإحاطة» قوله: ومن مواقف الصدق والإحسان من خارق جهاد النفس، بناء المارستان الأعظم حسنة هذه التخوم القصوى، ومزية المدينة الفضلى، لم يهتد إليه غيره منذ الفتح الأول مع توفير الضرورة وظهور الحاجة، فأغرى به همة الدين ونفس التقوى، فأبرزه موقف الأخذان ورحلة الأندلس وفذلكة الحسنات، فخامة بيت، وتعدد مساكن، ورحب ساحة، ودور مياه، وصحة هواء وتعدد خزائن ومتوصّات. هذا وقد خصصت إيرادات لهذه المؤسسة الخيرية ذات البناء الجميل، حيث يضم مركز البناء المستطيل في وسطه بحيرة صغيرة مزينة بالنوافير. وذكر المقرئ أن السلطان النصري أبا الحسن علي بن سعد أصيب بمرض شبيه بالصرع لم ينفع معه

علاج تنازل على إثره عن الملك لأخيه أبي عبد الله إذ قال: ولما أمر أبو عبد الله اجتماع كبراء غرناطة وأعيان إسبانيا الإسلامية وذهبوا للسلطان أبي الحسن، وذهبوا به إلى غرناطة وبايعوه، مع أنه كان أصابه مثل الصرع إلى أن ذهب بصره، وأصابه ضرر. ولما تعذر أمره، قدم أخاه عبد الله المعروف «بالزغل» بالملك بعده وعرفت إسبانيا الإسلامية أمراضاً كثيرة كالنقرس، والجذام والجذري والعمى والحصبة والبواسير والسل والرمد والظفر. والفدع، والسقوق وأمراض خفيفة كالسعال والفواق وداحس. وأمراض أخرى كان يكتفى بالإشارة إليها باسم داء أو ما شابه ذلك. أما الأدوية فكانت في غالبيتها مستخلصة من الأعشاب والنباتات والحشائش. كالعنصل والفاقلة والوشق والحلتيت والمرقد واللوغاذيا والإيطريقل ومن باب النظافة، إضافة إلى الحمام كان يذهب مسلمو إسبانيا إلى مجمعات الماء الحار التي كانت تعرف بالحامة، وهي نافعة لكثير من الأمراض الجلدية والمفصلية. وهكذا تبين لنا أن غرناطة اشتهرت بأبوابها وأحيائها وأرباضها ومسكنها وقصورها وأسوارها وأبراجها، واتسمت هذه المعالم العمرانية، بجمال الروعة ودقة الفنون؛ فزينت سقوف المساكن والقصور بالقواميد، وشملت ساحاتها أفنية ونافورات رخامية كما كانت دمشق والقاهرة آنذاك، ورصعت حيطانها بالفسيفساء المتعدد الرسوم والألوان والزخارف الجصية البديعة التي غلب عليها الطابع الشرقي. وكان لجغرافية غرناطة وتضاريسها الأثر البالغ في المعالم العمرانية، إذ أقيمت القناطر على الأنهار، كالقنطرتين اللتين بنيتا على نهري شنيل وحدره. وبرز الفن المعماري في دور العبادة كالمسجد الجامع الذي يعد من أفخم مساجد المملكة، فضلاً عن المساجد الأخرى التي تميزت بمآذنها ومحاريبها ومنابرها وصحونها وغيرها من المرافق الأخرى. ولعل الشاهد الكبير على براعة الفن المعماري الذي شهدته غرناطة قصر الحمراء المعلمة الخالدة التي ألهمت الكتاب

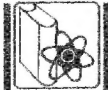
والشعراء والموسيقين خيالاً في إبداعاتهم الفنية؛ وذلك لدقة صنعه وروعة زخارفه ونقوشه. ومن جانب آخر تبين لنا أن أهل غرناطة المسلمين كانوا سنيين على المذهب المالكي الذي كان سائداً بلاد إسبانيا الإسلامية وكان لعلماء الفقه والقضاء منزلة لدى بني الأحمر الذين حرصوا على تطبيق مبادئ الإسلام والالتزام بها. من جهة أخرى اتضح الاهتمام الذي كان يبديه أهل غرناطة للباسهم الذي تنوع حسب الفصول، فشمّل الصوف والكتان والحرير والمرعزي أما لباسهم الأبيض فكان مخصصاً للمناسبات السعيدة والأسود للحداد. وبخصوص أطعمتهم ومشروباتهم فقد اتضح لنا تنوعها وتعددتها؛ إذ شملت الثريد والبرغائف والفطائر والزلابية والتمرّدة والبسطيلة وغيرها. واستعملوا التوابل بشتى أنواعها وأصنافها. ويرى أهل غرناطة في رياضة الفروسية ومصارعة الثيران وصيد البراري، كما اهتموا براحتهم الجسدية والفكرية بمختلف وسائل التسلية والاستمتاع بجمال الطبيعة في أثناء رحلاتهم وتوجههم إلى المنتزهات. وكان لهم أيضاً شأن في المجال الموسيقي، وتعدّد آلاتهم الموسيقية دليل على براعتهم في هذا الميدان. ولم تخل حياتهم الدنيوية من تمسكهم بأعيادهم الدينية وإحيائها في أوقاتها بالاحتفال بها. وتبين لنا أنهم كانوا على قدر كبير من الوعي الصحي والحرص على نظافة أجسامهم ومساكنهم ومدنهم وقراهم، ووقاية أنفسهم من الأمراض الخطرة كالطاعون والجرب وغيرها من الأمراض المعدية⁽¹⁾.

(1) د. أحمد ثاني الديسري - نفس المرجع ص 168.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة: رسالة الإسلام والسلام	7
المجتمع في إسبانيا الإسلامية	11
العرب	16
العرب العارية - البربر - الأمازيغ	21
الموالي	29
الإسبان	32
المولدين	36
اليهود	39
الصقلية	43
النورمان (الفايكنج)	49
انتشار الإسلام وجماعات غير المسلمين	53
الأقلية المسيحية في إسبانيا الإسلامية	61
اعتناق سكان إسبانيا الإسلام	76
العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة	84
الحياة الاجتماعية للطبقات العامة	92
انتشار اللغة العربية بين الإسبان	116
الحروب وتأثيرها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية	125
البناء الطبقي	128
الأسرة والمرأة في المجتمع الإسباني الإسلامي	142
مظاهر الحياة الاجتماعية	160
المجتمع الإسلامي في إشبيلية	169
العمارة	177
مجتمع غرناطة	187
الأعياد الدينية والاحتفالات العامة	202

sharif mahmoud


دار الكتاب الحديث

sharif mahmoud

دار الكتاب الحديث

المجتمع في إسبانيا الإسلامية - العرب - العرب العازبة - البربر -
الأمازيغ - الموالي - الإسبان - المولدين - اليهود - الصقالبة - النورمان
(الفايكنج) - انتشار الإسلام وجماعات غير المسلمين - الأقليات
المسيحية في إسبانيا الإسلامية - اعتناق سكان إسبانيا الإسلام -
العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة - الحياة الاجتماعية للطبقات
العامة - انتشار اللغة العربية بين الإسبان - الحروب وتأثيرها على
الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية - البناء الطبقي - الأسرة والمرأة في
المجتمع الإسباني الإسلامي - مظاهر الحياة الاجتماعية - المجتمع
الإسلامي في إشبيلية - العمارة - مجتمع غرناطة - الأعياد الدينية
والاحتفالات العامة .



المؤلف الدكتور
محمد حسن العبدروس

- من مواطني دولة الإمارات العربية المتحدة .

- رئيس مركز الميغروس للدراسات والاستشارات ومجموعة العبدروس التجارية .

- حاصل على الليسانس من لبنان والمجستير في التطورات السياسية في الإمارات العربية

1971 - 1974 والنكتورة من مصر عام 1983 في العلاقات العربية الإيرانية 1921 - 1971 .

- عمل في دائرة الإسكان والمشتريات بالحكومة المحلية في إمارة أبو ظبي 1970 - 1973 ثم مديراً للعلاقات الثقافية

بالحكومة الاتحادية لدولة الإمارات العربية المتحدة 1979 - 1984 ، ثم جامعة الإمارات العربية المتحدة 1984 - 1993

وقام بالتدريس في كلية زايد العسكرية في مدينة العين وكذلك يكتفي الطفرة الحوية في أبو ظبي ، كما شارك في

دورة تدريب الدبلوماسيين في وزارة الخارجية بدولة الإمارات العربية المتحدة ، ثم في جامعة الكويت 1993 - 2000 ثم

في جامعة ووتردام الإسلامية بهولندا 2000 - 2002 ، ثم في القوات المسلحة لدولة الإمارات العربية

2002 - 2006 : الأمين العام للجنة الإمارات للتاريخ العسكري ، ثم رئيس مؤسسة استشارات

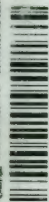
والتجاري في السويد من عام 2007 حتى الآن ، وهو عضو في العديد من الجمعيات العلمية الإقتصادية

الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب منذ عام 1991 وحتى الآن ورئيس تحرير مجلة دراسات

صدر له أكثر من اثنين عشر كتاباً وأكثر من أربعين بحثاً معظمها في الخليج العربي والدراسات

- نائب رئيس جمعية الناشئين الإماراتيين .

Bibliotheca Alexandrina



4202618

العصر الأندلسي

تاريخ العرب في بلاد الأندلس

دراسة في الحياة الاجتماعية لإسبانيا الإسلامية

